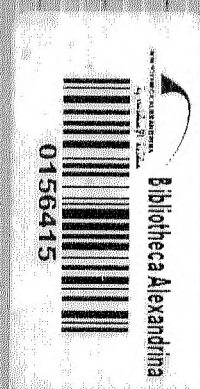


في

الشعر الأوربي المعاصر

تأليف
الدكتور عبد الرحمن بدوي



في لشجر الأوري البعاص

تأليف
عبد الرحمن بدوي

ملزوم الطبع والنشر
مكتبة الانجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد مرید — بالقاهرة
١٩٦٥

مؤلفات

الدكتور عبد الرحمن بدوي

(أ) مبتكرات

- ١ - الزمان الوجودي ٤ - الحور والنور
- ٢ - هموم الشباب ٥ - نشيد التريب (شعر)
- ٣ - مرآة نفس [ديوان شعر] ٦ - هل يمكن قيام أخلاق وجودية ؟

(ب) دراسات

- ١ - الموت والعبقريّة ٤ - النقد التاريخي
- ٢ - دراسات في الفلسفة الوجودية ٥ - مناهج البحث العلمي
- ٣ - المنطق الصوري والرياضي ٦ - في الشعر الأوروبي المعاصر

خلاصة الفكر الأوروبي

- ١ - نيتشه ٥ - أرسطو
- ٢ - اشبنجار ٦ - ربيع الفكر اليوناني
- ٣ - شوبنهاور ٧ - خريف الفكر اليوناني
- ٤ - أفلاطون ٨ - فلسفة العصور الوسطى
- ٩ - المثالية الألمانية (في ثلاثة أجزاء : فشته - هيجل - شلنج)

(ج) دراسات إسلامية

- ١ - التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية .
- ٢ - من تاريخ الإلحاد في الإسلام .
- ٣ - شخصيات قلقة في الإسلام

(٥)

- ٤ -- الإنسانية والوجودية في الفكر العربي
- ٥ -- أرسطو عند العرب
- ٦ -- المثل العقلية الأفلاطونية
- ٧ -- منطق أرسطو (٣ أجزاء)
- ٨ -- شهيدة العشق الإلهي (رابعة العدوية)
- ٩ -- شطحات الصوفية (أبو يزيد البسطامي)
- ١٠ -- روح الحضارة العربية
- ١١ -- الإنسان الكامل في الإسلام
- ١٢ -- التوحيدى : الإشارات الإلهية
- ١٣ -- مسكويه : الحكمة الخالدة
- ١٤ -- فن الشعر لأرسطو طاليس وشروحه العربية
- ١٥ -- الأصول اليونانية للنظريات السياسية في الإسلام
- ١٦ -- أرسطو طاليس : في النفس (مع « الآراء الطبيعية » لفلوطرخس وكتاب « النبات » ، ثم « الحس والمحسوس » لابن رشد)
- ١٧ -- ابن سينا : عيون الحكمة
- ١٨ -- ابن سينا : البرهان (من « الشفاء »)
- ١٩ -- الأفلاطونية المحدثة عند العرب
- ٢٠ -- أفلوطين عند العرب
- ٢١ -- للبشر بن فاتك : مختار الحكم
- ٢٢ -- قلهوزن : الحوارج والشيعة
- ٢٣ -- أرسطو طاليس : الخطابة
- ٢٤ -- ابن رشد : تلخيص الخطابة
- ٢٥ -- مخطوطات أرسطو في العربية
- ٢٦ -- مؤلفات الغزالي
- ٢٧ -- مؤلفات ابن خلدون
- ٢٨ -- أرسطو طاليس : في السماء والآثار العلوية

(ه)

- ٢٩-- حازم القرطاجنى وأرسطو طاليس
- ٣٠-- رسائل ابن سبعين
- ٣١-- دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى
- ٣٢-- أرسطو طاليس : الطبيعة (بشروحه العربية القديمة)
- ٣٣-- ابن سينا : فن الشعر (من « الشفا »)
- ٣٤-- الغزالى : فضائح الباطنية
- ٣٥-- رسائل الإسكندر الأفروديسى
- ٣٦-- أسين بلاثيوس : ابن عربى

(ز) ترجمات

الروائع المائة

- ١ -- أيشندورف : من حياة حائر باثر
- ٣ -- فوكيه : أندين
- ٣ -- جيته : الديوان الشرقى
- ٤ -- بيرن : أنشيلد هارولد
- ٥ -- جيته : الأنساب المختارة
- ٦ -- برشت : دائرة الطباشير القوقازية
- ٧ -- ثربنتس : دون كيخوته (فى ٤ أجزاء)
- ٨ -- دورنمات : علماء الطبيعة
- ٩ -- مسرحيات لوركا : ١ . يرما - عرس الدم - الاسكافية العجيبة .
- ١٠ -- مسرحيات برشت : ٢ . الأم شجاعة وأولادها - الإنسان الطيب فى ستسوان
- ١١ -- أيونسكو : المدرس - بنت للزواج

* * *

اشفيتسر : فلسفة الحضارة

بنروبى : مصادر وتيارات الفلسفة المعاصرة فى فرنسا

ج . ب . سارتر : الوجود والعدم

رينيه ويج : الفن والنور واللوحات

استهلال

حتى في هذا العصر ، عصر الصناعة الفنية والإنسان الآلى ، لا يزال للشعر مكان الصدارة بين الفنون ، لأن الحاجة إليه تنبثق من أعماق النفس الإنسانية ، بوصفه التعبير الحى المتجدد أبداً عن نزوعها إلى ما فوق الواقع وعن إحساسها بالروابط المستسرة بين ظواهر الطبيعة ، وعن مشاركتها في سر الإبداع والخلق ، وعن تعاطفها مع سائر بني الإنسان ، وعن خفايا العواطف التى يتميز بها الإنسان من سائر الكائنات .

والشعر المعاصر الأوروبى يمثل هذا العصر : بما فيه من قلق بالغ على مصير الإنسان بعد ازدياد آلات الدمار الشامل إلى حد يخشى معه حتى على مجرد الوجود الإنسانى بأسره ؛ وبما أحرز من تقدم صناعى هائل جعل الكلمة العليا للآلة والسك والاققتصاد ؛ وبما يضطرب فيه من مذاهب اجتماعية متلاحمة تتوزع العالم بأسره فتجبر في تيارها العاصف المتلاطم مختلف النزعات ، وبما تميز به من صراع دموى على المستوى العالمى في حربين ضروسين لن يزول آثارها أبداً .

وهذا القلق الكلى هو السبب في قيام اتجاهات متطرفة إن في الشكل وفى المحتوى ، نشداناً للجدة بأى ثمن ؛ وتبرماً بالماضى مهما يكن ، وتعبيراً عن اليأس الإنسانى البالغ ، ومظهراً من مظاهر دور الخريف ، بل الشتاء في سير هذه الحضارة . غير أن تاريخ الفكر الإنسانى قد دلنا على أن المصير المحتوم لكل الاتجاهات التى لا تقوم على أساس راسخ من القيم الحقيقية هو الزوال السريع والنسيان ، مهما تلاً لأبريقها الخاطف في فترة من الزمان .

-- ح --

وفي الدراسات التي يتضمنها هذا الكتاب سيجد القارئ الأنماط
الكبرى لهذه الاتجاهات على اختلافها ، ولعله سيتساءل معي عند الفراغ
من قراءتها :

لكن ماذا سيبقى على المدى الطويل من هذه الاتجاهات ؟
ولعل الجواب عنده أن يكون مثل الجواب الذي وصلت أنا إليه ،
ألا وهو : قليل جداً !

القاهرة ١٩٥٩ — ١٩٦٥

عبد الرحمن بدوي

الشاعر رلكه في مصر

حجج إلى الينبوع الذي تنبثق منه الأسرار ، وانطلاق إلى دنيا من النور الصافي في تعارض حاد مع الوسط الذي جى فيه .
وبحث عن أحساس جديدة قادرة على خلق قشعريرة خصبة في نفس تخشى الجمود ، ونقوذ في مستور يستهويه فيه أنه مستور .

* * *

تلك كانت رحلة الشاعر الماني المعاصر (١٨٧٥ - ١٩٢٦) رينر ماريه رلكه Rainer Maria Rilke إلى مصر سنة ١٩١١ . وإنها لتشغل مكانة ممتازة بين رحلات هذا الشارد الذي أمضى عمره راحلا ، سعيًا وراء ما هو أصيل . إن نوعاً من الاستقطاب المرهف يبهظ كاهله فلا يملك إلا الانجذاب بالأضداد الفزيائية والروحية على السواء ، فالفزيائي والروحي كلاهما متوقف على الآخر .

- ١ -

إنه شاعر « الفقر والموت » ، فكيف لا يحلم بزيارة تلك الأراضي التي يهيمن عليها سر الموت منذ ستة آلاف سنة ، والتي وجد فيها نذر النفس للفقر أول محاولة للوفاء به لدى آباء الصحراء الرهبان ؟ إنه المتغنى بالملائكة ، فكيف لا يزور ديار ذلك الدين الذي تابع الملائكة في تكوينه دوراً رئيسياً ، فقد بشر بكتابه ملك ، وحمل الوحي إلى نبيه ملك !

لقد سبقته زوجته كلارا Clara إلى القيام بهذه الرحلة وكشفت له عن بعض مفاتيح هذه الأرض الحافلة بالأسرار ، أرض مصر . وها هو ذا في يناير ١٩٠٧ يصور لنفسه في خياله ما تقوم به زوجته في الواقع . فيتابع بالذهن رحلتها إلى مصر . وها هو ذا في فلا دسكوپولي Villa Discopoli

بجزيرة كاپرى Capri تجاه نابلى ينحنى على أطلس يتبين فيه « ذلك النهر الذى يصنع المعجزات ؛ ويبدولى - كما قال - أنه يروى قصة آلهة هذه الأرض ، وأصول الألوهية المستورة التى لن يبلغها بشر ، الأصول التى ترجع إلى مجموعة من البحيرات لا ينضب معينها قد ارتفعت هناك ، وتروى طريقه الطويل الشديد الذى يتقدم أبداً وفى تقدمه ينتج الآثار نفسها أينما سار ، ثم ينتشر على هيئة فروع ، هى آلهة صغرى ، بها تفرغ كل حضارة وتصبح مطموسة المعالم » . (من رسالة إلى كلارا رلكه زوجته فى ٢٠ من يناير سنة ١٩٠٧) فصر إذن هى أول أرض الآلهة فى خيال صاحبنا رلكه . وهؤلاء الآلهة يبدؤون قليلى العدد ثم يتكاثرون كلما ضعفت قوتهم وتضاءل سلطانهم والحضارة حينما تبدأ فى الذبول تستكثر من الآلهة ، وكثرة الآلهة - وفى السياسة : الحكم - آية على الذبول والانحلال . وتلك ملاحظة وجيهة أبدأها رلكه بالنسبة إلى مصر ، وتنطبق على كل حضارة .

وأكبر هؤلاء الآلهة : النيل نفسه ، هذا النهر الجوهري ، أعنى أنه هو الذى يصنع جوهر أرض بمصر . « وإنه ليتشخص تشخصاً حقيقياً وكأن له مصيراً وميلاداً غامضاً وموتاً طويلاً متظاولاً ، بينهما حياة هائلة ممتدة نبيلة تحمل على العمل كل من يقترب منها ، طوال آلاف السنين ، حياة عظيمة جداً ، طامحة جداً ، تملو عن الإدراك » (رسائل من الستين ١٩٠٦ - ١٩٠٧ ، ص ١٦٤) .

وهو يقارنه بنهر الفلجا : أما هذا فلا شخصية له ، إنه ليس إلا طريقاً طويلاً خلال أرض سامية هى روسيا ، الهها الذى فى تغير مستمر . وفى مقابل هذه الحياة الرائعة التى يهبها النيل هنا لك الصحراء ، مائعة مطموسة المعالم ، لا بداية لها ولا نهاية . إنها شئ غير مخلوق ، ومساحات فسيحة ترتفع وتقصع عن حضورها دائماً ، وبعدها تضايق السماء . ولقد تأثر رلكه بالصحراء أينما تأثر . وخلبه فيها انعكاس السماء عليها .

وبعد أن استعرض في مخيلته العناصر الكبرى في الأرض المصرية، راح يتمثل آثارها القديمة : «رأس أبي الهول الكبير ، الذي يرتفع بصعوبة من انتفاخه المتواصل ، هذا الرأس وذلك الوجه اللذان بدأ الناس صياغتهما في المقدار . أما التعبير والرؤية والمعرفة فقد اكتملت على تطاول السنين على نحو مخالف لنحو الناس » . (المرجع نفسه ص ١٦٥) . ذلك أن رلكه لا ينظر إلى الآثار المصرية إلا من خلال الروابط الزمانية بمرتبة السرمدية ، وهذه إذن تؤلف بهذا جوهرها الحق ؛ فأبو الهول مثلاً ليس ذلك الأثر الفنى الذى صنعه نحات معين . بل هو أولا وقبل كل شىء ذلك الأثر الذى عاين فى صنعه الزمان . إذن لقد اشترك فى عمله فنانان : الفنان البشرى ، ثم ذلك الفنان العظيم الآخر ألا وهو الزمان . فلم يعد مجرد حجر منحوت ، بل صار كائناً حياً «شاهد أصبح آلاف الايام ، وأمواج الرياح ، ومالا يحصى من النجوم التى تطلع وتأفل ، ومواكب الأفلاك فى العلا ، وحرارة السموات الممتدة هناك أبداً » (المرجع نفسه ، ص ١٦٦) .

وليس «الزمان» وحده ، بل هناك «المكان» ، المكان الممتد القسيح على الأرض وفى السموات ، وتزاوجه مع الزمان يؤلف نسيج الحياة الأبدية التى ينعم بها أبو الهول وكل أثر مصرى .

وتلك هى الصورة التى كونها رلكه لنفسه عن مصر قبل أن يرحل إليها . على أنه مما يدعو إلى أسفنا أن رسائل كلارا رلكه إبان رحلتها إلى مصر لم تنشر بعد ولم نستطع الاطلاع على أصولها الخطية إن كانت قد بقيت . ولهذا تعوزنا البيانات الدقيقة فى هذا الموضوع . وكل ما فعلته أنها رحلت إلى مصر فى نهاية سنة ١٩٠٦ برفقة جمع من الانصحاب والصواحب ، للقيام بمهمة خفية . إذ ذهبوا إلى مصر للتلمذ على أعظم مدرسة نحت عرفها تاريخ الفن . وقد قال زوجها فى هذا الشأن : «إن المصريين أعظم الفنانين فى ميدان الفنون

— ٤ —

التشكيلية (راجع كتاب كترينا كبنبرج : « رينر ماريا رلكه » ، ص ٢٢٥ ،
باريس سنة ١٩٤٢) . وكانت زوجته نحاتة ممتازة عاشت مع فناني فورسفيده
Worpswede وبرزت من بينهم في فنها .

٢

وليس من شك في أن هذه الصورة ستظل أجمل صورة في خيال رلكه
عن مصر ، لا لأن الواقع قد خيب أمله فيما بعد ، ولكنه حلم الشاعر الذي
لا يمكن أبداً أن يجاريه الواقع أو يدانيه .

ويزعم بعض الباحثين أن بلاد اليونان هي التي قادت رلكه إلى مصر .
لكنه لو صح هذا ، لكان من الغريب أن يفضل رلكه زيارة مصر ويعدل
عن زيارة اليونان ؛ ففي سن الثلاثين خطرت بباله فكرة زيارة اليونان ؛ بيد
أنه عدل عنها بعد قليل ، ولم يزر بلاد اليونان أبداً ؛ لهذا نرى نحن
— على عكس أولئك — أنه ما كان له أن يعدل عن زيارة بلاد اليونان
لو أنها هي التي قادت إلى مصر . أو كان على الأقل قد قام بالرحلتين معاً ،
فعدوله عن زيارة بلاد اليونان هي عندنا أبلغ دليل على أنه ليست اليونان هي
التي جرت إلى زيارة بلاد النيل . ماذا أقول ! بل إنه لم يقيم بزيارة مصر إلا معارضة
لبلاد اليونان والعقل الهليني المنطقي المحكم . والمرء لا يستطيع في الوقت
نفسه أن يقيم « الصلاة على الأكرول » و « الصلاة عند سفح الأهرام » .
وكان رلكه يفهم هذا التمييز جيداً ؛ ويعلم عن نفسه أنه ليس شاعراً يوناني
الزعة ، مثل جيته أو هيلدرلن . لهذا كان عليه إذن أن يختار بين مصر
واليونان : بين عالم الأسرار ، وعالم البراهين المنطقية .

واختار رلكه . اختار مصر . وقبل أن يصل إليها عرج قبلها على الجزائر
وتونس ؛ فكان ذلك إعداداً أولياً هياً له الالتقاء بدار الإسلام ودنيا العرب .
وها هو ذا يدرس الإسلام ، وينشئ قصيدة عن رسالة النبي محمد يكشف فيها

— ٥ —

عن إعجاب شديد به ، وقد نظمها في المدة من ٢٢ أغسطس إلى ٨ سبتمبر
سنة ١٩٠٧ بعنوان : « رسالة محمد » .

رسالة محمد

لما تبدى الملك الكريم الطاهر
ذو الملاح المعروفة والنور الباهر -
تبدى رائعاً له في خلوته - خلع
كل كبرياء وخيلاء ؛ وتوسل

إلى « التاجر » - وقد اضطرب
باطنه إثر أسفاره - توسل إليه أن يبتى ؛
لم يكن قارئاً - وها هي ذى « كلمة »
كلمة عظيمة حتى على حكيم
لكن الملك وجهه بمهارة
إلى ما كان مسطوراً في لوح
ولم ييأس ، بل ظل
يردد دائماً : اقرأ !
فقرأ ، حتى انحنى للملك
وأصبح ممن
يعرفون كيف يقرءون
وليستمعون ويتمون (الرسالة) .

* * *

ولسنا ندرى ماذا دفع رلكه إلى كتابة هذه القصيدة : أهى من أثر قراءة
سيرة الرسول ؟ أم هى محاكاة لجيته فى « الديوان الشرقى للمؤلف الغربى » ؟
ليس لدينا بيان عن الدوافع التى تحت تأثيرها نظم رلكه هذه القصيدة
التي صاغ فيها مضمون سورة « العلق » . وهى تدل — على كل حال — على
مدى تأثير رلكه بالإسلام .

وعن رحلته إلى الجزائر لم يترك لنا أثراً . أما عن رحلته إلى تونس ، ففي
رسائله البيان الوافى . رحل إلى تونس فى ديسمبر سنة ١٩١٠ ، فزار مدينة
تونس . وطاف بأسواقها الغنية بعروضها ومتاجرها وأقشمتها المتعددة الألوان
وشاهد الذهب يرف طوال النهار ، أما فى الليل فلا يضىء غير مصباح متعجّر
ويسود المكان جو « ألف ليلة وليلة » ، فما أن ينبلج الصبح حتى ينفذ نور
الشمس من خلال سقوف السوق فيحيل الألوان : فلا أخضر يصبح شفافاً ،
والأحمر ينقلب حاراً ، واللازوردى يجلله الخشوع والاستسلام . ويتجول فى
سوق العطارين وقد تعرف فيه بعطار لا تصافه اليد حتى تظل معطرة النهار
كله . — وفى رسالة مؤرخة من القيروان بتاريخ ٢١ من ديسمبر سنة ١٩١٠
يكشف رلكه عن جانب آخر من جوانب الشرق الإسلامى : جانب التصوف
والتقوى والزهادة . فهو يقول عن القيروان إنها مدينة مقدسة ، تأتي بعد
مكة مقصداً للحج عند المسلمين (كذا تصورها رلكه من تصورات أهل
تونس) . لقد أنشأها سيدى عقبة ^(١) ، أحد الصحابة وفيها مسجد جامع عظيم
استخدمت فى بنائه أعمدة كثيرة من آثار قرطاجنة والمدن الساحلية الرومانية
والفينيقية لتحمل سعفاً من خشب الأرز وقباباً بيضاء . ولا يحيط بالمدينة
سوى السهول وللقابر ، لهذا تبدت له كأن الموتى يحاصرونها . إنهم راقدون
حولها يزددون دائماً ولا يتحركون أبداً .

(١) عقبة بن نافع بن عبد قيس لفهرى ، ولد على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . قاله
ابن عبد البر فى الإستيعاب . (ج ٣ ص ١٠٧٥ ، نهضة مصر) : لاتصح له حجة . ولاء عمرو بن العاص
افريقية (تونس) سنة ٤١ هـ . وقتل عقبة بن نافع سنة ٦٣ هـ بعد أن غزا السوس الأقصى ، قتله كيلة بن لرم .

ومنظر هذه المدينة الإسلامية « المقدسة » يثير في نفسه خواطر عن الإسلام . إنه متأثر كل التأثر ببساطة الإسلام وحيويته . والنبي لا يزال سائداً أثره كما كان في الماضي ، والمدينة مدينته وكأنها قطعة من دولته .

ولقد تركت هذه الرحلة إلى الجزائر وتونس في نفسه أثراً قوياً ، لكنه مضطرب ، فيه تجتمع الأضداد كلها : الجديد والمألوف ، الغريب والمعهود ، وكلها تتشابه تشابهاً يجعله عاجزاً عن التعبير عن نفسه وانطباعاتها ، كما اعترف بذلك في رسالة له إلى الناشر كبنبرج في ٤ من يناير سنة ١٩١١ ، لكنه مغتبط كل الاغتباط بهذه الرحلة التي استشرف منها على عالم غريب صار الآن أشوق ما يكون إلى النفوذ إليه والتلبث طويلاً فيه .

٣

هذا العالم الجديد الغريب سيجده بأجلى صوره وأعرق معانيه في مصر ، لكنه هنا لا يجذبه الإسلام وآثاره والعصر الوسيط وما خلفه ، بل العصر الفرعوني القديم . ومن الغريب حقاً أنه لا يقول — في رسائله وقصائده — كلمة واحدة عن الآثار الإسلامية في مصر ، ولا عن الحياة الإسلامية فيها . وهو لاشك شاهدها في القاهرة . لكن يبدو أن مصر الفرعونية قد استغرقت استغراقاً تاماً بحيث حجبته روعة مصر الإسلامية .

لما فرغ راسكه من رحلته في الجزائر وتونس ، عاد إلى باريس . وسرعان ما ارتحل منها إلى نابلي ، وإنه يشعر الآن أن روح الشرق قد استولت على كل نفسه ، وها هو ذا يقول لكاترينا كبنبرج K. Kippenberg زوجة ناشر كتبه في رسالة مؤرخة في ٤ من يناير سنة ١٩١١ — إنه يشعر بأن عالم الشرق بدأ يتفتح له ، وإنه لم ينخدع فيما توقعه من الشرق ، لكنه شعر بنفسه مبتدئاً في هذا العالم الغريب عنه ، الذي يصل إليه منه نداء قوى أصله في عليين .

وفى السادس عشر من شهر يناير سنة ١٩١١ أبحر الشاعر إلى مصر .
قبلت الاسكندرية فى التاسع ، ومنها استقل القطار فوراً إلى القاهرة حيث نزل
فى فندق شبرد « القديم » الذى احترق فى يوم ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ .

وفى الغداة (العاشر من يناير سنة ١٩١١) بدأ رحلته إلى الصعيد
على ظهر الباخرة « رمسيس الأكبر » . وقد كانت زيارة الصعيد وأثاره أجل
ما تكون - ولا تزال - على ظهر باخرة نيلية ، وكانت هذه الطريقة على كل
حال هى المحبة عند كبار السائحين ، فهى أحفل بالملفاتن الطبيعية ، وأكثر
شاعرية من السفر بالسكك الحديدية .

ولنتابع الشاعر إذن منذ البداية ؛ ها هو ذا فى اليوم الأول (العاشر من
يناير سنة ١٩١١) على ظهر الباخرة « رمسيس الأكبر » التى سارت تهادى
فى النيل حتى وصلت أمام البدرشين عند الظهر ؛ فألقت مراسيها . ونزل
السائحون لزيارة آثار ماصمة مصر القديمة ، منف . وركبوا الخيل خلال أشجار
النخيل ليصلوا إلى تمثال رمسيس الثانى (١٢٩٨ - ١٢٣٢ قبل الميلاد) الذى
كان يرقد هناك منذ آلاف السنين ، وظل كذلك حتى نقل أخيراً فى سنة
١٩٥٥ إلى ميدان المحطة بالقاهرة ، وأقيم واقفاً بعد أن أجريت عليه ترميمات
كثيرة . فالتثال قبل ترميمه وكما شاهده ولكه كانت تنقصه القدم اليمنى ،
وقد قطعت ساقه اليسرى فوق السمانة .

وعند المغيب عاد رلكه وجميع السائحين إلى الباخرة ، وفى اليوم
التالى (١١ / ١ / ١٩١١) كانت الباخرة تمر سريعاً ببلاد الصعيد : بنى سويف
بماؤها البيض وقصرها الأخضر (أى قصر ؟ لا ندرى) ثم البيوت المبنية
بالبن التى تغوص فى ملكوت التراب (« رسائله » ج ١ ص ٢٩٥) وعديد من

القرى الراقدة فى ظلال النخيل ؛ وأديرة قبطية صغيرة ، ومحاجر وجبال .
 وها هو ذا يتأمل بإعجاب كل ما يتراءى أمامه على جنبات الوادى الخصب :
 من حياة الطير إلى سلاسل القرى الهزيلة السكاكية الرتيبة ، وهى تتعاقب على
 مجرى النيل الرائع الخالد ، كما يشاهد من مكانه فى الباخرة جماعات الرعاة
 والتجار ، ومواكب الجنائز وهى تتدافع ، وصور القنوات وهى تتحرك
 ببطء فى اتجاه عمودى ، وطائراً جارحاً يقف على لسان مرتفع : كل هذه
 يتلقطها رلكه من المناظر المصرية التى تتوالى أمام ناظريه . وأكتر ما يجذب
 هو الألوان للمتغيرة الهاربة ، خصوصاً : الأسمر الذى يستطيع أن يتحول إلى
 وردى ، وأخضر الحقول الذى يشبه أخضر الصور المصغرة miniatures ،
 والأسمر الذى يرف كالأحجار الكريمة . وكأن رلكه إذن قد نظر إلى
 مشاهد أرض الفراعنة بعين الفنان التأثرى . والنظر المصرى بطبعه غنى
 بالألوان ، والزاهى منها بخاصة ؛ إنه سمفونية من الألوان ، وهذا هو السبب
 فى أن الرسم بالألوان قد ازدهر فى مصر ازدهاراً رائعاً منذ أقدم عصورها .

ووصل شاعرنا إلى الأقصر فى ١٧ من يناير سنة ١٩١١ فأمضى بها
 ثلاثة أيام ، زار أثناءها معبد الأقصر بأعمدته اللوتسية الشكل . وهو المعبد
 الذى أنشأه أمينوفيس الثالث (سنة ١٤٠٥ - سنة ١٣٧٠) من الأسرة
 الثامنة عشرة . وتوالت فيه طقوس عبادات مختلفة : مصرية وغير مصرية .
 كان معبداً لأمون ، يتحرك إليه فى موكب رائع على النيل ، وفى معيته
 حاشية طويلة من الآلهة الأخرى تحمل زوارقها المقدسة ، الزاهية بالذهب
 والأحجار الكريمة ، على مراكب كبيرة . وعلى طول الشاطئ كان المغنون
 والراقصون يصحبون الموكب . أما فى العهد اليونانى (الهليني) فقد حلت
 محل عبادة أمون - عبادة يونانية مصرية . ثم جاء الرومان فأقاموا فى المعبد

مذابح كرسوها لعبادة الامبراطور . وجاءت المسيحية فأقامت أعمدة كنائسها على الجانب الشرقى من المعبد . ويربط هنا المعبد بمعبد الكرنك طريق الكباش ويبلغ ثلاثة كيلو مترات .

لهذا لم يكن عجباً أن يسمى راسه هذه البقعة ذات المعابد باسم « عالم معابد الكرنك » (رسائل ج ١ ص ٢٩٧ . Insel Verlag سنة ١٩٥٠) .

فتوقف أمام هذا العالم العظيم يشاهده ، ويعاود ثم يعاود مشاهدته في أول أمسية قضاها ، وفي مساء اليوم التالى على ضوء القمر . فتأثر بهذا السحر الذى لا يبلغ مداه التعبير ، وصاح : « إلهى ! إن المرء ليحشد خاطره . ويتأمل بكل ما لإيمانه من إرادة ، والعينان مسطقتان على الداخل — لكنه مع ذلك يذهب بعيداً ويمتد إلى كل ناحية (والله وحده هو الذى يستطيع أن يحيط بمجال الرؤية هذا) — هناك عمود كأسى الشكل ، وحده ، استطاع البقاء ، لا يقوى النظر على استيعابه ، فهو فوق النظر ؛ إنما يستطيع المرء فى الليل إدراكه على نحو من الأنحاء ، مع النجوم ، وفى خلال لحظة يصبح إنسانياً يستشعر للمرء منه تجربة حية » (الرسائل ج ١ ص ٢٩٧) .

ورسكه يشير هنا إلى عمود تحرقه، الملك الحبشى، وسرى عما قليل كيف أن هذا العمود المتوحد الهائل سيوحى إلى رسكه بقصيدة من أجمل قصائده .

نحن الآن فى الكرنك ، فى عالم من المعابد ، على الشاطئ الشرقى من مساحة طولها ١٤٤٠ م وعرضها ٧٥٠ م تضم داخلها معبداً ، و ١٠ مداخل (بيلون) ، وبجيرتين مقدستين ، وطرق آباء هول وكباش وبوابات وأسواراً وفى المعابد مالا يحصى من التماثيل والأعمدة والمسلات . يدخل المرء من الناحية الغربية ، ويمر فى طريق الكباش ، ويخترق أول فناء ثم يدخل معبد أمون . وهو معبد يمتد تاريخه إلى أكثر من ١٥٠٠ سنة ؛ ولهذا خلا من

وحدة المعمار ، فجاء مجموعة من الأبنية والمخططات تبدأ من الدولة الوسطى . (٢٠٠٠ إلى ١٧٨٥ ق . م) وتستمر حتى عصر البطالسة . وأول تخطيط يرجع إلى الأسرة الثانية عشرة ، لكن لم يبق منه إلا أثر ضئيل جداً . أما المعبد الكبير فكانت مساحته أربعين متراً مربعاً ، ولم يبق لدينا إلا أثر تخطيط هذا المعبد . ثم جاء تحتمس الأول (سنة ١٥٣٠ — سنة ١٥٢٠ ق . م) فأحاط مكان هذا المعبد بسور واحد أنهى ناحية الغرب بالمدخل الرابع . وأمام هذا المدخل أمر بإقامة مسلتين لاتزال الجنوبية منهما قائمة . ومن بعده أضاف تحتمس الثالث (سنة ١٥٠٥ — سنة ١٥٤٠ ق . م) مسلتين أخريين زالتا . ثم أضيف مدخل خامس ناحية الشرق . وجاءت الملكة حتشبسوت (سنة ١٥٠٥ سنة ١٤٨٤ ق . م) فأمرت ببناء مسلتين ضخمتين بين بوابتي المدخلين الرابع والخامس ، لاتزال الشمالية منهما موجودة ، أما الجنوبية فقد بقيت منها بقية بالقرب من البحيرة المقدسة .

وتكفي هذه البيانات الموجزة لتعطي فكرة عن عالم المعابد هذا الذي سحر رلكه سحراً لم يظهر أثره الشعري إلا بعد هذه الرحلة بتسع سنوات وهو في خلوة بقصر برج - على - الإرشل ، القريب من زيورخ في سويسرة . وذلك في مجموعة من الشعر نشرت بعد وفاته بعنوان « من آثار الكونت ك ف . دائرة قصائد »

.Aus dem Nachlass des Grafen C. W. Ein Gedickkreis

وقصة هذه المجموعة الشعرية قصة مثيرة ، لهذا يحس بنا أن نرويها :

ففي شتاء ١٩٢٠ - ١٩٢١ دعى رلكه إلى قضاء بضعة أشهر في قصر برج - على - الإرشل . وهناك كان وحيداً ، في مناجاة لنفسه دائماً . وإذا به يتخيل في وحدته أن أحد الأجداد الذين سكنوا هذا القصر مثل أمامه وجلس على المدخنة وأنشأ يقرأ أمام رلكه من مخطوط فيه أشعار ، نسجها .

رأسه فيما بعد ، وهي المجموعة التي سميت باسم « من آثار الكونت ك. ف. »
ورأسه يسمى هذه القصائد « الأعيب شعرية » . ولهذا لم يشأ أن ينشرها
أثناء حياته . وإنما نشر منها القصيدة الخاصة بـ « الكرنك » في « التقويم
السنوي لمكتبة إنزل » Inselalmanach سنة ١٩٢٣ ، نشرها بغير توقيعه
وكان قد وعد ناشره بها ، حينما زاره في خلوته في برج - على - الارشل
يومي ٢٣ و ٢٤ من يناير سنة ١٩٢١ وفي الرسالة التي بعثها مرافقة لهذه
القصائد لما أن أرسلها إلى الأميرة فون تورن وتناكسيس في ١٩٢١/٣/٦
قال إن هذه القصائد « ليست إياه » ، لكنه يلفت نظرها بخاصة إلى القصيدة
الخاصة بمصر ومطلها : « كان ذلك في الكرنك » ويوصيها بها توصية
خاصة .

والواقع أن هذه القصيدة هي أجل ما في المجموعة . وفيها يصف رأسه
انطباعات زيارته لمعبد الكرنك في المساء على ضوء القمر الساطع ، وبصحبه
هيالانه . استهل رأسه هذه القصيدة بقوله :

« كان ذلك في الكرنك . إلى هناك ذهبنا على فرس
هيالانه وأنا ، بعد عشاء سريع
وتوقف الترجان : هنا طريق آباء الهول - ،
آه ؟ المدخل : لم أغص من قبل
في عالم جديد مثل هذا ! (أهذا ممكن ، أيتها العظمة ،
لقد عظمت في نفسي عظماً مفرطاً !)
السفر ، هل هو البحث ؟ الآن ، قد أصبح غاية .
والحارس عند المدخل أشعرنا
بقشعريرة المقدار : فلنكن صغيراً
إزاء ارتفاع البوابة المتواصل !

والآن ، وطوال العمر كله ،
العمود - ذاك العمود ! أليس كافيا ؟
إن التدمير جعله على حق : لقد كان أعلى
من أى سقف . ولكنه بقى حاملا
ليل مصر .

وفى هذا المطلع يشير رلكه إلى الآثار الكبرى التى استرعت انتباهه :
« المدخل » ، وخصوصاً « العمود » . ويقصد بالعمود هنا العمود الوحيد
الباقى من سلسلتين من الأعمدة أمر باقامتهما الملك الحبشى تحرقه (٦٩٠ -
٦٦٤ ق . م) تمتدان أمام قاعة الأعمد فى معبد أمون الكبير . بقى هذا
العمود وحده ، ويبلغ عشرين متراً فى الطول ، وتاجه عرضه ٥ أمتار ، ويتفتح
رأسه فى مواجهة السماء كأنه يحملها . والشاعر يرى فى مجرد بقائه رمزاً :
رمزاً على العظمة المتوحدة التى تبقى رغم صروف الزمان ، تبقى وحدها
مستقلة عن تيار الجماهير . إنه رمز لحياة رلكه نفسه ، هذا المتوحد الأكبر
الذى يعيش منفصلاً عن الدنيا المحيطة به ، منطوياً على نفسه فى تأمل عميق .
يفكر فى تقلبات العالم على مر الزمان .

هذا العمود المتوحد ، عاد رلكه فأشار إليه فى السوناتة الثانية والعشرين .
من « سوناتات أورفيوس » - حيث قال :

« آه ! ناقوس البرنز الذى يطرق

كل يوم بلسانه رتوب الحياة اليومية

أو عمود الكرنك ، العمود ،

العمود الذى بقى بعد زوال معابد شبه خالدة »

وإذن فن بين روائع الآثار فى الكرنك والأقصر سيستحوذ هذا
العمود بخاصة على فكر رلكه ، ويظل منقوشاً فى ذاكرته ، فيخطر

..ببالة دائماً كلما وردت كلمة عمود . ذلك أن العمود المصرى يختلف اختلافاً
بيننا عن كل عمود آخر : يونانى أو رومانى أو قوطى . فالعمود المصرى
رائع الكتلة ، يبدو وحده تمثالا . وبتجاه الذى على هيئة كأس يبدو كأنه
يحمل السماء وهو يتوجه إليها بينما القبة البيزنطية ثم العربية تتجه إلى لأرض ، وبينما
العمود اليونانى يغوص فى التربة ، وبينما العمود القوطى نحيل هزيل ،
تترى العمود المصرى يحمل السماء فى كأسه ، ويضم أسرارها بقوة وامتلأ .

ولنعد إلى قصيدة « الكرنك » :

« والفلاح الذى كان يرافقتنا
ظل فى المؤخرة . لقد كنا فى حاجة إلى وقت
لتحمل أثر هذا ، إذ كان أثراً شبه مدمر

أثر « الوقوف وحده » فى الوجود
الذى نفى فيه . — لو كان عندى ولد
لأرسلته إلى هناك ، فى نقطة تحول العمر
التي فيها يكرس المرء نفسه للحق وحده
« إنه هناك ، يشارل ، انفذ من « المدخل »
وتوقف لتتأمل ... »

لم يكن فى هذا غناء لنا — كيف ؟
أما أننا احتملناه ، فذلك كان كثيراً لكينا .

أنت المريضة فى ملابس السفر ،
وأنا راهب فى نظرياتي .

ومع ذلك رفقا ! هل تعرفين البحيرة .
التي جلست على حفافها تماثيل قطط من الجرايت .

حدود - حدود ماذا ؟
 كان للمرء محصوراً في المربع السحري .
 فلو لم يتدافع خمسة من ناحية
 (وأنت أيضاً كنت تنظرين حواليك) .
 لكنت على حالها : قططاً متحجرة خرساء ، -
 لكنت عقدت الجلسة .
 لقد كان كل هذا مليئاً بجو المحاكم .
 هنا سحر البركة ، وهناك على الشاطئ جعرانات هائلة .
 وعلى طول الجدران ملاحم
 الملوك : محكمة ^(١) . وفي الوقت نفسه
 براءة لم يسمع بمثلا .
 وامتلات التماثيل بنور القمر ، واحداً إثر آخر
 لقد كان نحتاً بارزاً
 واضحاً في طبيعته التي على شكل صحيفة
 كأنه آنية ، فيها صنع
 ما لم يسترأبداً ولم يقرأ :
 سر العالم ، وفي جوهرة من السر
 ما يجعله لا يستطيع التكيف مع « الصيرورة سرّاً » !
 كان الكل يتصفحون كتباً ^(٢) : لكن أحداً لم يقرأ
 في كتاب أوضح مما هنا - ،

(١) محكمة التاريخ التي تعقدها هذه الآثار ، بالوقائع التي ترونها وما جرى للملوك .
 (٢) يقصد كتب دلائل الآثار ، ولكنه يسخر منها لأن المشاهد المباشرة أهم من معرفة
 أسماء هذه الآثار .

- ١٦ -

(ما الداعى إلى البحث عن اسم ا) :
 إن ما لا يقدر كان بمقدار
 التضحية ... أوه ! انظر ، ماقيمة الملك
 إن لم يتقدم للتضحية ؟
 الأمور تجري ، ساعدها
 في مجراها . لكن حذار
 أن تنسرب حياتك من ثقب
 لكن كن دائماً الواهب المعطى .
 البغل والبقرة فى المكان الذى فيه صورة الملك ،
 الإله ، كالطفل الساكت ،
 يتناول بهدوء ويتسم .
 إن روح قداسته لم تنطفئ أبداً . إنه يأخذ ويأخذ
 بيد أن هذا الاعتدال إنما قصد به أن تحتضن الأميرة
 زهرة اللوتس ، بدلا من تمزيقها
 هنا

قطعت كل ممرات القرايين
 و « الأحد » يللم نفسه بصعوبة
 والأسابيع الطوال لاتقهمه . — وهناك الإنسان والحيوان
 ينحون جانباً المسكاسب التى لايعرفها الله .
 والأشغال ، حتى لو كانت شاقة ، فلا بد من تذليلها
 يعملها المرء ويعاود العمل ، فتصبح الأرض سهلة البلوغ

ومن يعط القيمة هو وحده الذى يتخلى ويذهب

تلك هى قصيدة الكرنك ، التى أودع فيها رلكه كل انطباعاته ، فى لغة مستسرة غريبة صعبة على الفهم ، قابلة للعديد من التأويلات. والموضوعات الرئيسية التى تناولها فيها هى : البقاء ، العظمة فى التماثيل ، السر ، التضحية والزهد — وهى موضوعات تسرى عروقها فى شعر رلكه كله. إلا أنه لا يشعر بعطف نحو القبط المنحوتة ، والتى كانت مقدسة للإلهة السرور « بستيت » فى بوبسطة ، وهى قبط فى أذانها حلق . والإلهة « بستيت » إلهة سماوية ، لأن السماء كانت صورتها مؤنثة ، وفى بوبسطة كانت السماء تعبد على هيئة قطة سميت بستيت (أو بسطيطة أو بسط) . وكانت أعيادها ؛ كما يقول

(ماسبيرو : Causeries d' Egypte p. 39 - 40)

يضرب بها المثل فى المرح ، ويقصدها الناس من جميع أطراف وادى النيل ، ويختلط فيها النساء بالرجال وهم قادمون على مركب فينزل النسوة وهن يقرعن الصنح ويعزفن على الشبابات . وكانت آلهة السماء فى سرور ، والأجداد فى جبور ، والحاضرون يعاقرون الخمر ، وعلى رؤسهم أكاليل الزهور ، تستروح منها فاغلمات العطور — وكل ذلك من مشرق الشمس حتى الغروب .

الآن هذه القبط رموز لإلهات السرور ، تراها أثارت عند شاعر الفقر والموت والأين : النفور ؟ ربما ، خصوصاً ورلكه لم يشأ أن يرى فى مصر غير مظهر الموت : فى العمود الباقى بين الأطلال وحده ، وفى المقابر والخرائب ورموز الموت . إن مصر الإلهة بسطيطة لا توحى إليه بشئ . فالأشياء تفنى ويجب أن تساعد على هذا الفناء ، أى يجب أن تفنى دون أن يعوقها عن ذلك حائق ، هذا مذهب رلكه .

(٢ م — الأدب الأوروبى)

والعطية في نظر رلكه آية النبالة والعظمة في الإنسان والآلهة على السواء والإله آمون يعطى دائماً ، فهو الشمس ؛ لكنه أيضاً يتناول ويأخذ بهدوء وجلال. إنه يتقبل من الناس قرايبتهم ، والناس بدورهم يكسبون من هذه القرايين ، وهكذا : كل شيء عطية وتضحية .

وعظمة الآثار للمصرية تملك عليه كل مشاعره . فأبرز مزايا الفن المصرى العظمة في المقدار ، ولا شيء يمكن أن يقاس إليه : إلا التضحية التي بذلت في سبيل إقامته .

٥

ويتابع شاعرنا زياراته للآثار المصرية في الأقصر وطيبة ووادي الملوك والمناطق المجاورة . وهو طبعاً إنما يسير وفقاً للبرنامج الذى وضع لرفاقه ، وليس هو الذى اختار برنامج الزيارة كما يتمتع بالآثار حسبما يشاء . وهذا أمر يدعو إلى الأسف ، ولكن هذه دائماً حال الرحلات الجماعية «المنظمة» . وبعد الأقصر زار إدفو حيث شاهد بقايا المعبد القديم المكرس للإله الصقر . حوريس ، وكان رمزه قرص الشمس بأجنحة الباشق ؛ والمعبد القائم حالياً يرجع إلى عهد البطالسة . غير أن رلكه لم يترك لنا وصفاً للآثر الذى تركه هذا المعبد في نفسه .

وذهب أيضاً إلى أبيدوس لزيارة معبد سیتی الأول ، الذى أمر ببنائه نذراً لذكرى حجه إلى قبر أوزيريس . كما شاهد أيضاً معبد رمسيس الثانى الذى احتفظ لنا جداره الخارجى بنسخة من قصيدة للشاعر بنتاؤر ، الشاعر المصرى القديم العظيم .

وأوغل جنوباً حتى بلغ أسوان فزار مقابرها وجزيرة قَيْلَة وما فيها من معابد إيزيس وللاميمى وجناح نختنيف .

لكنه لم يترك لنا أثراً عن هذا الجزء من رحلته : سواء في قصائده
وفي رسائله .

* * *

وعاد إلى القاهرة في أوائل فبراير سنة ١٩١١ حيث نزل مرة أخرى في
فندق شبرد الطيب الذكر . وفي هذه المرة زار القاهرة زيارة دقيقة وصفها
في رسائله فقال : إن القاهرة توحى إليه بفكرة ثلاثة عوالم في واحد :
« إنها مدينة كبيرة واسعة لاتعبأ بشيء ، هناك الحياة العربية الكثيفة
المعتمدة ، وهناك بعيداً تقوم - محذرة منذرة كالضمير - تلك الأشياء العظمى
التي لا ترحم ، والتي يجب على المرء ألا يتصل بها أبداً ، وحتى من اكتملت
كل القوى فيه . فهذا أمر بالغ مفرط ، وعلى كل حال فأنا غير قادر الآن
على شيء . وإن كنت أظن أن نوعاً من الترويح والتجديد قد استقر في نفسي
ولقد رافقت رحلتي حتى الآن أنواع كثيرة من المتاعب ، لكنني لحسن
الحظ كنت قد توقعت معظمها مقدماً ووطنت نفسي على قبولها بهدوء .
والآن أعتنى أن أخرج منها خروجا هادئا ، حتى تصل التجربة المشتتة التي لدى
منها - إلى نوع من المجموعات الكوكبية الباطنة (« رسائل ») إلى ناشره
سنة ١٩٠٦ - سنة ١٩٢٦ ج ١ . فيزبادن سنة ١٩٤٩ . »

تبعت القاهرة إذن أمام رلكه ثلاثة عوالم في عالم واحد : العالم الفرعوني
، والعالم الإسلامي ، والعالم الحديث . والحياة العربية فيها كثيفة مكتظة لكثرة
السكان وتنوعهم في الأحياء الإسلامية ، أعنى في القاهرة المعززة ، والجماهير الهائلة
التي تذرع طرقها الزفة ليلا ونهاراً ، وتكدس الآثار والخرائب ، وشدة
سياق الحياة اليومية في أحيائها الوطنية . لهذا صعب عليه أن يحيط بهذا العالم
الذي يغلب بالحياة والحركة .

والحق أن ملاحظة ذلك هنا دقيقة : فمن الصعب جداً على الإنسان أن يحيط بحياة القاهرة المعزية لأنها تتجاوز كل صورة عقلية . إنها حياة عارمة مضطربة لا تقبل أى تحديد ، ليس فيها نظام ولا منطق ، ولا نسب ، سواء من الناحية المعمارية ، ومن الناحية العمرانية .

لكن بعيداً خلف هذا كله توجد « أشياء مصر العظمى » ، يعنى الأهرام وأبا الهول فيما نعتقد . إنها قاعة شامخة هناك كأنها ضمير ينبو ويردع أى يردع المرء من أن يعتقد أن القاهرة المعزية هى المكان الحقيقى الذى تجسدت فيه الروح المصرية ؛ لا ، بل الروح المصرية تقوم هناك على الشاطئ الآخر من النيل حيث تقوم الأهرام وأبو الهول . ذلك أن مصر الإسلامية قد أغلقت دون إدراك ذلك .

ولانعلم بالدقة تاريخ زيارته الأولى للأهرام وأبي الهول . لكننا نعتقد أن ذلك تم بعد رحلته إلى الصعيد ، أى فى الأسبوع الأول من فبراير سنة ١٩١١ . وعلى كل حال فقد كان لهذه الزيارة أعمق الأثر فى نفسه ، أثر عبر عنه فى رسالة إلى صديقه بنفنوتا Benvenuta بعد ذلك بثلاثة أعوام ، أى سنة ١٩١٤ ، ثم عبر عنه شعراً فى قسم من الإيلجيا العاشرة . الدوينيزية ، والأبيات الأولى منها (من ١ إلى ١٥) قد كتبت فى دوينو (على شاطئ الإدرياتي قرب تريسته) فى مستهل سنة ١٩١٢ . ونظم التحرير الأول لها كلها بطريقة متقطعة فى باريس فى نهاية سنة ١٩١٣ ، ثم ألغى هذا التحرير الأول فى فبراير سنة ١٩٢٢ ، وفى ١١ من فبراير سنة ١٩٢٢ استبدل به تحريراً نهائياً فيه الأبيات من ١٦ إلى نهاية الإيلجيا الجديدة . وتم ذلك فى قصر ميزو Muzot بأقليم الفاليس فى سويسرة .

وهذه الإيلجيا العاشرة زبدة التسع السابقة ، إنها تقتاد الإنسان الذى مجدته

الثامنة والتاسعة ، إلى ملكوت الآنين ، من خلال الموت . فهى إذن إيلجيا الموت والآنين . وكأن رلكه إنما راعه فى مصر بخاصة عبادة الموتى ومناظر القبور والجنائز لأنها تستعيد من مصر صوراً عميقة ، كما اعترف هو نفسه بذلك فى رسالة إلى فيتولد فون هولفتش Witold von Hulewicz بتاريخ ١٣/١١/١٩٢٥ — فقال : « إن الإيلجيات تضع معيار الوجود ، وتؤكد بل وتمجد الضمير الإنسانى ، فتدبجه فى تقاليد مستندة فى ذلك إلى الروايات القديمة وذكراياتها ، وترى فى عبادة المصريين للموتى شعوراً سابقاً بهذه الروابط (وإن كان « بلد الآنين » الذى يقتاد « الآنين » العتيق الميت الشاب من خلاله لا يعد — هو بالدقة — مصر ، لكنه انعكاس لبلاد النيل فى الوضوح الصحراوى الضمير الميت) » .

وهكذا يحدد رلكه بدقة أن بلد الآنين ليس بالدقة مصر ، وإنما هو انعكاس لها . أعنى أن مصر هى التى أوحى إليه بفكرة ملكوت الآنين التى إليها يقتاد « الآنين » الميت الشاب .

ونقطة أخرى يحددها رلكه فى الرسالة نفسها : « إذا أخطأ المرء فقارن بين « الإيلجيات » وبين النظريات الكاثوليكية فى الموت والعالم الآخر والخلود ، ابتعد ابتعاداً تاماً عن النتيجة التى تقضى إليها وساء فهمه لها . ف « الملك » فى « الإيلجيات » ليس بينه وبين « الملائكة » فى المسيحية أدنى صلة أو شبه ، وإنما هو بالأحرى أقرب إلى الملائكة فى الإسلام . . . إن « الملك » فى « الإيلجيات » هو هذا المخلوق الذى يبدو فيه تحول المرئى إلى مستور أمراً متحققاً » .

وإذن فإن مصر بعبادة الموتى ، والإسلام بتصويره للملائكة والآخرة كانا مصدر الوحي الأول « لإيلجيات دوينو » لرلكه .

ولكى تم الاعداد لفهم ما سينشده رلكه فى الايلجيا العاشرة، نقتبس
بضع عبارات من رسالة بعث بها رلكه إلى بنغنوتا وفيها وصف رحلته
إلى مصر :

د .. إذا رأيت فى متحف برلين رأس أمينوفيس الرابع فى القاعة
الوسطى من القسم المصرى (وعندى الكثير لأرويه عن هذا الملك المصرى)
أحسست على هذا الوجه معنى الوجود فى حضرة العالم اللامتناهى وكيف
يتوازن على سطح محدود عالم بأسره من الظواهر ، وذلك بترتيب بعض
القسمات ، أفلا يمكن الانصراف عن ليلة مرصعة بالنجوم ، كما يجد الانسان
فى هذا الوجه ازدهار نفس القانون ونفس العظمة ونفس العمل — القانون
والعظمة والعمق اللوآتى لا يمكن تخيلها ؟ إننى تعلمت كيف أشاهد عن
طريق أمثال هذه الأمور ، وحينما شاهدتها بعد ذلك فى مصر بمقادير هائلة ،
وكماهى فى طبيعتها الحقيقية ، نفذت فى أعماقها بقوة حتى كنت على وشك
أن أقضى الليل كله راقداً عند أقدام أبى الهول ، وأنا أشعر أنى منى عن
نفسى وحيأتى .»

«تركت ساعة العشاء تمر ، وكان الأعراب يُقنعون هناك بالقرب من نارهم
والظلمة تحول بينهم وبين رؤيتى . لقد انتظرت حتى أسدل الليل ستائره ،
بعيداً فى الصحراء ، ثم مشيت من خلف أبى الهول ، وقدرت أن القمر لا بد
أن يكون على وشك الطلوع خلف الهرم القريب الذى أحرقتة شمس المغيب ،
ذلك أن الليلة كانت ليلة بدر . وفى الواقع لم أكّد أستدير حول أبى الهول
حتى كان القمر قد اصاعد طالياً فى السماء وانتشر منه فيض من النور على هذا
الأفق اللامتناهى ، حتى اضطرت إلى حجب ضوءه الساطع عنى بكفى لأجد
طريقى بين خنادق الحفائر وأحجارها . وفى مقابلة وجهه الضخم تفقدت مكاناً

ورقدت ملفوفاً في معطفي ، ونفسي مرتاعة متأثرة على نحو لا يبلغه الوصف .
ولست أدري هل شعرت بوجودي تماماً كما شعرت به في هذه الساعات الليلية
التي سلب فيها كل قيمة . فاذا كان وجودي لو قورن بهذا كله ؟ فالمستوى
الذي كان يجري فيه قد انزوى في الظلام ، وكل ما كان عالماً ووجوداً كان
يجري في مسرح أعلى ، يتلاقى فيه كوكب وإله في صمت ... هنا ارتفع شكل
(أبوالهول) تلام مع السماء لم تستطع آلاف السنين أن تحدث فيه أثراً غير
هشيش ضئيل ، وأعجب ما في الأمر أن هذا الشيء (أبا الهول) كانت له
قسمات إنسانية تكافاً مع مركزه السامي . ولقد اتخذ هذا الوجه عادات
الفضاء الكوكبي ؛ لقد تحطمت بعض مظاهر ابتسامته ، لكن الشفاه
ومغارب السموات ألقت عليه انعكاسات عواطف تفوقه . وكان لا بد من
مرور فترة طويلة قبل أن تتعود عيني هذا الوجود وتدركه ، وتحقق هذا الثغر
وهذا الصدغ وهذه الجبهة التي كان ضوء القمر وظل القمر عليها يتغير التعبير
باستمرار . . وبينما أنا أتأمل مرة أخرى شعرت فجأة وبطريقة لا أفهمها أنني
قد نفذت إلى سره . لقد أصبحت هذا الصدغ وتلقيت من أنحائه أكل
إدراك . . تأمل : وراء بروز الخوذة على رأس أبي الهول ، طارت بومة
مست الوجه ببطء ورفق مسيساً يمكن إدراكه في أعمال الليل ؛ وكأن هذا
الصدغ قد رسمته معجزة في سمعي الذي أرهقه سكون الليل .

ولا يمكن وصف تأثير أبي الهول في ليلة قراء ساجية بهذا الوصف الدقيق
الذي أبدعته حساسية راسكة الشاعرة المرهقة . ولم أقرأ في حياتي وصفاً لزيارة لأبي
الهول يمثل هذا الجمال والعمق والتأثير . لقد أصبح فيه أبو الهول حياً ،
إنسانياً ، في داخل إطار ساحر ليلية قراء في مصر .

أما في الإيلجيا العاشرة ، فإن راسكة يقدم لنا وجهاً آخر لأبي الهول :

فهو هنا حزين أسيان ، ميتا فيزيقي . وهنا يخلط بين ذكريات الأقصر
والكرنك وطيبة ، وبين ذكريات أبي الهول والأهرام . ودليل الميت الشاب
هنا في ملكوت الآنين أنين مُسِنَّ .

» .. إنه يقوده بخفة خلال مناظر الآنين
ويدله على أعمدة المعابد أو أطلال
القصور المحصنة ، التي كان منها أمراء
الآنين يحكمون البلاد بحكمة . ويدله
على أشجار الدموع وحقول الأحزان الزاهرة
(ولا يعرف الأحياء عنها إلا الأوراق الرقيقة) ؛
ويدله على حيوان الحداد وهي ترعى ، - وأحيانا
طائر مروع يخترق أفقياً مجال النظر راسماً
في الفضاء صورة مكبوتة بصرخته المتوحدة .
وفي المساء تقوده إلى قبور انقدماء
الذين من جنس الآنين ، إلى السيبلات والأنبياء .
وإذا أقبل الليل سارا بهدوء أكثر وعماء قليل
يرتفع التمثال الجنائزي
الساهر على كل شيء ، أخو ذلك القائم في وادي النيل :
أبي الهول العظيم - :

وجهه

الغرفة السرية .

ويتأملان ، مدهوشين ، الرأس الملكي .

— ٢٥ —

الذى وضع إلى الأبد وفي صمت — وجه البشر .
في ميزان النجوم .

لكنه لا يقوى على إدراكه ، لأن الموت
— وقد بلغه حديثاً — يملأ عيونه بالدوار .
لكن الآنين ، متأملاً وراء حافة البشنت ، يفزع البومة ،
البومة التي مرقت فست الصدغ بطوله .

عند المنحنى الأنضج
فرسخت بهدوء في سمع
الميت الجديد — على ورقة مزدوجة
مفتوحة — رسمت المخطط القائق للوصف .

وهذه القصيدة في حاجة إلى تفسير مسهب : فـ « الغرفة السرية » هي
« الهرم » ، و « حيوان الحِداد » هو الماعز أو الثيران ؛ و « الطير المروّع
الذى يخرق أفقياً مجال النظر » يمكن أن يكون الحجل أو التدرج ؛
و « القدماء الذين من جنس الآنين » هم الأجداد في العصور الأولى ؛
و « السبيلات » هي العرافات المنبئة عن المصير ؛ و « الأنبياء » لعله يقصد بهم أنبياء
« العهد القديم » في الكتاب المقدس .

و « الآنين » يقتاد الميت الفتى في ملكوت الآنين . وكلاهما يتجول فيه
بغير عائق . إنه يدلّه على أعمدة المعابد . ولكنه يفكر هنا خصوصاً في
معابد الكرنك وطيبة وسائر المعابد المصرية التي زارها في الصعيد . لأن
ملكوت الآنين له صورته على الأرض ، ومصر هي التي تقدم أدق صورة

عنها . ذلك أن ملكوت الموتى يولد من ملكوت الأحياء ؛ وملكه يؤكد دائماً هذا النفوذ المتبادل بين الموت والحياة . فكل ما يوجد فى الواحد يوجد فى الآخر ، لكن على نحو مخالف .

وأى الليل ، وهنا يصف رلكه ما شاهده تماماً فى زيارته الليلية لأبى الهول ، ولهذا يتذكر على الفور هذه الزيارة ، ويجد فى ملكوت الأئين نفس المناظر التى رآها من قبل فى مصر لدى زيارته لأبى الهول والأهرام ، القمر بدر . وها هو ذا التمثال الجنائزى الذى يسهر على كل شىء ، أخو أبى الهول العظيم القائم فى وادى النيل ، « إن أبأ الهول المصرى هو التمثال القائم هناك موضوعياً ؛ أما فى ملكوت الأئين فيعنى مضمون شعور الميت وضميره » .

(راجع Romano Guardini Rainer Maria Riekes Deutung des Daseins, s. 400)

وأبو الهول المصرى هو الوجه الذى تنظر به إلينا الغرفة السرية ، أعنى الهرم . وهذا تشبيه رائع جداً : إن أبأ الهول هو وجه الهرم ، وأبو الهول توج رأسه بالتاج المصرى المزدوج : تاج مصر العليا ومصر السفلى : وهو البشنت .

والأئين ورفيقه ينظران هذا الرأس للتوج الذى وضع بجلاله وجه البشر على ميزان النجوم ، وضعه إلى الأبد ، أعنى أن الإنسان قد أصبح إلى الأبد كفاء لسكان السموات ، بيد أن الميت القى — وعبء الموت لا يزال يهبط كاهله — يشعر بالدوار أمام أبى الهول فى ملكوت الأئين ، بينما الأئين يقدر على النظر وعلى الفهم ، ولما ينظر خلف حافه البشنت ، يثير القزع فى البومة . وهذه البومة هى بعينها التى رآها رلكه تطير خلف بروز الخوذة التى على رأس أبى الهول وتمس مساً رفيقاً وجه أبى الهول ، رفيقاً ولكن

مسموع في هدوء الليل ، لكن بومة العالم الآخر ترسم المخطط الفائق.
الوصف بطيرانها .

وهكذا نرى الشاعر قد نقل إلى العالم الآخر نفس الصور ونفس التجارب.
التي شاهدها في رحلته إلى مصر .

٦

لكن الشاعر بدأ يشعر بالحنين إلى أوروبا ، لأنه أحس للبل من زيارة.
مصر ، بل لأنه يود أن يعود إلى الحياة المتوحدة في باريس ، لأن زيارته
لمصر ، كما صرح بذلك في رسالته إلى ناشره بتاريخ فبراير سنة ١٩١١ ،
كانت مصدر إثراء روحي له لا يستطيع وصفه ، وقد خلقت له واجبات
جديدة . بيد أنه يتحدث في الرسالة نفسها وفي غيرها (رسالته إلى لوسالوميه
Lou Salome من رسائله إليها ، ص ٢٥٠ ؛ زيورخ سنة ١٩٥٢) عن
« المتاعب والمضايقات » و « الظروف غير المواتية » التي مرّ بها في مصر —
دون أن يحدد لنا ماهيتها .

وكل ما نعرفه عنها هو أنه مرض في القاهرة ثلاثة أسابيع في فبراير
سنة ١٩١١ ، مما اضطره إلى الانفصال عن رفيقائه في الرحلة . وفي ٢٤/٢ ذهب
إلى حلوان ونزل في فندق « الحياة » (الذي تحول بعد ذلك إلى مصحة .
للأمراض الصدرية) وكان يديره كنوبس Knoops وزوجته وهما أصدقاء .
زوجة رلكه ؛ فوجدا ليهما ترحيباً بالغاً .

بأي مرض أصيب في القاهرة ؟ إنه لم يحدد شيئاً . أعلله مرض عاطفي ،
أعنى حنيناً روحياً عظيماً مصحوباً بهبوط جسدي ؟ ربما ، إذ يحنل إلينا أن

— ٢٨ —

هذا العالم الجديد الذى اكتشفه لكه فى مصر قد أبهظ روحه ، حتى لم يعد فى استطاعته بعد أن يتحمل كل هذه الأمور الجديدة . وإنه لكثير جداً أن تستطيع النفس تمثل عالم جديد غنى مثل هذا فى أيام قلائل . من هذا مرض لكه . جسمياً وروحياً .

وفى الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٩١١ ترك القاهرة متجهاً إلى الإسكندرية حيث أبحر منها على إحدى بواخر اللويد التوسوى ميمماً شطر فينيسيا ، فبلغها فى ٢٩ مارس سنة ١٩١١ ومنها سافر إلى قصر دوينو ليجد صديقه الأميرة مارى فون تورن وتاكسيس Marie von Thurn Und Taxis . ودامت الرحلة فى البحر أربعة أيام ، استطاع خلالها أن يلتقى من بعيد نظرة إلى البلوينيز والجزر اليونانية الجميلة .

— ٧ —

وهكذا انتهت رحلة شاعرنا فى مصر ، لكن لم ينته بانتهاء اهتمامه بمصر . بل على العكس تماماً ، لقد بدأت الرحلة تفعل أفاعيلها ببطء وقوة وعمق فى روحه ، وأثمرت ثماراً شاهدنا من قبل أمثلة عليها .

وهناك صورة أخرى رائعة التقطها لكه أثناء رحلته على النيل عند الكرنك والأقصر لما أن عبر النيل على مركب شراعى ، وهى صورة مثل بها حال الشاعر فى هذا العالم . فى الصفحات التى خصصها عن الشاعر بعنوان « عن الشاعر » ، وكتبها سنة ١٩١٢ ، أى بعد سنة من رحلته إلى مصر ، يصف لنا رحلته على النيل فى مركب يجدف فيه ستة عشر شاباً صعيدياً ، انتظموا على أربعة مقاعد ، وبذلوا كل جهدهم فى تحريك المجاديف . وعلى ظهر الباخرة عند الرأس وقف رجل فى عكس اتجاه المركب وأنشأ يغنى :

« وكان يغنى فجأة وفي فترات غير منتظمة ، لا عندما كان يغلبهم الجهد ، بل بالعكس كثيراً ما كان يغنى وهم في أحسن حال ، لكن الأمر جرى على وفاق ولست أدري إلى أى مدى تأثر بالموجودين في المركب ، لقد كان كل شيء وراءه ، ولم ينظر خلفه إلا نادراً ولغير غرض . . إن انطلاقة مركبنا ، وشدة ما كان يقاومها قد توازنتا في نفسه ، لكن بين الحين والحين احتشد فيض منها فانطلق يغنى . . وبينما كان الذين معه يتوقون إلى أقرب شيء ويمسكون به ، كان صوته على اتصال بما هو بعيد جداً فجذبنا إلى هناك . » وختم رلكه وصفه قائلاً : « ليت شعري ماذا جرى لكنني رأيت فجأة في هذه الظاهرة موقف الشاعر ، ومكانته ، وتأثيره داخل العصر ، إن من الممكن أن تنازعه كل مكانة ، إلا تلك ، فهناك يجب التسليم بها له . »

فرلكه إذن يشبه موقف الشاعر في العالم بموقف ذلك المغنى المصرى على المركب الذى يسير فى النيل : إنه يغنى ضد تيار العالم ، يغنى وحده ، على فترات غير منتظمة ، دون أن يحفل بحجم الناس الذين قد يصغون إليه أحياناً والذين يوجههم إلى شيء بعيد لا يحفل به الجمهور حتى يجذبه الشاعر إلى هذا الشيء البعيد . ويمكن أن تنازع الشاعر فى كل مكانة ، إلا هذه ، فلندعها له .

ويفكر رلكه فى العودة لزيارة مصر . فقد اقترحت عليه أميرة تورن وتاكيس أن يقضيا شتاء سنة ١٩١٣ - سنة ١٩١٤ فى مصر فى ذهبية على النيل وسألته رأيه . لكن رلكه لم يجرؤ على اتخاذ قرار ، قائلاً للأميرة : « لقد نصبت قواى كلها ، ولا أشعر بالقدرة على القيام بمغامرة كبيرة - لقد قت بالكثير من المغامرات ، لكننى لم أستفد منها غير القليل ، ولم تترك كل

منها غير مرارة الشعور بأنى فقدت مزايا كثيرة . (الأميرة ماري فون تورن وتا كيس : ذكريات عن رلكه ، ص ٧٣ . منش - برلين سنة ١٩٣٣) .

لكن الأميرة نفسها لم تحقق مشروعها هذا ، ولم تر الشاعر في خلال ذلك الشتاء .

بيد أن رلكه ظل مسحوراً بجمال الآثار المصرية وجلالها . وها هو ذا يتحدث إلى الأميرة عن عزمه على دراسة الآثار المصرية واللغات الشرقية في السوربون بباريس ، لكن يلوح أيضاً أنه تخلى عن هذا المشروع . إنه قبل رحلته إلى تونس قد بدأ يلم بقليل من اللغة العربية . أما اهتمامه بالآثار المصرية فبرز بخاصة أثناء مقامه في برلين ، إذ نظم في صيف أو خريف سنة ١٩١٣ قصيدة عن رأس أمينوفيس الرابع (أخناتون) الموجودة في متحف برلين (في قصائد ١٩٠٦ - ١٩٢٦ ، ص ٥٣٩) ، كما ذكر هو ذلك في رسالة إلى لوسالوميه بتاريخ أول أغسطس سنة ١٩١٣ ، وكان الرأس قد اكتشفته حديثاً بعثة الآثار الألمانية في مصر . وفي الرسالة نفسها يذكر أنه تحدث طويلاً مع الأستاذ اشتيندورف Steindorf عالم الآثار المصرية الألماني في ليبسج ، وعن إمكان مصاحبته في حملة تنقيب عن الآثار في النوبة . بيد أن رلكه لم يحقق أبداً هذا الحلم : حلم الاشتراك في حملة تنقيب عن الآثار المصرية . كذلك نجد في بعض القصائد الصغيرة تأثرات بمصر خصوصاً في قصيدة بعنوان « لا بد من الموت لأننا نعرفه » تبعاً لمثل قاله بتاح حوتب (قصائد ١٩٠٦ - ١٩٢٦ ، ص ٤٩)

وإذن فرلكه ظل يهتم بمصر . ويتأثر بروائعها وحكماتها ، مصر المهدي الفرعوني .

وكانت آخر علاقة ذكرته بمصر صلاته بسيدة مصرية رائعة الجمال، هي السيدة نعمت علوى بك ، ولها معه قصة بديعة رواها ادمون جالو Ea. Jaloux فى كتابه الذى خصصه لها ، ولا محل لإطالة الكلام هنا بشأنها . وكانت هذه آخر صلة نسائية لـلكه . ويؤكد بعضهم أن المرض الذى مات به لـلكه فى مستشفى فال مون Val - Mont بسويسرا فى ٢٩ من ديسمبر سنة ١٩٢٦ برجع إلى وخزة شوكة وردة اقتطفها لـلكه من حديقة قصر «ميزو» وهو يودعها لما أن زارته هناك .

إنها إذن وردة . اقتطف من أجل وردة ، وردة مصرية حية ، هى التى حملته إلى حيث يرقد الآن ، فى رارون تحت رمز الوردة :

«أيتها الوردة ، أيها التناقض الخالص ، لذلك
ألا تكونى رقاداً لأحد
تحت هذه الجفون الكثيرة!»

الخبز والخمر

هيلدرلن

هيلدرلن Hölderlin ، الشاعر الرومانتيكي المتوفى سنة ١٨٤٣ ، هو اليوم ، أوفر الشعراء الألمان حظاً من العناية به والاحتفال لقصائده ، خصوصاً بعد أن اكتشف فيه هيدجر Heidegger كبير الفلاسفة الوجوديين ، معاني عميقة وأسراراً فنية ممتازة جعلته ينظر إليه على أنه « جوهر الشعر » .

وأروع قصائد هيلدرن قصيدة طويلة له بعنوان « الخبز والخمر » .
Brot und Wein ، أنشأها سنة ١٨٠١ في فترة عاصفة غنية بالقصائد الغنائية ، وأهداها إلى أستاذه فلهم هينزه Wilhelm Heinse الذي كان شديد الإعجاب برجل عصر النهضة والمثل الإنساني اليوناني ، أعنى أنه كان يعبد الجمال والحياة ويقدّس المثل اليونانية .

والقصيدة مؤلفة من تسع مقطّعات Strophen ، وكل مقطّعة تتألف من ثمانية عشر بيتاً . ومن الذين عنوا بشرحها إميل بتسولد Emile petzold فقسمها إلى ثلاثة أقسام ، أطلق عليها العنوانات التالية :
الحماسة ، الحياة اليونانية ، حياتنا .

والقصيدة تبدأ باستلهاام الليل ، والليل عند الرومانيك رمز حافل بالمعاني ، ولهذا طالما مجّده ، وبخاصة نوفالس في قصائده المشهورة : « الليالي » (راجع ترجمتنا لها في « الموت والعبقريّة ») ثم هيلدرلن . فالليل رمز الموت : موت الجسد وموت الروح .

إن ضجيج النهار في سبيله إلى الزوال ، ومعه تزاحم الحياة ، وبدأت أحاسيس الليل تدب في الحياة : من حنين بين العشاق وشوق عارم إلى الأصدقاء الغائبين ، وذكرى الصبا ببراءته الناعمة القصية . وصلصت نواقيس المساء ، وهلاصوت حارس الليل ، وكل حارس الليل من أسرار ، لا يزال القوم يعرفونها اليوم في أسبانيا ، أسبانيا الحاملة الرومانتيكية المليئة بالانفعالات الحية أبداً ، والينابيع الثرة تغنى على عطور الأزهار . وها هو ذا القمر قد أقبل على استحياء ، والليل ملأ السماء غير حافل بالاجوم ولا بالهموم ، وعلى الأجدال حزن وبهاء .

وفي المقطعة الثانية يكشف هيلدرلن عن المعنى العميق لليل في حياة الروح . ما أروع تأثير الليل فينا ! لكنه مغلف بالأسرار ، فلا يستطيع الكشف عنها أحد ، لهذا يميل الناس إلى تفضيل النهار ذى الأنوار . أما النظرة النافذة فتهدى الظلام والظلال . ثم الليل ، أليس هو وقت النعاس ؟ ومن منا لا يهدى النعاس ! بوركت أيها الليل بما تمنح من نعم : فأنت واهب النوم والنسيان والشكر المقدس !

وها هو المثل الإنساني الأعلى يبدو في المقطعة الثالثة . هنا تلتئم الروح والحساسة ، وهنا ترتفع الصرخة إلى اكتشاف الدنيا لنجد فيها خيرائنا ، أيما مكان بعد المكان . وسواء دقت الساعة منتصف النهار أو منتصف الليل ، فإن نداء المصير يدعونا أن نلج داعي المثل الأعلى في الحياة ، المصير المفرد الذي يحققه كل منا وحده بمأذنه من قوى ، وحسبه أن يفرغ فيه كل وسعه . ياله من سرور عارم إذن ، سرور من يلج نداء الحياة الفريدة التي قدرها له المصير !

لكن إلى أين يقودنا نداء هيلدرلن ؟

(م ٣ — الأدب الأوروبي)

— ٣٤ —

إلى أرض هلاس الخالدة ، إلى جبل البرناس مهبط وحى الشعراء ، إلى
دلف التى تجللت جبالها بالثلوج ، إلى الأولمب موطن الآلهة جميعاً ، إلى حيث
يصعد قرع الأمواج تحت الصنوبر وبين داليات الكروم .

إلى هنا يدعونا إله المستقبل .

* * *

ومن هنا ، أى من المقطعة الرابعة ، يقودنا الشاعر إلى كعبة أحلامه
الشعرية ، إلى بلاد اليونان ، للوطن المختار لكل الآلهة . لكن أين العروش
والمعابد ، وأين كؤوس التسنيم (النكتار) والأناشيد التى سكرت منها
الآلهة ! وأين الوحي الصادق والتنزيل الرهيب !

واحسرتاه ! لقد نامت دلف ، دلف ذات الوحي والنبوءات ، وخرس
صوتها الهادر .

ثم أين البرق ، وأين العواصف التى تنقض من السماء لتملأ البشر بالهناء
والسعادة ؟

إيه أيها الأثير ! إن صدى الزمان يردد من بعيد صوتك الحى القوى
الذى كان يزلزل الأرضين !

* * *

ولكن عالم الألوهية قد تطور إلى ثلاث شعب . وهذا ماترويه المقطعة
الخامسة .

فى الأولى تسود النظرة الحسية التصويرية مقرونة برهبة : فالإنسان

خائف ، ونصف الإله هو أيضاً بغير أسماء يطلقها على الدين يعبدونه .

ثم : تتلوها نظرة حافلة بأساطير الآلهة ، فيها تؤثر نظرات الشعب في دنيا الوجدان الدينى . ويشعر الإنسان بنزوع حار إلى الأفعال البطولية ، دون أن يحتفل أحد بالتمييز بين ماهو مقدس وما هو مدنس .

وأخيراً يتم الشعور للملئ بالآلهة فيأتون إلينا بأنفسهم . ويزول شيئاً فشيئاً التصور الحسى ، ويحل محله تصور عقلى ويتعود الناس على رؤية الآلهة ، فتتكشف لهم الآلهة ويبحث المفكرون فيهم فلسفياً .

وعجباً للإنسان ! إنه عاجز عن إدراك الخير طالما كان الإله يسهر عليه ويمده بنعمه . حتى إذا ماتألم ، أدرك الخير وابتثقت منه الكلمات كالآزهار .

* * *

وها هو ذا يسبح بحمد الآلهة ، ويفعل كل ما يرضيهم ، فيقيم المعابد لعبادتهم والمدن لتمجيدهم . فترتفع الأبنية ، وتنبدى القوى والجمال .

لكن أين طيبة وأين أكثينا ؟ إن ساحات أولمبيا مهجورة ، لا سباق فيها ولا مصارعة . وأين الأكاليل تزين سفن كورنث ؟ وما بال الصمت خيم على المسارح المقدسة ، ومضى سرور الرقصات الشعائرية ؟ وأين علامة الألوهية في جباه الناس ؟ أما من إله يضرب جباه المختارين ؟

نعم قد جاء في صورة الناسوت ليضع حداً للعيد الإلهى !

* * *

لكن ما أشقانا نحن في هذا العصر ! لقد جئنا متأخرين ، متأخرين جداً أما الآلهة فيحيون هناك ، بعيداً جداً عنا في الأعلى ، في عالم آخر . هم

يؤثرون فينا ، لكن يبدو أنهم لا يهتمون كثيراً بشؤوننا . هل عاد الإنسان
يحتمل إلهام الإله ؟ لحظة سريعة ثم يمضى حالماً يفكر في الآلهة .

والليل والأحزان تأتي له بالقوة التي بها تنشأ الأبطال . لكن هل
تمة جدوى ؟

الأفضل عندي أن ينقضى العمر في النعاس ، بدلاً من هذا الانتظار الممل .
الطويل دون صاحب ولا رفيق .

وفي هذا الزمان التمس ، ما الفائدة في وجود الشعراء !
لكن الشعراء برغم ذلك هم بمثابة كهنة باخوس ، حجاج في الليل
المقدس يتنقلون من ديار إلى ديار .

ذلك أن عهد اليونان ومثلها قد ولى : لقد كان عهداً ممتازاً باتحاد
الطبيعة والألوهية وحلول الواقع في المثال ؛ والحياة المثلى كانت مزيجاً من
الألوهية والطبيعة ، والواقع والمثال .

* * *

لكن لما غادرتنا الآلهة حاملة معها السعادة ، وأشاح الإله الأب بوجهه .
عن البشر فامتلات الأرض بالحداد ، تبدى ملك طيب ليعلم نهاية النهار .
ثم ترك لنا بعض النعم علامة على مروره ورجاء في عودته ، النعم التي نستطيع
الاستمتاع بها استمتاعاً إنسانياً ، لأن الاستمتاع الإلهي كان فوق طاقتنا :
وهذه النعم اثنتان : الخبز الذي يخرج من الأرض المجللة بالنور الخصب ،
والخمر الذي ولد من إله الرعد . والخبز والخمر كلاهما تذكير بالخالدين الذين
كانوا هنا ، وسيعودون . وهام الشعراء أولاء يتغنون بإله الخمر القديم ،
ويرفعون إليه الأناشيد .

* * *

— ٣٧ —

نعم إن إله الحجر يذكرنا بماضيينا العريق حينما كنا ، نحن أبناء الأرض ،
ننعم بصحبة الآلهة . إنه يأتينا ، في لحظات السرور والآمال والانفعالات
العالية ببصيص وقبس من نور الآلهة ، مما يولد فينا الشعور بأننا من نسل
الآله ، وقليلًا قليلًا تتحقق هذه المعجزة في الإنسان .

وهكذا فإن الخبز والحجر نعمتان من السماء ، ورمزان للشكر والرجاء .
وها نحن أولاء نقدم ترجمة لهذه القصيدة ، ترجمة بالشعر الحر .

الخبز والحجر

— ١ —

حَوَّلِي الهدوء على المدينة
والدرب وضاء السكون
وضجيج عَرَبات تجلّله المشاعل
والناس أرضاها النهار فيممت صوب المنازل
تستريح

والرأس يحسب باتزان ما أصاب من المكاسب والخسائر
والسوق فارقه النشاط وكل زهر أو ثمر
ومن الحدايق رنت الأوتار بالنغم البعيد

يأليت شعري من يكون ؟
أهو الحبيب ؟ أم الغريب
يتذكر للماضي وأحباب الشباب

وهناك تنبثق العيون
وفُراتُها عذب يطن على وسائد مزهرات
دقت نواقيس الغروب

— ٣٨ —

والحارس الليلي يحسب ماتدق ، شبيه ذاكرة الزمان
قد كهب نسيم هز هامات الشجر
والبدن ، ظل الأرض ، أقبل في هدوء
والليل أشرف هادياً ومرصعاً بالأنجم
بهمومنا لا يعبا

الليل ساحر
الليل بين الناس كافر
يعلو وينشر في الجبال
حزناً يمازجه البهاء .

— ٢ —

ما أروع الليل ، ما أخفى مواهبه !
لا يعلم الناس ما يعطى وما يدع
عليه تعتمد الدنيا وما أملت — نفس !
يند عن كل عقل ما يدبره ،
إرادة الله ، لا يدري بها أحد ؛
وأنت من أجل هذا ترتجى النورا !
قد تعشق العين ظل الشيء والوسنا
من دون ما حاجة للنوم والوسن
وللثمن السبر من يستكشف الليلا
ويصطفيه بانشاد وإكليل
فالليل قدس للمجنون والليت
لكنه — رغم هذا — خاله حر .

— ٣٩ —

فليعطنا الليل ذو الألفاظ نسيانا
في ساعة الظلمة الظلماء والجزع
وليعطنا الشكر في فيض من الكلم
كالجلب يسهر ، والكاسات مترعة ،
وعيشة فذة والذكر يقظانا

— ٣ —

فلماذا نغلق الصدر على هذى القلوب ؟
ولماذا نكبح الوثبة ، صبيانا أكنّا أم شيوخ ؟
ومن القادر أن يحرمنا ذلك السرور ؟
إنها نار الإله ، في الليالي والنهار
تدفع

فتعال الآن ، هيا !
نكشف الدنيا لنبحث
عن هدايا ، أين كان ؟
وسواء كان نصف الليل أو نصف النهار
فقياس واحد مشترك
ولكلّ حظه المفرد وحده
نحوه يسمى ويحيى ، كلما استطاع سبيلا
فتعال الآن ، هيا !

ولندع للساخرين
يسخروا من ذا الجنون
الذى يخلب في الليل عقول الشعراء

— ٤٠ —

فتعال الآن ، هيئاً « للخليج » ^(١) .
 حيث صوت البحر يصّاعد حتى
 يبلغ « البرناس » ^(٢)
 والتلوج الغر في « ذلف » ^(٣) تغطي الهضبات
 وهناك
 عالم الأولب أو أعلى كَثِيرُنْ ^(٤)
 حيث تصاعد من تحت الصنوبر
 والدوالى
 ضجة من « اسمنوس » ^(٥) نهر « طيبة »
 أرض « قدّموس » الجليّة
 من هناك
 جاءنا الرب الجديد
 إنه يدعو لنذهب
 هُناكَ .

— ٤ —

إليه يونان ، بلاد الشعراء .

-
- (١) أى خليج كورنثوس .
 (٢) جبل البرناسوس Parnasse وهو جبل مقدس لأبولون ودونيسوس وربات
 الشعر (الموسا) . ويطلق بوجه عام على سلسلة الجبال التي تمر بدوريس وفرقيس وبوجه
 أخص على القمة العليا فيها .
 (٣) دلف Delphes وكان اليونانيون ينظرون إلى هذه المدينة على أنها مركز الأرض
 المعمورة كلها ، وكان فيها معبد عظيم ينزل فيه وحى مشهور .
 كَثِيرُون Kithairon جبال بين يويثيا وأتسكا وميغارا في بلاد اليونان .
 (٤) اسمنوس Ismenos: نهر في يويثيا يمر في طيبة ؛ وطيبة مدينة يونانية قديمة ، يقال
 إن الذي أنشأها هو قدّموس الفينيقي .

— ٤١ —

«وطن الأرباب ، حقٌ ما عرفنا في الشباب ؟
 أنت قصر يا ذخ
 أرضه البحر ، مناضده الجبال
 لم تُقدّس أبداً إلا لهاتيك العبادة .
 لكن ! أين راحت :
 العروش والمعابد والكؤوس
 والأناشيد التي تسكر منها الآلهة ؟
 أين صوت الوحي جباراً ومحكم ؟
 رقدت « دلف » وولى صوتها الفخم الرهيب ،
 أين لمع البرق خطاف البصر ؟
 أين قصف الريح ، والغيث يغشى العين بالنعمة من أعلى السماء ؟
 يا أبانا يا « أثير » !
 ردد الصيحة آلافاً وألفاً
 كلُّ ثغر ولسان .
 ما لفرْد أن يعيش
 وحده هذى الحياة
 هذه القسمة بالنشوة تحفل
 وإلى كل غريب تتسرب .
 ويزيد القول قوة — بعد أن أغفى ونام .
 يا أبانا يا جليل !
 إن صوت الدهر يبعث
 من بعيد .

— ٤٢ —

باسمك الجبار ، موروثة من الآباء ، خلافاً ، إلينا
هكذا تأتي إلينا الآلهة
زائرين

فيهز النور من عمق الظلال
كل العالمين

— ٥ —

بقدمهم لا يشعرون
إلا الطفولة وحدها تجري إليهم واثبة
بيننا يخاف النور أبناء البشر
بل ليس يدرك أسمهم نصف الإله
منهم تفيض شجاعة وسرور
والقلب يملأ بهجة تطفئ عليه
وأكفهم تندى بخلق مستمر
هم يبذلون ويسرفون
حتى المحرم بين أيديهم حلال
والخالدون يتسامحون ، وبعدها
بالحق ، بالوحي للنزل يصدعون
يتعود الإنسان أنوار النعيم
سُبُحات وجه الحق تكشفها البصائر
بعد الحجاب ، وإن تبدت في الخليقة
في قلبهم حُرُّ السرور
هم وحدهم نالوا الأمانى
وكذا ابن آدم : لا يرى
ما الخير ؟

— ٤٣ —

بيننا الإله بنفسه
تجوده ألوان النعم
لا بد يألم أولاً
يدعوه بعد حبيبه
وهناك تنبثق الكلم
مثل الزهور الناضرات

— ٦ —

هذا أوان عبادة الأرباب
ولمدهم يهوى الحقائق كلها :
لا ينبغي أن يبصر الأضواء إلا مَنْ يرغب رضا الإله
والعاجرون محلاً ون عن « الأثير »
وليبلغوا مجداً أمام الرب سارعت الشعوب
وتزاحمت بين الصفوف تريد تشييد للعباد والمدائن
وعلى الشواطئ يرفعون لوا المهابة والجمال
ويحى على هذى المدائن أين غابت؟
« طيبا »^(١) ، « أثينا » صوحت أزهارها الغر المتفان
« أولمبيا »^(٢) أقوت حلائبها المعدة للسباق
وسفائن « الكورنث »^(٣) قد فقدت أكاليل الزهور
ومسارح الأرباب جلس لها السكون
ومضى سرور الرقص في حفل الطقوس

(١) طيبا : مدينة يونانية ، يقال إن الذى أنشأها هو : قدموس الفينيقي

(٢) أولمبيا : حرم لا يسكنه غير السكينة ، وميدان للألعاب .

(٣) كورنثوس : مدينة من أكبر المدن التجارية على مضيق كورنثوس . وكانت السفن المحملة بالبضائع من الشرق تصل إليها مكمللة بأكاليل الأزهار .

— ٤٤ —

لآية تبدو على حر الجبين
والرب لم يبعث بمبعوث أمين
بل جاء يحمل صورة الإنسان
وأتى يعزى
وانقضى عيد الإله

— ٧ —

ويلى علينا يا صديق !
جئنا هنا متأخرين
وهناك فى أعلى تعيش الآلهة
هم يفعلون بلا انقطاع
لا يحفلون بنا ولا يتساءلون
هذا الإله الهش هل يحوى الإله ؟ !
والمرء لا يقوى على جود الإله
إلا قليلاً ثم يمضى العمر فى حلم بجوده
ومن الضلالة والنعاس
يأتى المدد
ومن الشقاوة والظلام
يأتى الأيدى
ومن البطون القاسيات
تأتى البطولة
تأتى كفاء الخالدين وفى الرعود
وأنا أفضل ذا النعاس على انفراد وانتظار

— ٤٥ —

من غير أصحاب ، فلا أدري أقول وأفعل
ماذا يفيد الشعر في الزمن الحقيز ؟
لكأنما الشعراء كهانٌ لباخوس العظيم
يتنقلون من البلاد إلى البلاد خلال ليل أقدس

— ٨ —

صعدوا إلى أعلى السماء .
من منذ عهدٍ قد يلوح لنا بعيداً
حملوا النعيم
وأشاح رب الناس عنهم وجهه
وعلا الحِداد على البسيطة
وبأخرة جاء للواسى للجميع
روح رقيق .
جاء المبشر بانتهاء الكون كالحلم المريع
ومضى وخلف بعده
نعماً لننعم مثلها كنا نعمنا كأنا
أما النعيم الآخر
فلقد تجاوز طاقة الإنسان
من نحن حتى نستطيع بلوغه !
مهما يكن فينا من الأفكار
الخبز من ثمر التراب يجوده النور العظيم
والحجر هياً سره رب العود
وكلاهما ذكرى ورمز الخالدين
الخالدون مضوا وخلصونا هنا ، وغداً إلينا طائدون

— ٤٦ —

وبرب ذا الحجر القديم
يتزعم الشعراء دوماً منشدين .

— ٩ —

صدقوا النشيد ، ففي النبيذ
الليل يُقرن بالنهار ؛
وهو المنظم للسكواكب في المسير
دوماً سعيد ،

مثل الصنوبر في اخضرار ،
أو غصن غار
هو تاجه للألوف في كل احتفال ؛

وهو الذي يبقى ويعطي الناس إشعاع الحقيقة

بيننا تحلى عنهم الأرباب
لكننا في الحق أبناء الإله .

ونبوءة الماضي بنا تتحقق

هذي ثمار « الهسبريدس » (١)

والمعجزات تحققت

فليعتقدها من يشاهد

لا شيء يفعل : كلنا من غير قلب

وكأنا كالظل ، إن لم يأتنا هذا « الأثير »

فنزقر نحن بأنه مثل الأب

(١) الهسبريدس: من أربع بنات لأطلس ، كن يرعين شجرة التفاح العجيبة التي كانت
تعمل نفاحاً ذهبياً . وقد استطاع هرقل البطل أن يظفر منها بثلاث نفاحات .

بيننا وليد الله ، ذا السورى ، إلى الأعماق ينزل
والماقلون يرونه فتضىء بسمه .
تنشق من نفس سجينه
ويعود للعين الكليّة نورها
فى الأرض « طيطان » ^(٢) ينام ويحلم
حتى « كريبير » ^(٣) الحقود
يحسو ويمضى فى النعاس

(٢) الطيطان : من الأساطير اليونانية كانوا انبي عشر ونداً للساء والأرس . وقد لام نزاع بينهم وبين أبناء الزمان (خرونوس) واستطاع هؤلاء أن يحبسوا الطيطان فى أعماق الجحيم (طرطاروس) وأشهر الطيطان : برونشوس .
(٣) كريبير Kerberos : كلب يحرس وميد الجحيم .

مرثية مصارع الثيران ...

لفدريكو غرسيه لوركا

هذه المرثية هي قبة فن فدريكو غرسيه لوركا ، نشرها في سنة ١٩٣٥ ، ورثى بها صديقه مصارع الثيران البارع اغنسيو سانشث مخياس Ignacio Sanchez Mejias الذي سقط في حلبة المصارعة في صيف سنة ١٩٣٤ ، وكان صديقا لأهل الأدب ، وفي الوقت نفسه مشاركا فيه إذ كتب بضع مسرحيات ولهذا رثاه أيضاً صديقه الآخر الشاعر العظيم رفائيل البرقي Rafael Alberti بقصيدة رائعة عنوانها : « أراك أو لا أراك »

وقد سبق لي أن أبديت رأيي في مصارعة الثيران في كتابي « الحور والنور » وقلت إنني لأرى فيها فنا ولا نبالة ولا شجاعة إلى الحد الذي يزعجها أنصارها ، وما أكثرهم في العالم ، وبخاصة في أسبانيا. لكن الأمر الذي لا جدال فيه هو أن مصارعة الثيران وجدان أصيل في الطبع القومي الأسباني وأنها في مغزاها الأعماق تعبير صادق عن المشاعر الدفينة في هذا الشعب : القسوة، النظرة الآسيانية ، عرامة الشهوة والإحساس ، وجدان الدم واللحم. ولهذا أحاطوها بمراسم لا تختلف في دقتها والاحتفال لها عن المراسم الدينية والطقوس المقدسة .

وغرسيه لوركا ، هذا الأسباني الأصيل ، هو الآخر من أشد الأسبان حماسة لهذا اللون من الفروسية أو البطولة ، حتى قال في حديث له ذات مرة : « لعل عيد الثيران أعظم ثروة شعرية وحيوية عند أسبانيا ، ثروة من المؤسف أن الكتاب والفنانين أهملوها إهمالا لا يصدق العقل ، وما ذلك إلا نتيجة تربية زائفة لقناها ، وكان أبناء جيلى من ضحاياها فلم نفد من هذه

الثروة ، بل رفضناها . وإني اعتقد أن مصارعة الثيران هي أشد الأعياد تهديبا في العالم كله اليوم . إنها الدراما الخالصة التي يذرف فيها الأسباني أصدق عبراته وخير أهوائه . و حلبة مصارعة الثيران هي للكان الوحيد الذي يذهب إليه الإنسان وهو واثق من رؤية الموت محاطا بأبهى ألوان الجمال . ولبت شعري ماذا سيؤول إليه أمر الربيع الأسباني والدم الأسباني ولغتنا الأسبانية لو توقفت أبواق مصارعة الثيران الدرامية عن الرنين !؟ »

وفي بحث آخر كتبه بعنوان : « نظرية العفريت » يقول عن مصارعة الثيران إن لها طقوسا ومراسم تجعلها بمثابة دراما كما في مراسم القديس : يعبد الله ويضحى بالاضاحى من أجله : « ففي عيد الثيران يبلغ الجحش أشد نبراته استشارة للوجدان ، لأنه يجب عليه من ناحية أن يصارع الموت ، الذي يمكن أن يقضى عليه ، ومن ناحية أخرى أن يصارع الهندسة والوزن الايقاعي الذي هو دمامة أساسية في هذا العيد . ان للثور فلسكه الذي يدور فيه ، وللمصارع فلسكه ، وبين هذين الفلصكين نقطة الخطر التي فيها تقع قة هذه اللعبة الرهيبة . »

ومهما يكن من إعجاب لوركا بمصارعة الثيران ، فإن الذي يهمننا هو هذه القصيدة التي رثى بها صديقه للمصارع الشهيد .
قسم لوركا المراثية إلى أربعة أقسام :

- ١ — الجرح والموت ، ٢ — الدم المراق ، ٣ — جسم حاضر ، ٤ — النفس الغائبة .

والقسم الأول ، الجرح والموت ، بمثابة مدخل إلى القصيدة كلها ، وفيه تتوالى صور تمثل بسردها مصرع اغنسيو ، وقد اتخذ لوركا في عرضها أسلوبا خاصا هو مجرد ذكر للشهد العيني عن طريق إشارات متناثرة فردية بمجموعها تؤلف صورة مصرعه ، وفي ذكر تفاصيلها العينية حزن بالغ :
(م ٤ — الأدب الأروني)

« الفرش الابيض » (الكفن الموقت) ، « سلة الكلس » ، « فراص القطن »
المصبوغة بدمه المتدفق ، « الاكسيد والبلور والنيكل » ، « القرن » الذى
بات وحده ، « نواقيس الزرنيج » ، « نعشه » المشدود على نقالة ذات عجلات
« الغنغرينة » وهى تقترب منه لثملأ جراحه بالسهم المميت - كل هذه
الكلمات توحى فى الحال بموكب حزين للموت وهو يصارع هذا البطل
الصريع ، أثناء لحظاته الأخيرة . فعلى الرغم من أنها تعبر عن أدوات مادية ،
فإن هذا الجانب المادى يزول ليحل محله الجو الاسيان الذى يريد الشاعر
أن يخاطبه فى نفوسنا لنشاركه فى هذا المآثم الدامى .

وفى هذا القسم تتردد هذه الجملة الرهيبة : « فى المساء ، الخامسة » وهى
الساعة التى صرع فيها البطل الشهيد . وإنما لنذكرنا بالترديده الرهيبة التى فى
قصيدة « الغراب » لادجار الن بو E. A. Poe الشاعر الأمريكى الغريب ،
ونعنى بها . « كلاً ، ابداً » never more وتعلو نبرة الحزن إلى القمة حين
يقول الشاعر إنه لم يكن ثم سوى موت وموت ، فى المساء ، الخامسة » وإن هذا
القسم كله كأنه قطعة موسيقية ، باللغة الحزن من نوع « أحزان » شوبان .
وأجل الأقسام كلها هو من غير شك القسم الثانى : فهنا سعة فى الايقاع
وجلال فى الصور الشعرية ، وتدفق فى حركة المشاهد ، يشابه تماماً تدفق دم
اغنسيو على رمل الساحة بغزارة وحرارة . ذلك إنه يصف هنا صراع
اغنسيو مع الموت بعد أن طعنه الثور بقرنه طعنة مميتة . حاول صعود
الدرج ولكن تدفق الدم استنزف قواه . كما يصف فضائله ومناقبه : ياله
من بطل فى الحلبة ! - ياله من جبل فى الجبل ! - لقد كان رقيقاً مع السنابل
صليبا مع مهماز الفرس ، رقيقاً مع انداء الفجر ، بهى الطلعة وضاء الجبين
زاهى الثياب فى الأعياد والمواسم ، جباراً عتياً فى ظلمات الليل الرهيبة .
وهنا نحن أولاء نقدم ترجمة بالشعر الحر لهذه الرائعة الكبرى فى الشعر
العالمى كله .

مرثية إغنيو منشئت مخياس

١ - الجرح والموت

في المساء ، الخامسة !
دقت الساعة ضبط الخامسة .
وأقن الطفل بفرش أبيض
في المساء ، الخامسة .
سلة الكس أعدوها له
في المساء ، الخامسة .
لم يكن ثم سوى موت وموت
في المساء ، الخامسة .
أذرت الريح فراصا من قطن
في المساء ، الخامسة .
نشر الأكسيد بلورا ونيكل
في المساء ، الخامسة .

* * *

نازع الورقاء نمر واشتجر
في المساء ، الخامسة .
ساقه والقرن باتت وحدها
في المساء ، الخامسة .
بدأ الثنبور في طن رتيب
في المساء ، الخامسة .

— ٥٢ —

ونواقيس من الرنيح يعلوها الضباب
في المساء ، الخامسة .

وجموع الصمت في شتى الزوايا
في المساء ، الخامسة -

وحده ، الثور رفيع قلبه .
في المساء ، الخامسة .

ثم لما عرق الثلج اقترب
في المساء ، الخامسة .

وعلا الساحة يود وانتشر
في المساء ، الخامسة .

وضع الموت بيوضا في الجراح
في المساء ، الخامسة .

في المساء ، بالضبط عند الخامسة .

* * *

نعشه شدة على جاري العجل
في المساء ، الخامسة .

أعظما يسمع أو شدوا لناي
في المساء ، الخامسة .

وخوار الثور في جبهته
في المساء ، الخامسة .

كوّن الغرفة صبيغ الحشرة
في المساء ، الخامسة .

من بعيد قاربه الغنغرينة
في المساء ، الخامسة .

— ٥٣ —

وعلى العانة أبواق الزنابق

في المساء ، الخامسة :

والتهاب الجرح كالشمس سكير

في المساء ، الخامسة .

وجوع الناس أذرت بالنوافذ

في المساء ، الخامسة ؟

آه ما أقسى مساء الخامسة !

إي ! لقد كانت تمام الخامسة !

في جميع الساع في ظل المساء !

* * *

٢ — الدم المراق

لست أبغى أن أراه

ايه أقبل يا قر .

لست أبغى أن أرى

دم إغسيو على الرمل يراق .

لست أبغى أن أراه !

سطع البدر الوضىء

فرس الغيم الوديع

ساحة غبراء يعلوها النعاس

شجر الصفصاف من حول الحواجز

لست أبغى أن أراه !

إن ذكّرني في احتراق .
 أنبيء الياسم ذا اللون اليتق !
 لست أبغى أن أراه !
 بقرة الدنيا القديمة
 باللسان المبتس
 تلعق المهرق من غالى الدماء ،
 ثم ثيران « جسندو »
 ميتات كالخجارة
 مثل قرنين وأعيها المسير .
 لا !
 لست أبغى أن أراه !
 صعد اغنسيو على أدراجها
 حاملا للموت في كتفيه
 باحثا عن فجر يومه ،
 بيد أن الحلم لم يطلع عليه ؛
 باحثا عن طيف وجهه
 لم يجد غير دمائه
 لا تقل لي أن أراه
 لست أبغى أن أرى الدفقة تهبط
 دفقة تنشر نورا في المدارج

(١) « ثيران جسندو » تماثيل من عهد التاريخ اكتشفت في قرية جسندو بمقاطعة أبله في أسبانيا .

— ٥٥ —

ثم تهوى في المجموع الصادية

من يناديني لأنظر ؟

لا تقل لي أن أراه !

حينما أبصر قرن الثور

— لم يغلق جفونه

بيد أن الأمهات

قد رفعن الرؤسا

ثم من بين القطيع

كان همس مستسر

نحو ثيران السماء

سائقات للضباب الشاحب

لم يكن في أشبهه

من أمير يشبهه

لا ولا سيف كسيفه

لا ولا قلب كقلبه

مثل نهر من أسود

كان بأسه

مثل نحت مرمرى

كان حله

مسحة من عهد روما الأندلس

فوق رأسه

بِسْمَةِ كَالنَّارِ دِينَ
فِيهِ مِلْحٌ وَذَكَاءُ
يَا لَهُ مِنْ بَطْلٍ فِي الْحَلَبَةِ !
يَا لَهُ مِنْ جَبَلٍ فِي الْجَبَلِ !
كَمْ رَقِيقًا كَانَ عِنْدَ السَّنْبِلِ !
كَمْ صَلِيبًا كَانَ عِنْدَ الْمَهْمَزِ !
كَمْ رَفِيقًا كَانَ عِنْدَ الْأَنْدِيَةِ !
كَمْ بَهِيًا كَانَ بَيْنَ الْمَوْسَمِ !
كَمْ رَهِيًا كَانَ فِي أَقْصَى الظُّلَمِ !

* * *

لَمَّا يَرْقُدُ رَقْدَ الْأَبَدِيَةِ
هِيَ هُوَ الْعُشْبُ وَأَلْوَانُ الطَّحَالِبِ
تَفْتَحُ الرَّأْسَ بِأَمْوُنِ الْأَصَابِعِ
دَمُهُ الْغَالِي يَغْنَى وَيُرْوَحُ
مَنْشَدًا بَيْنَ الْمِرَاعَى وَالْبَطَاحِ
زَاحِفًا فَوْقَ الْقُرُونِ الْمَفْزَعَةِ
دُونَ رُوحِ نَائِسَا بَيْنِ الضُّبَابِ
صَادِمًا آلَافَ أَقْدَامِ شَعْبِيهِ
كَاللسَانِ الْمُسْتَطِيلِ الْمَظْلَمِ
مُحْدَثًا مُسْتَنْقَعًا مِنْ حَشْرِ جِهٍ
قَرَبُ « وَادِينَا الْكَبِيرِ »
فِي السَّمَاءِ الصَّيْحُو ذَاتِ الْأَنْجِيمِ

— ٥٧ —

— ايه سور اسبانيا يا أبيض !
ليه نور الألم الكافي السواد
دم اغنسيو الشديد المحكم !
أيها البلبل ، يشدو في عروقه !
لا !

لست أبغى أن أراه !
أي كأس يحتويه !
أي طير يحتسيه !
أي مسماني ضياء برّده !
أي شدو ، أي سوسن !
أي بلور يغطي باللجين !
لا !
لست أبغى أن أراه !

* * *

٣ — جسم حاضر

إنما الصخرة كالجهة بالأحلام تفر
دون ماء منحن ، كلا ولا سرو تجمد
إنما الصخرة كالعائق يعاوه الزمان
مع أشجار دموع وشريط ونجوم
كم رأيت المطر الأغبر يجري للياه
رافعاً زنديه مثقوبين من ريش السهام
دون أن يدفعه الصخر الذي
فك أشلاء وما أبدى دماء
يتلقى الصخر بذرا وغيوم
يتلقى هيكل القبر والذئب البهيم
يتلقى دون أن يعطى أصواتاً وبلورا ونارا
إنما يعطى مكانا ومكانا ومكانا دون سور
ها هو اغنسيو على الصخر ممد
انتهى ! ماذا ؟ تأمل في جبينه
غطه الموت بكبريت شحوب
وحباه رأس « منتور »^(١) بهيم
انتهى ! والظل يغدو بين فيه
والهوا ، المجنون ، يعوى بين صدره
والهوى المبتل من دمع الثلوج
يتدفأ في ذرى مرعى القطيع
ما يقولون ؟ وصمت النتن يرقد

(١) منتور : وحش أسطوري نصفه إنسان ونصفه ثور ؛ وقد قتله نسيوس .

نحن في محبة جسم حاضر يذوى ويهلك
 صورة صافية ذات بلابل
 ونراها الآن تعرفوها الثقوب
 ليت شعري من يرُضُ الآن أ كفان المُسجى ؟
 لا وحاشا ، ليس صدقا ما يقال !
 ليس من ينشد ، أو يبكي بركنه
 أو بمهماز يُزجى أو بشعبان يخاف
 ها هنا لا أبتغى غير عيون مستديرة
 لأرى ذا الجسم معدوم الرقاد
 ها هنا أبغى رجالا صوتهم مثل الرعود
 يكبحون الخيل والموج الشديد
 ولهم هيكل عظيم ذو رنين
 بقم كالشمس والخصباء يشدون الغناء
 ها هنا أبغى أراهم ، قبل الصخر العتيد
 قبل هذا الجسم مقطوع الزمام
 أبتغى أن يظلموني ، أين مغدى
 البطل الموثوق بالموت الرهيب
 أبتغى أن ينبؤنى بشكاة كالنهر
 ذى ضباب ، إرى وشطآن عميقة
 يحمل اغنسيو ويمضى
 دون أن تسمع للثيران زفره
 إليه فليمض لساحات البدور المستديرة
 إنما الأقار كالثيران لكن مستكينه .

— ٦٠ —

إيه فليمض بليل دون انشاد السمك
 فى متاهات الدخان المتخثر
 لست أبغى أن يغطى الوجه منديل -
 ليمسى الموت مألوفا لديه .
 هيه اغنسيو ! ولا تأسف على دافى الخوار .
 نم ، وطر ، واهدأ ! فان البحر أيضاً قد يموت .

* * *

٤ — النفس الغائبة

ليس يدري الثور والتين طباعك
 لا ولا الخيل ولا النمل بدارك
 ليس يدري الطفل والليل خصالك
 فلقد مت وما تمت رجعه
 ليس يدريك من الصخر ظهاره
 لا ولا السكس الذى فيه تحلل
 ليس يدريك ولا الذكرى الصموت
 فلقد مت وما تمت رجعه
 وغداً يأتى خريف بحلازنى
 عنب بالغيم ، حشد من جبال
 بيد أن الناس لن يرجوا لقاءك
 فلقد مت وما تمت رجعه
 لرى لقد مت وما تمت رجعه

— ٦١ —

مثل موتى الأرض طرا
مثل موتى قد نسيناهم -
- بأكداس الكلاب النافقات •
ليس يدريك أحد ، لكننى أشدو غناءك
أتغنى بمحيالك ولطفك
بنضوج العلم ، بالشهوة للموت ولذات فيه
يابتهاج باسل فيه شجن
وستمضى أعصر ، إن قدراً ،
قبل أن يولد فى الأندلس
بطلٌ مثلك ، وضاح ، غنى بالخاطر •
إننى أرثيك بالزفرة لا بالكلم -
إننى أذكر بالزيتون أنساماً حزينه •

سافيت جون برس

الفائز بجائزة نوبل

ظاهرةٌ خليقة بالإكبار أن يكون الفائزون بجائزة نوبل في الأدب في السنوات الخمس الأخيرة كلهم شعراء ، فلمها تدل على أن العصر الحاضر لا يزال يعترف بأن الشعر أنبل الأنواع الأدبية وأصدقها دلالة على المعنى الأعمق في روح الإنسان ، وأنه ليس عصرًا تيمسًا يمكن أن يدفع شاعرًا كهيلدرن أن يقول صارخًا : « في هذا العصر التعس ما الفائدة في الشعراء ؟ » . فلنحمد الله على أن هذا العصر ليس تيمسًا ، لأنه لا يزال يرى للشعراء فائدة ، بل أعلى فائدة .

والشاعر الفائز بها هذا العام شاعر مقبلٌ من ناحية ، متحرر في أوزانه وقوافيه من ناحية أخرى ، يمزج الشعر بالنثر والنثر بالشعر ، حتى ليخيل على القارئ ماذا يقرأ : شعر هو أم نثر ، لأنه لا يكاد يعرف القوالب التقليدية لتنظم الشعر ، ولا نظام الأبيات والقوافي ، ولا يميزه من النثر إلا الإيقاع المستمر في فواصله ، دون التزام لأي بحر من فقرة أو فاصلة إلى أخرى . أما القافية فلم يعرفها أبدًا ، حتى فيما نعتة بالأغاني . ولكن أبرز ما يميز هذا الشعر هو الصور ، فقد برع في ابتكارها براعة هائلة تكفي وحدها كي ترشحه لمكان الصدارة في الشعر العالمي المعاصر .

وشعره إنساني ، إنساني جدًا ، يستلهم مختلف البيئات : من البيئة البدائية التي ولد فيها إلى البيئة الصناعية الموهلة في الصناعة الفنية والمدنية ؛ وتشيع فيه روح الفطرة الزنجية ، وعطر الشرق الذي قضى فيه ردهًا من شبابه ،

ودخان المصانع في المدن الكبرى التي يسيطر عليها شيطان المال والإنتاج الصناعي الجبار .

وإحساسه بالغ الدقة والرقّة واللفافة والأناقة : الدقة في التفاصيل ، والرقّة في المشاعر ، واللفافة في معاني الخيال المبتكر ، والأناقة في صياغة العبارة واختيار الألفاظ .

وفي شعره موضوعية قلما نجدها في أي شاعر آخر، أعني أنه لا يتحدث أبداً عن نفسه في شعره ، وهي ظاهرة غريبة من سمات الشعر الجديد ، قصد إليها الشاعر قصداً حتى يصنف الشعر من كل عرّض ذاتي ، ابتغاء تحقيق ماسماه الأب بريمون Abbé Brémond باسم « الشعر الخالص » أو « الشعر المحض » Poésie pure ولا يعدله في هذا الاتجاه بين شعراء هذا القرن غير رلكه Rilke وبول فالري Paul Valéry . وهي ظاهرة خليقة أيضاً بأن يتأملها ويفيد منها الشعراء العرب للمعاصرون ، خصوصاً وعمود الشعر العربي قد وضع على الذاتية بحيث لا تكاد تجد شعراً خالصاً أو محضاً في تاريخ الشعر العربي كله إلا نادراً . فعلى الذين يبتغون التجديد من شعرائنا اليوم أن يتجهوا هذا الاتجاه

* * *

ولد ماري رينيه، ألكسى سان ليجه Marie René, Aïexis Saint - Léger (أو ألكسى ليجه ، اختصاراً) ، وهو الذي نشر شعره باسم Léger مستعار هو سانت جون پرس Saint - John Perse في ٣١ مارس سنة ١٨٨٧ بجزيرة جوادلوب Guadeloupe إحدى جزر الأنتيل في أمريكا الوسطى ، وقد اكتشفها كرسنوفر كولمبس سنة ١٤٩٣ ، لأب ينحدر من أسرة كثر فيها

المشتغلون بالمحامة ، فاشتغل هو أيضاً محامياً ، وهى أسرة استقرت فى الجزيرة منذ نهاية القرن السابع عشر بعد أن كانت تقطن إقليم البورجونى فى فرنسا ؛ ولأم تنحدر من أسرة زراع وضباط بحريين ، قدمت هى الأخرى من البورجونى ونورماندى بفرنسا واستقرت فى جزر الأنتيل ، فولدت أمه فى جزيرة جوادلوب كذلك .

وكان لأسرته جُزيرة صغيرة عند مدخل ميناء بوانت آبيتر *Pointe - à - Pitre*

فى جزيرة جوادلوب ، تدعى جُزيرة فى أو *Saint - Léger - Feuilles* فأضى فيها الطفل ألكسى سنوات الطفولة كما أمضى شطراً منها فى مزارع أسرته لأمه ، وهى مزارع قصب وبُنّ غنية . وتولت تنشئته حاضنات زنجيات أصلهن من الكونغو وغينيا والسنغال ، واختلطت بثقائهن الأجناس من زنوج أصلهم إفريقي ، وصُفر أصلهم من الصين وأنام واليابان ، وهنود من ساحل ملبار ، وبيض من الأرمن وللهاجرين السوريين ، وجر من بقايا الهنود الحمر فى منطقة البحر الكاريبى ، خصوصاً من جزيرة سان دومنجو . فكان لهذه البيئة الجامعة لأطراف العناصر والأجناس البشرية أثرها البارز فى شعره ونظراته الإنسانية الواسعة . وكَم له من شعر فى الزنجيات ، ذكرى لأولئك اللواتى شكلنهن بعنايتهن فى الطفولة !

ثم قدِم فرنسا سنة ١٨٩٨ للدراسة الثانوية فى ليسيه مدينة پو *Pau* (فى الپرانس السفلى جنوب غرب فرنسا) وفيها عرف الشاعر الفرنسى الروع فرنسيس جام *Francis Jammes* الذى كان يسكن آنذاك فى أورتيث *Orthez* فانعقدت أواصر الصداقة بينهما وجابا معاً أنحاء إقليم البيارن وبلاد البشكونش *Basque* ، كما عرف شاعراً وكاتباً وناقداً آخر هو فلرى لاربو *Valéry Larbaud* : ولما أتم دراسته الثانوية انخرط فى الجيش لمدة

عام ، التحق بعده بجامعة بوردو Bordeaux فحضر محاضرات مختلفة في كليات الحقوق والعلوم والآداب ، مشتت الدراسة لم يستقر بعد على شيء : فتارة يهتم بمحاضرات عن الفلسفة السابقة على سقراط ، خصوصاً في فلسفة هيرقليطس ، أو بفلاسفة مدرسة الإسكندرية : أفلوطين وبرقلس وفورفوريوس ، وتارة ثانية يهتم بالقانون المدني . ودفعه حبه للأسفار ودماء البحارة في عروقه إلى التفكير حيناً في الانخراط في البحرية ، وحيناً آخر في البحث في الأجناس البشرية والنباتات . ولكنها مشروعات لا تكاد تظهر حتى تختفي ، إلى أن استقر به الرأي عند دراسة القانون فحصل على إجازة الليسانس في القانون . وبعد انتهاء دراسته ارتحل إلى إسبانيا وألمانيا ، وإنجلترا حيث تعرف إلى القصصى المشهور البولندى الأصل جوزف كونراد ، فضلاعن رحلاته العديدة إلى جوادلوب . وأخيراً ألقى عصا الترحال في باريس واستعد لامتحان القبول في السلك الدبلوماسى بوزارة الخارجية الفرنسية فدخل المسابقة في سنة ١٩١٤ واجتازها بنجاح : ومن ثم تدرج في مناصب السلك الدبلوماسى فعين سكرتيراً في السفارة الفرنسية في بكين من سنة ١٩١٦ إلى سنة ١٩٢١ ، وانتهز هذه الفرصة العظيمة ، فحس خلال الصين وكوريا واليابان ومنغوليا وآسيا الوسطى ، وقام برحلات طويلة وشاقة ، واقتنى في الشمال الغربى من بكين على سفوح الجبال معبدًا تأويًا مهجوراً ، وفيه كتب رائعته الشعرية « أنباز » Anabase بعد رحلة في صحراء جوبي ، كما زار أرخبيل الملايو وأندونيسيا . وبهذا اكتسب خبرة واسعة بشئون الشرق الأقصى ، مما جعل وزارة الخارجية الفرنسية تعينه خبيراً سياسياً بشئون الشرق في وفد فرنسا لدى مؤتمر واشنطن الدولى الذى انعقد في نهاية سنة ١٩٢١ ، وكانت فرصة له تعرف فيها إلى أرسيد بريان Briand رئيس وزراء فرنسا في ذلك الحين ، فاختره هذا - وقد لمس كفايته - مدبراً

لمكتبه الدبلوماسي من سنة ١٩٢٥ - ١٩٣١ ، ثم عين في تلك الأثناء مديراً سياسياً بوزارة الخارجية سنة ١٩٢٩ وبعد ذلك سفيراً سنة ١٩٣٣ ، ومن ذلك التاريخ أصبح الأمين العام لوزارة الخارجية الفرنسية خلال تلك الفترة الدبلوماسية العصيبة بالنسبة إلى فرنسا ، فترة تولى النازية الحكم في ألمانيا وما جره ذلك على فرنسا من ويلات ومهانات ؛ وكان هو من دماة المبادرة إلى محاربة ألمانيا قبل أن يستفعل أمرها ؛ وظل في هذا المنصب حتى فصل منه في ٢٠ مايو سنة ١٩٤٠ ، في عهد وزارة پول رينو ، فطلب إحالته إلى الاستيداع ، واعتكف في منطقة أركاشون (بالقرب من بوردو على ساحل الأطلسي) . ولما تمت هزيمة فرنسا في ١٤ يونيو سنة ١٩٤٠ ، ركب سفينة نقل في ١٦ يونيو متجهة إلى إنجلترا ، فوصل إلى إنجلترا ثم غادرها إلى نيويورك فبلغها في ١٤ يوليو سنة ١٩٤٠ واستقر به اللقمان نهائياً في أمريكا . وفي تلك الأثناء كان الجستابو قد فتش منزله في باريس ، وصادر محتوياته ، ومن بينها مخطوطات سبعة مؤلفات أدبية فرغ منها . وفي ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤٠ أصدرت حكومة فيشي أمراً بإسقاط الجنسية الفرنسية عنه ومصادرة أملاكه وشطب اسمه من قائمة اللجئون دونير .

وفي منفاه عاش أولاً في نيويورك ، وفي السنة التالية انتقل إلى واشنطن والتحق بوظيفته مستشار في مكتبة الكونغرس ، وظل يمارسها خمسة أعوام . ولما انقضت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٤٥ ، ردت إليه جنسيته ووظيفته ، لكنه لم يقبل العودة إلى السلك الدبلوماسي وفضل أن يكون سفيراً على التقاعد ، واحتفظ بمسكنه في واشنطن ، كنقطة ارتكاز له في أسفاره الجديدة التي يقوم بها في كندا وأمريكا الوسطى . ولم يشأ أبداً العودة إلى باريس ، كراهية منه « للباريسيات » الأدبية والديوية ، أعنى للحياة الأدبية واليومية في باريس ، وما فيها من تصنع ورياء وشعارات سخيفة ؛ وبدع

زائف يقبل عليه صائدو الشهرة والألقاب الأدبية الرخيصة والمتطفلون العاجزون عن الإبداع الصادق في الأدب والفن .

* إنتاجه :

وإنتاجه الشعري كما قلنا قليل، قد جمع كله في مجلد واحد من ٤٥٠ صفحة من الطبع المنفوش ، ويشمل :

١ - « مدائح » - ويتضمن :

(أ) صور لكريسيويه Images a Crusoé نشر في « المجلة الفرنسية الجديدة » NRF في أغسطس سنة ١٩٠٩ باسم : سان ليحيه ليحيه

(ب) « للاحتفال بطفولة » : « إنشاء في مدح ملكة » الخ ، نشر في المجلة نفسها في إبريل سنة ١٩١٠ باسم سان ليحيه ليحيه

(ج) « مدائح » Elloges ، باسم : سان ليحيه ليحيه ، مجلد يشمل القصائد السابقة ، باريس ١٩١١ ضمن منشورات « المجلة الفرنسية الجديدة » .

(د) « صداقة الأمير » Amitié du Prince باسم : سانت جون پرس نشر لأول مرة في مجلة Commerce سنة ١٩٢٤ ، وفي مجلد سنة ١٩٢٤ في باريس .

(هـ) « أغنية ولي العهد » باسم سانت جون پرس ، في باريس - سنة ١٩٢٥ .

(و) « ههددة » - باسم سانت جون پرس - نشر لأول مرة في نيويورك في أغسطس ١٩٤٥ في مجلة Mesa

(ز) وجمعت القصائد السابقة كلها في مجلد بعنوان « مدائح » Eluges
وظهر في باريس سنة ١٩٤٨ .

٢ — « أنباز » Anabase

وقد نشر منه بعض قطع في سنة ١٩٢٢ ، وفي سنة ١٩٢٤ ، ثم في مجلد سنة
١٩٢٤ في باريس عند الناشر جاليمار ، والطبعة الثانية سنة ١٩٢٥ عند الناشر
نفسه ، والثالثة سنة ١٩٤٧ عند الناشر نفسه .

٣ — « للنفي » ويتلوه « قصيدة إلى الغريبة » و « أمطار و « ثلوج » .

نشر لأول مرة في نيويورك في مجلة « الشعر » Poetru التي تصدر في
شيكاغو بأمريكا ، المجلد ٤٩ ، عدد ٦ ، في مارس سنة ١٩٤٢ . ثم نشرته مجلة
« كراسات الجنوب » Cahiers du Sud التي تصدر في مرسيليا بفرنسا
في مايو سنة ١٩٤٢ .

ونشر في مجلد لأول مرة سنة ١٩٤٢ في نشرة خاصة من مجلة الجنوب .
أما « أمطار » فنشرت لأول مرة في نيويورك في مجلة كراسات Hémisphères
في صيف سنة ١٩٤٣ . و « ثلوج » نشرت لأول مرة في الأرجنتين في مجلة
« الآداب الفرنسية » Lettres Francaises التي تصدر في بوينوس أيرس
سنة ١٩٤٤

ثم جمعت كلها في مجلد ونشرت لأول مرة في باريس سنة ١٩٤٥ عند
الناشر جاليمار ، ثم سحب المؤلف هذه الطبعة من التداول لما فيها من أغلاط
مطبعية ، وأعيدت طباعتها عند الناشر نفسه سنة ١٩٤٦ .

٤ — « الرياح » — نشرت لأول مرة في مجلد في باريس سنة ١٩٤٦ عند الناشر جاليمار .

٥ - جمعت هذه المؤلفات الشعرية كلها في مجلد واحد بعنوان « الإنتاج الشعري » Oeuvre Poétique عند الناشر جاليمار سنة ١٩٥٣ في ٤٧٨ صفحة

شعره :

وأبرز طابع في شعر سانت جون پرس ، من الناحية الفنية ، هو الصور الوفيرة المبتكرة .

ونبدأ بتقديم نماذج منها :

١ - من مجموعة « مدائح » :

« وكانت الأبقار الوردية والخضراء معلقة كثمار المانجو »

« هذه الأسماك تغدو مثل لحن في نشيد »

« وللزناير طيران شبيه بعضات النهار في ظهر البحر »

« والمرفاً أسلم إلى القلق ، والسماء إلى الحمية »

« إن البحر ، بين الجزر ، متورد من الترف »

« ولكن حكمة النهار اتخذت صورة دوحة جميلة »

« جالس في ألفة مع ركبتى »

« ووجهك معرض لآية الليل ، كتفاحة مقلوقة »

« إن اسمك يرخى ظلالاً لشجرة سامقة ، وسأحدث عنه مع أناس من

براب ، على الطرقات ؛ وسينعشون منه »

« كل طرق العالم تدغدغنا في اليد »

٢ - من « أنباز »

« ودفوف المنفى توقظ على الحدود الأبدية التي تتناوب على الرمال » .

« جماعات النجوم تمر على حافة العالم ، ضامة إليها كوكبا منزليا من المطابخ »

« الأرض بجيوبها المجنحة تسافر كالشاعر في أقواله »
« من الإسفنجة الخضراء لشجرة واحدة تمتص السماء عصارتها ،
اللازوردية »

« نفسى مظلمة من عطر الفرس »
« أين ، أين نجد المحاربين الذين يجرسون الأنهار في زفافهم ؟ »
« هل نهوى بالسياط على خيول السادة المخصيات ؟ »
« بلاد عظيمة أعف من الموت »

٣ — من « المنفى »

« على هياكل الطيور الصغيرة تذهب طفولة هذا اليوم ، في دثار الجزر »
« واليوم يتخثر كاللبن »
« وقلبي زاره حرف صائت غريب »
« والزبد على شفاة القصيدة كأنه لبن المرجان »
« حмяتنا مرسومة على شجيرات توليب الأحلام »
« إنها الأرض المتعبة من حروق الروح » .
« الأرض ، الأرض لها طعم المرأة التي جبلت امرأة » .
« والفجر الصامت في ريشه . . . نفخ جسمه الشبيه بزهرة الداليا البيضاء » .

« والحزن أزاح عن نفسه نقاب الخادمة »
« أبدية من الجو الجميل تجثم على أغشية الصمت المغلقة »

٤ — من « الرياح »

- « شجرة سامقة من لغة حافلة بالوحي والحكم »
« هذا المساء سترقد الفصول الميته في أنوارها المسائية »
« أصغ إلى العاصفة تخرث في مرمر المساء »
« لون الشتاء كلون الهجرات السماوية العتيقة »
« وسماؤك شبيهة بالحمية الشعرية »
« إني لأسمع نمو عظام عصر للأرض جديد »
« ورجال بالصدفة يسوقون في الأرض الجديدة عيونهم الخصبة
كالأنهار » .
- « وإني لأذكر الأرض العالية التي لا اسم لها ، وقد أضاءها الفزع وخلت
من كل معنى » .

الصور الشعرية

عند سانت جون پرس

الصور الشعرية هي أعلى ما يرشح الشاعر للمجد ، لأن الشعر إنما يكون شعراً بها ، إلى جانب الإيقاع الموسيقي ؛ إذ بها تتحقق خاصية الشعر وهي أنه يحيل المعاني المجردة إلى امتثالات عينية تنفعل لها الحواس انفعالا لذيذاً ، ولهذا كانت العناية تنتجه عند دخول الشعراء للمعاصرين إلى خلق أوفر الصور الشعرية حظاً من الجمال والإبداع والتأثير الذي يهز النفس . وفي هذا يقوم جوهر الشعر الحديث ، لا فيما يتوهمه دعاؤه في العالم العربي من اطراح للبحور والقوافي أو طرق لموضوعات شعبية أو استخدام للألفاظ العامية - فهذا كله لا شأن له بجوهر الشعر الحديث ، إنما هذه وسائل بمعزل عنه .

وخطأ دعاة الشعر الحديث من العرب أنهم خلطوا بين ظاهرة عرضية وهي استعمال بعض الشعراء المحدثين الأوروبيين لحوادث الحياة الجارية وآلات المدينة الصناعية وما يتبع ذلك من لغة شعبية عامية - وبين جوهر شعر هؤلاء ، فحسبوا أنهم مجددون بسبب هذا الاستعمال ، لا بسبب خلق صور شعرية طريفة كل الطرافة استمدوا عناصرها في كثير من الأحيان من واقع الحياة اليومية الجارية والآلات الصناعية .

والحق أن الذي جعل لشعرهم قيمة هو هذه الصور .

ولبيان هذا نتحدث عن عناصرها . ومن أهم هذه العناصر أو العوامل في إيجاد الصور الشعرية : المجاز . والمجاز عندهم ، خصوصاً ماياكوفسكي Maiakovski وپاسترناك Pasternak ، عنصر موجود « في » العالم ، وليس

نتيجة تفكير في العالم . وعلى الشاعر أن يستخلص هذا العنصر من العالم نفسه ، لا أن يفرضه عليه أو يلغّقه . وهذا هو المميز البارز لهذا النوع من المجاز ؛ فالمجاز معروف منذ كان الشعر ، ولكن الجديد في نظرية المجاز عند هؤلاء ، أن المجاز في العالم نفسه ، لا في خيال الشاعر .

على أن الشعراء المعاصرين قد اختلفوا حياله إلى فريقين : فريق يستمد عناصر المجاز من ملابس الحياة اليومية والمدنية الصناعية ، وفريق آخر ظل يترفع به عن الحوادث ، ويحتفظ له بسمات مترفعة ، صافية ، عناصرها الأحياء ومناظر الطبيعة .

وإلى الفريق الأول ينتسب مايا كوؤسكى وباسترناك وبريتون ، وإلى الثاني ينتسب شاعرنا سانت جون پرس واليوت .

فإن مايا كوؤسكى وباسترناك لا يتورعان عن استخدام أعظم الظواهر ابتداءً في تكوين صورها الشعرية . فنجد باسترناك مثلاً يشبه « أغصان الأشجار المتعرية من أوراقها » بـ « أكمام القمصان المبتلة » ، ويشبه « الهواء » فيقول : « وكان الهواء أزرق كحزمة ملابس مريض يخرج من المستشفى » ، وقد يوغل في الصورة إلى حد المعازلة فيقول مايا كوؤسكى :

« والمصباح الأصلع يخلع باشتهاء جوارب الشارع السوداء » .

والعناصر هنا متباعدة ، لكنها بارعة التلقيق : فأين نور المصباح (« الفانوس » الذي يضيء في الشارع) من الجوارب ؟ وأين فكرة النور من الصلع ؟ ولكنها في مجموعها تكون تشبيهاً رائعاً يهز النفس بغرابته ومفارقاته .

ولباسترنالك مئات من هذه الصور الموهلة في الإغراب والطرافة - نقدم
هنا بعض أمثلة عليها :

- « وكان الفجر رمادياً كمشجرة بين الأحداث ! »

- « والصمت يرن رنين الرعدة المعبرة لدرس القمح »

- « وكان الفجر رمادياً كضوضاء المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة »

« ومن بعيد كانت الغيوم ترعى في كسل »

والملاحظ في كل هذه المجازات والتشبيهات أنها لقطات سريعة مفاجئة يلتقطها الخيال ببراعة فائقة من مشاهدات الواقع ويعقد بينها أواصر وثيقة ومنطقية تبهل الخيال بغرابتها وما فيها من عنصر مفاجأة وامتناع ألفة .
والشاعر التقطها بمسكة خاصة فيه لا شأن فيها لقانون تداعى المعانى ،
ولا للبحث المصطنع المتأنى وراء ارتباطات بين المعانى ؛ وكلها فى الأصل
حسية شاهدها الشاعر بعيونه أو سمعها بأذنيه .

والجديد فى هذا النوع من المجاز أنه تخلص من رمزية الألوان والأشياء ،
تلك الرمزية التى كانت بضاعة الشعراء الرمزيين وبعض السرياليين
Surréalistes فى أواخر القرن الماضى وأوئل هذا القرن . فقد كان هؤلاء
يسرفون فى استخدام الألوان فى وصف الأشياء والأحداث اعتماداً على
رمزية خاصة اصطنعوها لهذه الألوان ، من أمثلة قولهم : « حقد أزرق » ،
« موسيقى سمراء » ، « كذب أبيض » ، « ألغاز زرقاء » ، « صرخة حمراء » ،
« ابتسامة صفراء » ، « ضحك أسود » .

ولهذا يقول باسترنالك عن أهمية الصورة :

إن الصورة هى النتاج الطبيعى لقصر عمر الإنسان وفداحة الأمانة التى.

حملها . وهذا التباين هو الذى يرغمه على النظر فى كل شئ بعين النسر المحيطة ،
وعلى الترجمة عن مخاوفه للمباشرة بصيحات موجزة . وهذا هو جوهر الشعر .
ويقول مرة أخرى :

« الإنسان صامت ، والصورة هى التى تتكلم ، إذ من الواضح أن الصورة
وحدها هى التى تقوى على مجازاة نبضات الطبيعة » .
ومن هنا يرى پاسترناك أن المجاز ليس أداة تعطى للشاعر لتصوير العالم
بل هى نفسها العالم ، وهو يقدم نفسه فى صورة شعرية .

* * *

وباقة الصور الشعرية التى قدمناها لسانت جون پرس تتحلى فيها هذه
الخاصية للشعر الحديث الممتاز . فقله : « وكانت الأقمار الوردية والخضراء
معلقة مثل ثمار المانجو » — هذا التشبيه بعيد ما بين طرفيه ، ولكنه يخل
لقطة خاطفة أدركها الشاعر بالمشاهدة الحسية الدقيقة البارعة ؛ بيد أنه يختلف
عن صور مايا كوفسكى وپاسترناك وألكسندر بلوك Alexandre Block لأنه
ظل مع ذلك يترفع عن الحوادث اليومية والابتذال اليومي ، ويستمد الصورة
من الطبيعة نفسها . وكذلك قوله : « كانت الأسماك تغدو مثل لحن فى نشيد »
هنا الصورة منتزعة من الطبيعة ، ولكن أحد طرفيها إنسانى ، وهو اللحن
فى النشيد . وميزة هذه الصور وغيرها فى شعره أنها أقرب إلى الإدراك ، ولهذا
تمس النفس مسارقيقا دون أن تؤثر فيها بعنف كما تفعل صور مايا كوفسكى
وپاسترناك . وتأثيرها أقرب — إذا استخدمنا هذا التشبيه المنتزع من الموسيقى —
إلى تأثير موسيقى الحجرة ، فى حين أن تشبيهات مايا كوفسكى وپاسترناك
تهزنا هزاً سمفونيات بيتهوفن وكولشترات باخ Bach .

خذ مثلاً قوله : « جالس فى ألفة مع ركبتي » — هذه صورة منزلية
أليفة بسيطة تحدث فى النفس دغدغة سارة ، قصيرة النفس ؛ على حين أن ما
أوردناه من تشبيهات پاسترناك ومايا كوفسكى يهزنا هزاً طويلاً لأمدها على النبرة .

ولهذا نستطيع أن نقول عن صور سانت جون برس الشعرية ، إن طابعها المميز هو «الألفة» L'intimité لكنها ألفة تتسم بالطرافة ، أو ألفة ممتعة كالسهل الممتنع في الأسلوب النثرى تماماً . وإلا فأى شاعر قبله تحدث عن «الأبدية التى تتشاءب على الرمال» ، أو عن « البحر الوردى من الشهوة » أو عن « البلاد الفسيحة الأعف من اللوت » ، أو « النهار الذى يتختر كاللبن » أو « قلبى الذى زاره حرف صائت غريب » ؟

وإذن فالبساطة والألفة فى هذه الصور لا تقدر أبداً فى طرافتها وعلوها بل تزيد من قيمتها ، وإن كنا لانستطيع أن نقول إنها أجمل أو أوقع من تلك الصور المتسمة بالغرابة والمفاجأة مما شاهدنا عند باسترناك ومايا كوفسكى . إنما هو الاتجاه العام عند كل منهم هو الذى سبب هذا التمييز والتباين . فسانت جون برس شاعر الكون وظواهره الديناميكية من « رياح » و « غيوم » و « ثلوج » ، ومن هنا كانت دار صناعته مؤلفة من هذه العناصر الكونية ؛ أما باسترناك ومايا كوفسكى فعالمهما هو الإنسان المنتج الصناعى الحديث ، بآلاته وعماله الكادحين . صحيح أن باسترناك قال قصائد فى « الرياح » و « الخريف » و « الشتاء » و « الثلوج الأولى » — لكن شتان ما بين تعبيراته وصوره فيها ، وبين تشبيهات سانت جون برس وإحساساته !

ولو حللنا طبيعة الصورة الشعرية عند سانت جون برس لوجدناها فى الربط بين فكرتين من طبيعة مختلفة : « الأبدية » و « التثاؤب » ؛ « غدو الأسماك » و « اللحن فى النشيد » ؛ « ثمار المانجو المعلقة » و « الأقمار الوردية والخضراء » ... الخ .

والربط هنا بين فكرتين أو معنيين أكثر منه بين مدركين حسيين — وهذا هو ما يميزه من شعر باسترناك .

* الديناميكية الشعرية :

وإلى جانب امتياز شعر سانت جون برس بالصور الكثيرة الأليفة الطريفة ، نراه يمتاز بالديناميكية الشعرية ، أعنى أنه يميل إلى وصف الحركة والتغير والاضطراب والصيرورة الدائمة . وهذا أظهر ما يكون في مجموعته الشعرية بعنوان : « الرياح » Vents ، وتعد بمثابة ملحمة كونية تغنى فيها الشاعر بالعناصر المضطربة المتحركة في الطبيعة ، وتتألف من قرابة ألف وخمسمائة بيت . والرياح رمز على ما يتحرك ويدور ، ويصفر ويشور ، ويعلو ويهبط ، ويحطم ويبني ، ويميت ويحيى ، ويعقم ويخصب . وبالجمل ، الرياح هي الحياة . نفسها بحركتها ودورانها ، وسكونها وغليانها ، وخصوبتها وعقمها ، وخولتها وذبولها .

في النشيد^١ لأول يبدو العالم كله والرياح تسوده :

« كانت الرياح العظمى تهب على جميع أنحاء العالم . . . وتمس عالم الأشياء كلها » .

والرياح علامة على الاضطراب في العالم العلوى ، الاضطراب الذى عنه ينشأ النظام ، أعنى « الكون » (« الكوسموس Kosmos » فى اليونانية معناه فى الأصل : النظام) . والرياح جبارة وعائية ، قاسية ، متوحشة ، ولسكنها فى خلال هذا كله تهديء العناصر ، إنها عامل من عوامل التحات ، إنها صانعة للأرض التى سيحيا فيها الإنسان ؛ إنها تهب فتفصل الحجر عن الجبل والورقة عن الشجر ، والقصيدة الجيدة من القصيدة السقيمة :

« الرياح :

كانت قوى هائلة تنمو فى كل فج فى هذا العالم ، مصدرها أعلى من قصائدنا . بين أسوأ اضطرابات الروح ، كانت الرياح تنشئ أسلوباً للعظمة جديداً تتسامى فيه أفعالنا المقبلة . .

وكانت تبث الأفكار الجديدة فى صوف الأعاصير الأسود ...
وترقد أصنام الآلهة على وجوهها . وتطلق الينبوع تحت أشواك الملوك
وبلاطهم ... وكانت تتخذ عصب الأحجار ومعارك اللهيب ... وتتملق
بأذيال الراعى والشاعر ... حتى إذا ما مازت الأعمال الحية من الميتة ،
والأحسن من الخسيس كانت تنعشنا بحلم من الأمانى والوعود .

واعتناق الريح معناه بالنسبة إلى الإنسان اعتناق الحياة التى لا حد لها ،
الحياة بلا وطن ولا زمن ولا نسب . « فإذا أنكر واحد منا وجه الحياة :
فلنمسك بوجهه فى الرياح — رغمًا عنه » . فالخضوع لسلطان الريح فيه خلاص
الإنسان ؛ أما التخلص والهروب من سلطان الريح فلا يؤدي إلا إلى اعتناق
مذهب مصطنع والتعلق بمذاهب إقليمية ، أى بأنظمة خيالية ، وبالجملية إنه
زيف وبهتان . ألا فلنعتنق دين الرياح ، دين الحركة والحياة المستمرة ،
دين القلق الدائب الجولان ، دين المنى - الاختيارى أو الإجبارى ، لا يهم -
دين الفناء ، فكل موجود لفناء .

وهنا قسمه وجودية واضحة فى شعر سانت جون پرس .

والشاعر ، من هو ؟

لقد وزنته الرياح فوجدته قليل الوزن .

لكن الرياح هى القصيدة ، لأن القصيدة الحقة شبيهة بالرياح فى حركتها
ودورانها واضطرابها ، وفى خلقها للصور والأشياء والأحياء ، وفى إيقاعها
الهائل المتقلب . ومن هنا نلتهى فى النشيد الثالث إلى تمجيد الشاعر لأنه
اعتنق الرياح :

ألا فليس سمعنا الشاعر صوته ، وليقُدْ أحكامنا . إن الشاعر معنا ، على
طرقات الناس فى عصره يسير مع قطار عصرنا ، ويسير مع قطار الرياح

العظمى ؛ ووظيفته بيننا هي : أن يوضح رسالتنا ، لا الشيء المكتوب
بل الشيء نفسه ، في عمائقه الحية وبتمامه .
إن الشاعر شاهد العصر .

لكن الرياح سرعان ما تستأنس ، أى تتخذ طابعاً إنسانياً ، وهذا
ما يعجده النشيد الرابع . لقد عرف الإنسان أنه فأن ، ولكن في هذا
الفناء نفسه عظمته ، كالرياح ، فهي متغيرة فانية باستمرار ، وفي هذا سر
عظمتها . وهكذا الإنسان : فليتحالف مع الرياح ، وليحاكها في حركتها
وفعلها ، فتلك رسالته في الوجود .

جان كوكتو

جان كوكتو وجه فريد في الأدب المعاصر : امتاز بتعدد مواهبه .
وغرابة تجديده وتعلقه بكل مايدل على التردوعدم الانقياد للجارى والمألوف
والمسلم به بين الناس .

كان شاعراً بقدر ما كان رساما ومخرجا سينمائيا ومؤلفا مسرحيا وقصصيا
وحفارا ومديرا مسرحيا ومؤلف مرقصات (باليه) . وفي جميع هذه الميادين
كان متساويا ، كفاء لفنه ، ورائدا فيه . وكان يرى أن هذه الميادين كلها في
خدمة شيء واحد هو الشعر ، بالمعنى العالى الملىء لهذا اللفظ . ولهذا قسمت
مؤلفاته إلى ألوان من الشعر ، شعر (فقط) . شعر القصة ، وشعر المسرح ،
وشعر النقد ، وشعر السينما ، وشعر الرسم .

وعاش حياة حافلة بالتجارب العديدة التي كادت أن تدخل في عداد
الأسطورة ، فنسجت حول حياته الخاصة والعامة أساطير متفاوتة القدر من
الصحة الواقعية ، خصوصا في الفترة ما بين الحربين .

ولد جان كوكتو في ضاحية ميزون لافيت في الخامس من شهر يوليو
سنة ١٨٨٩ من أسرة ميسورة تنسب إلى الطبقة الوسطى ، منها الصيارفة
وقادة الأساطيل ، وتعنى بالموسيقى والفنون بعامة . وتوفى والده جورج
كوكتو وهو في سن العاشرة فالتحق بليسيه كوندورسيه في باريس حيث انتقلت
أمه من ضاحية ميزون لافيت Maisons - Laffitte .

ولكن الفتى لم يكن مكبا على الدراسة ، بل كان مشتتا أميل إلى اللهو
والزهاش شأن أبناء البورجوازية الثرية في مطلع هذا القرن . لكنه في هذه
السن المبكرة كان يغشى المسارح والملاهى . فشاهد مستنجم Mistinguett
الراقصة المشهورة ؛ وتردد على مسرح الكوميدي فرانسيز ومسرح ساره برنار

فأعجب بساره ودى ماكس ، كما أعجب هذان بهذا الفتى المبكر النضوج .
 ذلك أن دى ماكس نظم حفلة فى مسرح « فينا » ، لقراءة أشعار هذا
 الشاعر الشاب الذى لم يكن قد جاوز السادسة عشرة ؛ فألقاها نفر من أشهر
 الفنانين فى باريس ، وبين عشية وضحاها صار كوكتو مشهوراً فى كل باريس
 وصار يمشى بصحبة كبار الفنانين فى ذلك العصر، وتعرف إلى مشاهير الأدباء فى
 العاصمة الفرنسية : كاتول مندىس الشاعر الرقيق ، وادمون روستان ساحر
 المسرح الفرنسى آنذاك ، ولوسيان دوديه ، وجول لومتر الناقد المرفه ،
 والشاعرة أنه دى نوتاي ، والقصصى الكبير مارسل بروسث مؤلف
 « سعياء وراء الزمان الضائع » . كما انعقدت أواصر الصداقة بينه وبين شباب
 الادباء آنذاك : ألان فورنييه ، وشارل بيجى ، وفرنسوا موريالك .

ولعبت الشهرة المفاجئة برأس الفتى فاتتقل ليسكن فى قصر بيرون الذى
 كان يقيم فيه الشاعر الألمانى العظيم رلكه ؛ والذى يروى كوكتو عنه أن
 مصباحه الساهر فى جنح الليل هو الذى نبهه إلى أن الشهرة المبكرة لن
 تجديه نفعاً ، وإن الشاعر الفنان الحق هو الساهر على فنه ، الحريص على
 العمل المتواصل من أجل تجويده . لكنه نشر على كل حال ثلاث مجموعات
 شعرية : الأولى بعنوان « مصباح علاء الدين » ، والثانية « الأمير العايب »
 والثالثة بعنوان « رقص سوففليس » . وواضح من هذه العنوانات ما فى
 صاحبها من تصنع ورغبة فى التظاهر بالتجديد .

غير أنه سرعان ما أفاق من بريق الشهرة المبكرة الزائف ؛ والذى
 حاول عليه مقال كتبه أندريه جيد وهنرى جيون فى « المجلة الفرنسية
 الجديدة » NRF امتدحاً فيه الشاعر الناشئ ، لكنهما مزاجاً المدح بالنقد
 البارع المستتر مما فتح عيون كوكتو .

وفتح عيونه أكثر فأكثر ما وجهه إليه أصدقاؤه الفنانون من نصائح
 (٦٢ - الأدب الأوروبى)

وملاحظات ، فقد قال له سرج دى دياجيليف (١٨٧٢ - ١٩٢٩) مدير البالية الروسى الذى سحر باريس بروائع مرقصاته فى ذلك العهد : « أدهشى ا » ثم حدث آنذاك — فى سنة ١٩١٣ — أن عرضت قصة « تتويج الربيع » بموسيقى ايجور استرافنسكى فأثارت عاصفة من الغضب لما امتلأت به موسيقاها من نشار كثير ، لأنها أقيمت على نظرية تعدد الانغام أى تجاوز نفحات كثيرة تتداخل فيها عناصر غريبة ؛ وبهذا تتسع الانسجومات وتتساقط عليها المقاصد اللحنية . أفاق اذن كوكتو وراح يفكر فيما يجب أن يفعله حتى يستطيع أن يلبي نداء رسالة الفن الصادق الذى سمعه منذ نعومة أظفاره . فقرر أن يقطع ما بينه وبين ماسارفيه والتزم به حتى الآن . فاعتكف فى المنزل الذى ولد فيه فى ضاحية ميزون لافيت (إحدى ضواحي باريس) وراح يدرس ويتأمل ، متأثراً خصوصاً بالموسيقار استرافنسكى الذى راح يقضى معه فترة من الوقت فى قرية ليزان Leysin (بسويسرة) . وعن هذه الخلة فى بيته وفى صحبة المجدد الروسى انبثق كتاب « بوتوماك » .

وعن هذه الفترة يقول كوكتو فى مذاكرته : « علمتني الفرقة الروسية (فرقة دياجيليف) أن أحتقر كل ما هزته فى الهواء . إن هذا القوقس يدعونا إلى وجوب الاحتراق حبا للميلاد من جديد ، وألعاب السيرك هذه على صلة بالقبور . وثم ظروف من الشجاعة فيها أن يكرس المرء نفسه لعبادة لا تزال متهممة بينما سائر العبادات تقدم إليك استغلالاً سهلاً — أى أن التجديدات التى آتى بها استرافنسكى فى الموسيقى — على الرغم من ثورة عامة الناس عليها — ينبئني أن تكون قدوة يحثنيها كوكتو فى فنه هو ، فن الشعر والأدب . لقد اطرح كوكتو « مصباح علاء الدين » بتأويله الرخيصة وراح يفتش عن مصباح كمصباح عمال المناجم حتى « ينفذ إلى حيث الماس والغاز » .

وكتاب « بوتوماك » مجموعة من الرسوم والأشعار والفصول النثرية ذات الحوار أحياناً ، والجمل القصار كأنها الحكم . وهو في جوهره اعترافات الكاتب وذكرياته ، وتختلف في طرائق صياغتها بين المخاطب والغائب ، وتتوالى فيها الظلال والأشعة . وهذا الأسلوب في التأليف سيكون الطابع البارز لمؤلفاته التي من هذا النوع (أى فيما عدا المسرحيات والقصص) .

وسنقدم هنا نماذج من هذا الكتاب الغريب التأليف :

« ويوجين ، أول يوجين ، « رسول آل يوجين » ، فتبنى . إن فيه مشابهة من الحيوان الأثرم والدود والمعوجة ، ومنجنى آوور ، والفلك ومكشاف دوران الأرض المزين بالطينين . لم أطلق عليه اسماً ، بل قلت لنفسى هذا أحد آل يوجين ، كما يصيح الزنوج : « هذا كرسنوف كولبس » ويقولون : لقد كشفنا .

« إن آل يوجين نقلوا إلى أسمهم كما أرسلوا إلى صورة شبح مكافئ لكتلتهم الهلامية .

« حيث السور يلزم الفلاسفة والعلماء بالوقوف الدقيق هناك يبدأ الشاعر .

« إن العلم لا يفيد إلا في تحقيق اكتشافات الغريزة . أريد أن أدون جملتين قالهما لي هنرى بوانسكاريه (العالم الفرنسى الشهير) قبل وفاته بأيام قليلة . كنت آنذاك شاباً والتقيت به عند أليس . وهذه هي الجملة الأولى : « لماذا أنت خجول ؟ أنا الذى ينبغى على أن أكون خجولاً . إن شبابك والشعر امتيازان . إن صدفه القافية تخرج أحياناً مذهباً من الظلام ، والفرحة تلتقط السر الطائر » . والجملة الثانية أجل منها ، وهى : « نعم ، نعم ، إنى أحزر . إنك تود أن تعلم إلى أين وصلنا مع المجهول . إن كل يوم يقدم عجيبة في معاملنا ، لكن المسئولية تحملنا على الصمت المهين . إنى أرى أشياء ، أرى أشياء . .

(ثم خلع منظاره المزدوج) إن إيمان الناس بنا لا يمكن أن يتغذى إلا باليقين المجهول ! .

وهذا الكتاب يكشف عن تحول بالغ في حساسية كوكتو . لقد أصبح قادراً على التقاط كل الأحاسيس والتيارات، والانفعالات . كما يتجلى فيه اهتمامه بالمسرح، وجو الاوبرا، وما يصاحب ذلك من حيل في تركيب الشخصيات واضاءتها وتوزيع الأدوار عليها .

ثم قامت الحرب العالمية الأولى في سنة ١٩١٤ فرغب كوكتو في التطوع، لكن طلبه رفض لعدم صلاحيته جسمانياً . لكنه يود أن يشارك في هذه للغامرة الكبرى فلجأ إلى حيلة غريبة هي أن يؤلف قافلة من العربات التي تجوب الجبهات للعناية بالجرحى على نحو ما يفعل الصليب الأحمر؛ وبفضل ابن اخت الجنرال كستلنو سمح لهذه القافلة بالعمل، وفي أثناء رحلاتها ناحية بحر الشمال استطاع كوكتو أن يتصل بفرقة الرماة البحرية وأن ينخرط فيها ويشارك في مغامراتها ومخاطرها . وبفضل هذه التجربة استطاع أن يكتب فيما بعد : «توما المحتال» . لكن أمره اكتشف حين أريد منحه صليب الحرب، فقبض عليه ولكنه غافل حراسه وهرب وصعد عربة الجنرال دواسل التي كان فيها رئيس أركان الحرب فركبها إلى دنكرك . لكن هذه الحادثة هي التي أنقذت حياة كوكتو، لأن جميع رفاقه في فرقة المشاة قد ذبحوا عن بكرة أبيهم في اليوم التالي أثناء هجوم .

وعاد كوكتو إلى باريس . وألحق مساعدا بالقسم الثاني والعشرين، ثم انتقل منه إلى قسم الدعاية، فبرم به، وهنا في هذه الفترة تعرف إلى رولان جارو الطيار البارع في الحركات الجوية البهلوانية .

وعن هذه التجربة نشأت قصائد «رأس الرجاء الصالح»، التي أهداها إلى الطيار رولان جارو، والتي ظهرت سنة ١٩١٩ .

في هذه القصائد تجديد في الصياغة ، وفي ترتيب السطور عند الطبع ، لكن
فيها ابتذالا وبرودة ، وهالك نموذج لها :

» جزيرة

الأعلى

أسير بكلمة الأرض
على ارتفاع أربعة أميال
عند لا متناهي العمق
طيارة طفولتك
خجاة تتخلص أنت بغير خيط
وأنت جالس عليها
أنت ، أي جارو ، بيدك يد الدب ،
حينئذ

تدلى على شيء ما
فأنحنى على حافة الهاوية
فأرى باريس على الأرض
ومدينتي متواضعة
على قدرها

مهجورة من الناس
ونهر السين فيها هزيل ذولو اليبس
وكلمة شاهدهته يتناقص
تزايد حبي الحزين

لأن من يبعد عما يحب
ليقتضى على حبه الحزين
ووجه من يحب
يعتزل ويتجرد
ويخفى الباقي
ويزداد بذلك عذاباً
أما من يصعد
فانه إن مال
وشاهد أما كن العالم البائسة
يخفض رأسه
ويتمنى أن يعود إلى سجنه . . .

لقد بدأ كوكتو يتخلى عن الشعر الكامل الحافل وتجاوز ما فعله أبولينير
من تجديد في قصائده التي بعنوان « كليجرام » .

ومن بين القصائد التي أوحى بها الحرب أيضاً قصيدة : « خطبة النوم
الكبير » ، التي قال عنها إنها « مترجمة عن تلك اللغة الميتة ، وعن ذلك البلد
الميت ، الذي فيه أصدقاء الموتى » ثم قصيدة : « وداعاً لرماء البحرية » .

ويحرر كوكتو في سنة ١٩١٦ في صحيفة « الكلمة » التي يصدرها جورج
أريب ، وينشر فيها رسوماً يهرها باسم كلبه « جم » . ويتردد على حي مونبارناس
ليلقي الشاعر أبولينير وماكس جاكوب وبول رفردي وبليز سندرار ، وكلهم
من شعراء الطليعة المجددين المغربين . ويتعرف إلى الرسام الشهير بابلويكاسو
ويكون ذلك بداية صداقة وثيقة طويلة المدى ، كان لها تأثير بالغ في تطور
كوكتو الفني . ذلك أن ما أدهش كوكتو في لوحات بيكاسو هو أنها تنطوي

على ثلاث مراتب تنطبع بعضها على بعض : الدقة ، والنصاعة ، والسيطرة ؛
« وفهم رسم بيكاسو هو جعل الأرقام ذوات أجساد » .

وكانت أول ثمرة لهذه الصداقة بين بيكاسو وكوكتو أن ألفا معاً مرقصة
(باليه) ليقدمها دياجيليف عنوانها : « استعراض » . فنفذ بيكاسو الماكيئات
واستعان بالمستقبلين الإيطاليين في صنع شخصوس المديرين ، وتحيل الصينيين
والبهلوانات والبنات الأمريكية الصغيرة .

أما كوكتو فاخترع حركات الرقص (الكورجرافيا) مبتدئاً من حركات
واقعية معتادة مالبث أن حورها وأصلحها لتتلاءم مع الرقص .

وعرضت مرقصة « استعراض » في مسرح الشاتليه بباريس ، فأثارت
فضيحة كبرى ، إذ أفرغت المحافظين التقليديين ، وهدد الجمهور المؤلفين ،
ومنذ هذا الوقت بدأت سلسلة الفضائح الفنية التي يثيرها كوكتو بتجديداته
— أو « تجديفاته » في نظر المحافظين — حتى قال : « منذ ذلك الوقت وأنا لم
أعد أعرف عن نفسي غير الفضائح ، والشهرة بالفضائح ، وحفظ وسوء
حفظ الفضائح » .

والواقع أنه بهذه للرقصة (الباليه) بدأ عصر الصراع من أجل ما يسمى
باسم « الفن الحديث » في الباليه والرسم .

وفي حلبة هذا الصراع كتب كوكتو رسالة في النقد بعنوان : « الديك
والمهرج » ، تعد من أهم الرسائل في النقد وعلم الجمال .

جان كوكتو

الشاعر

— ١ —

كل ما مسه إذن كوكتو شعر ، أياً كان نوعه الأدبي .

وكانت أولى مجموعاته الشعرية هي « أوبرا » (١٩٢٥ - ١٩٢٧) التي تعد من روائع أعماله . ولما ظهرت - والعنوان مأخوذ من المعنى الاشتقاقى للفظ ، أى : « أفعال » ، والشعر في معناه الاشتقاقى هو « الفعل » - تلقاها بعض النقاد بالتهليل الكبير لأنها في نظرهم أول كتاب في « الشعر المحض » ظهر منذ سنوات في فرنسا ، « إنها تقدم إلينا ذلك الجانب الحقيقى من المطلق الذى نحن نتحرق شوقاً إليه . . . وفى تأليفها نفسه هي صعود . وقصائدها الأولى ، الحافلة بالتجارب اللامتناهية التنوع ، تهيب النفس للقاء العظيم مع « الملاك هرتيز » الذى يرسم مباشرة مراحل سقوط جديد لشاؤول » (أندريه فرنيو : « كوكتو بنفسه » ص ٥٣ - ٥٤ ، باريس سنة ١٩٦١) ، « وهى نص محير يشرد بالنفس فيه يجرب الشاعر للاستعمال الباطن ألفاظاً عينية موضوعية خالصة . » (روجيه لان : « جان كوكتو » ص ٤٩ ، باريس سنة ١٩٦٢) .

ومن أشهر قصائده هذه المجموعة قصيدة عنوانها : « الملاك هرتيز » - والاسم قد وجده الشاعر على لوحة مصعد كهربى . وهذا الملاك « قوة خالصة ، ونار من السماء ، وليس مجرد ملاك حارس ، بل هو الإلهام الخاضع لنظام ملوى وقد غزا نفس الشاعر فأحرقها بلهب العبقريّة » (فرنيو ، فى

الموضع نفسه ص ٥٣) . وصياغة هذه القصيدة صياغة فريدة : فالكلمات تتلاحق دون أن تتداخل معانيها بوضوح ، والصفات تلتصق بالأسماء دون أن يكون من المألوف اقترانها . إنما هي رموز وإشارات لا تعطى معناها إلا بالإيجاء المتواصل .

وهذه هي القصيدة كاملة :

(١) الملاك هرتبيز

بجناحه الحريرى المتموج
يضربنى على الدرج وينعش ذاكرتى
هذا الوجد ، وحده ، بغير حراك
معى فى العقيق اليمانى
الذى يحطم أيها الحمار
برذعتك العلوية

(٢) الملاك هرتبيز

بقسوة هائلة انقض على
رحماك لا تنقض بكل هذه القوة
أيها الشاب المتوحش
يا زهرة ذات قوام فارغ
لقد ألزمنى ذلك الفراش
وتلك أمور عجيبة ، إن معى ورقة الحظ - شاهد
فهل عندك مثلها ؟



(٣) الملاك هرتبيز يدفعنى

وأنت أيها الملك يسوع الرحمة
أنت ترفعنى وتسحبنى حتى الزاوية

— ٩٠ —

القائمة لكبتيك الحادتين
أنت لذة صفو . أيها الإيهام
حل الحبل ، فاني أموت

(٤) للملاك هرتبيز والملاك سيجست Cégeste

الذى قتل في الحرب - ياله من اسم رهيب -
يلعبان دور المفزعات
التي بحركة « لا » تخيف
كرز شجرة الكرز الساوية
تحت باب الكنيسة
التي ألفت إشارة « نعم »

(٥) أيها الملاك هرتبيز ، يا ملاكى الحارس

أنى أمسك بك ، وأصدمك
وأحطمك ، وأغير
محطتك وأوقاتك
احترس ، أيها الصيف ! أتحداك
ان كنت رجلا . اعترف
يا ملاكا من الاسفيداج ، ان جمالك
قد التقط بالتصوير الشمسى
في انفجار من المغنسيوم

(٦) أيها الملاك هرتبيز ، بثوب من الماء

أيها الملاك الحبيب ، اللطف
يؤلمنى . أن ألى فى الله شديد

إنه يعذبني
 فى نفسى الشيطان سلحفاة
 حيوان كان من قبل رخيا
 تعال ، اخرج من العقيق اليماني
 أيها الدخان الجاسي ، أيتها السرعة القاتلة
 على نعالك للناسية تنعكس
 صرآة المرضى
 الجدران
 الجدران
 ذات آذان
 والمرايا
 لها عيون العاشق

(٧) أيها الملاك هرتيز فض !
 يا لب الطائفة المصنوعة من البلسان وقاش الألبستر .
 حان الوقت . لا بد بعد من النزول
 لنجدتي ، الرأس أولا ، خلال الزجاج الصافي
 زجاج العيون ، والخلاء ، والجزيرة
 التي فيها تغني الموقد . أخرج سيفك
 تعال ببطة ، أيها النجم المجنون .
 ليت لي جسمك ! آه !
 لو كانت لنا أوراكك
 المتدثرة بالحجر .
 يا أيها الحيوان الشرير

المخلوق من فضل الرحمن

(٨) الملاك هرتيز ، ذو القدمين الشبهتين بقدم الحيوان

بلون السماء الزرقاء ، قد جاء . إني وحدي

عار بغير حواء ، وبغير شوارب

وبغير خريطة

نحل سليمان

يتباعد ، لأنني آكل عسلي أكلًا سيئًا جدًا

عسلي المستخرج من السعتر المر

عسلي من إقليم الأنض Andes

في أسفل ، يكتب البحر في هذا الصباح

يكتب ويعيد كتابة الفعل « أحب » مائة مرة

وملائكة من القطن المندوف ، لا حياء لهم ، قدرون

على العشب يجلبون ضروع

الأبقار الجغرافية الكبيرة

(٩) أيها الملاك هرتيز ، إني أنتصر :

الغضب ، والرقم ١٣

يمزحان بعكس الوبر

حريرك الأبيض المتموج

وتنفخ أشرعتك

على نحو جديد كل الجدة

أيها الدروس ، أنت لم تعجبيني أبدًا

لقد تعلمت بأي ثمن

قروع نهر الواز Oise

واسم فروع الشجر

وخمائيل شهر أيار

يا مربى الطيور ، إنك تضيع الفئات

أولى بك أن تروض التماثيل

إنها أصدقاء الطيور . . .

والمرمر ذو تأثير شديد

(١٠) أيها الملك هرتيز ، رتل : «السلام عليك يا مريم !»

قدم على السلحفاة ، والأخرى

على الجناح ، هذا تلاعب

بالريشة وقنبلة المدفع

لقد ارتكبت أغلاطا ، أنا أسلم بهذا : أعجب كلانا بالآخر

بعد الصوم . أيها الملك هرتيز ،

إن الأرض - ونصفها شمس ونصفها ظل -

أشبهه ما تكون

بفهد الغابة . أليس كذلك ؟

إذن ، أنا واثق من هذا وأمرك

بالسكوت .

إن في منقارك دما ، يا صديقي الشاب

(١١) الملك هرتيز ، في شارع أنجو Anjou

يوم الأحد يلعب بخطوات متعثرة

على السقف ، يعرج بالحجلة

بقدم ملتوية ، يتطاير كالمعق
أو الشحرور ، وخداه ملتبان .
انتبه ، خاطبني بخطاب الألفة
أى هرتيز ، أيها المخلع
أننا نراقب عن يمين
استر لآليك ، ومقصك
ينبغي ألا تقتل أنت ،
فلو قتلت أنت كل شهر
قتلت أنا ولم تقتل أنت
ملاك أنت أو نار ؟
فات الأوان وفي خديك نيران
هوى صريعا لجند الله بالنار

(١٢) كان موت الملاك هرتيز

موت الملاك ، وموت هرتيز
كان موت ملاك
موت الملاك هرتيز

سر بدل
« آس » ينقص اللعبة
جريمة يطوقها العسلوج
جنن كروم القمر
نشيد البلشون الذي يعرض
لقد حل محله ملاك آخر
لم أكن أعرف بالأمس اسمه

وفي اللحظة الأخيرة عرفت أن اسمه : « سيجست » Cégeste

(١٣) أي هرتبيز ، أي بلشوفى ، افتح

مخباك غير الأمين .

ورقة غيب موضوعة على النفس الفاجرة

إني أشتريك باسم متحف اللوفر

شاءت أمريكا أو لم تشأ

(١٤) أي هرتبيز ! لا تبعد عن نفسى بعد

إنى موافق

اعمل ما يجب أيها الجمال

ما أقبح السعادة التى ننشدها

وما أجمل الشقاء الذى حل بنا

شعر الملاك هرتبيز صولجانٌ خُلّ ثقيل

خطر على ماء اللبن

صندوق خادمة فى المحطة

فى مواجهة ذلك الحيوان الأنيق

على الخريطة المتحركة : مقبرتى

فى الجزيرة ذات الأصابع المنفرجة

إن الشتاء يدثرنا بالسبعة

(١٥) أيها الملاك هرتبيز ، إن الفراشات تصفق

بأ كفها برخاوة رغم الغمام

صامات القلب وأذيناته

زهرة الأورطى ،
والأنثاسيت إعصار الجهات الأصلية .
حبال الليل
القمر ينصت لدى الأبواب .
ليس للوردة صمر
لها للمناكير والتقفازات
والجرائد تذكرها
مع البهلوانات
الذين يتباد لهم الليل والنهار
بغير حب

(١٦) محضر

فى ليل . . . الرصيف . . . للملائكة :
هرتيز ، والزفير ، والأحد ، وسيجست
بعد أن كانوا . . . صاروا من جنس الأناث
سيظهر . . . رغم الساعة . . .
لقد رأوا . . . نورا منتشراً . . . الحمار .
تظاهر . . . جناح . . . بالكم الحديدى . . .
على القم . . . قسوة الإشارة
ولما اقتيدوا إلى « القسم »
رفضوا طبعاً أن يعترفوا .

تلك هى قصيدة « الملك هرتيز » التى تبارى النقاد فى فهم ألغازها ،
وتفسير غرائب صياغتها ، وستبدو - طبعاً - للقارئ العربى مجرد رصف
ألفاظ غريبة لأممى لها ، وتكاد ، أن تكون لونا من الكتابة الاوتوماتيكية ،

أى سيلا من الألفاظ الشاردة المنثالة على النفس فى غير ارتباط ولا منطق ولا ترتيب . ولا بد للمرء أن يعتاد هذا اللون من الشعر حتى يدرك مداه ومقصد أصحابه . إنه شبيه بتعزيّيات الجن ، ولا عجب ، فإن كوكتو يريد هنا أن يقوم بما يقوم به الساحر من طرد الشيطان - أو الملاك فالمعنى هنا عنده واحد - الذى استولى على نفسه . لقد ركه العفريت « هرتبيز » فصنع من نفسه « كودية » لتخلص نفسه من هذا العفريت !

لكن أنصار هذا الشعر ، وإن استعملوا هذه العبارات فى وصفه : « التعزيم » و « طرد الجن » فإنهم يرون أن مهمة الشاعر فى مثل هذا الموقف هى أن يخلق جوا مستسراً غريباً بهذه الألفاظ أو « التعزيّيات » حتى تحاط بأسرار الغموض وظلمات القشعريرة المثيرة التى تهزكيان النفس ، وذلك لأنهم يعتقدون أن هذه هى مهمة الشعر فى هذا العصر . فكما اطرّح الرسم كل تصوير فوتوغرافى ، كذلك ينبغى على الشعر أن يطرّح التصوير الفوتوغرافى للعواطف والأشخاص ، ولا سبيل إلى هذا إلا باصطناع لغة تنحصر مهمتها فى خلق هذا الجو الغريب الموحى ، بغض النظر عن المعنى المنطقي للعبارة .

أما الذين لا يؤمنون بدعواهم هذه فلا يرون فى مثل هذا الشعر غير مجرد هذيان . على أن كوكتو قد أحس من نفسه بهذا الاعتراض ، وأحس بأن المضى فى مثل هذا « الهذيان » ليس من طبعه ، فصاح فى قصيدة أخرى :

« إلهى ! انى لم أطمع على الهذيان » .

ولهذا نراه ينصرف عما قليل عن هذا الاتجاه ، كما نجد ذلك فى سائر قصائده هذه المجموعة نفسها .

نعم إن القصيدة التى عنوانها « بنفسه » (سنة ١٩٢٧) لا تزال ترن فيها
(٧٢ - الأدب الاوروبى)

- ٩٨ -

أصداء هذا الاتجاه ، لكنه بدأ فيها أيضاً يتجه إلى « اليونان » بمثلها العليا في الوضوح والنصاعة ويكاد فيها أن يكفر عما اقترفه من انحراف عن الوضوح والنصاعة والمنطق .

لكنه ابتداء من سنة ١٩٣١ بقصيدة « ابحث عن ابولون » أخذ في التزام عمود الشعر ذي الوزن الطويل الفخم والمعاني الرائعة والعبارات المنطقية ، وإن كانت الأوصاف تقتن اقترانات غير مألوفة ، ولكن هذا أمر في طبع كوكتو المحدد دائماً العازف عن كل مطروق وتقليدى .

- ٢ -

أخذ كوكتو ينصرف عن التجارب الشعرية الثورية التي رأينا نموذجاً لها في قصيدة « الملاك هرتيز » ، ويعود إلى الصياغة التقليدية الحافلة الوزن الحريصة على القافية الرنانة المليئة بالمعاني ، ولكن الروح العامه لشعره الجديد استمرت هي هي ، وإلا لما كان كوكتو هو كوكتو « الولد العفريت في هذا العصر » .

وتمثل هذه المرحلة الجديدة مجموعة عنوانها « رموز » ظهرت سنة ١٩٤١ ، وخير قصائدها قصيدة رهيبة عنوانها « الحريق » نظمها سنة ١٩٣٨ وتمثل فيها الكارثة الرهيبة التي بسبيل أن تنقذ على الإنسانية ونعني بها الحرب العالمية الثانية . ولهذا حفلت هذه القصيدة بالرؤى والتهاويل المروعة التي ستحدثها القوى المدمرة الشريرة التي تجمعت واحتشدت ، واستوفزت استعداداً لفتح باب الجحيم على الإنسانية كلها ، والرؤى فيها تكاد أن تكون سلسلة من تهاويل الماشى في نومه المستغرق في الكوابيس .

لقد عاش كوكتو كما ذكرنا تجربة الحرب العالمية الأولى ، لكنها كانت بالنسبة إليه آنذاك وهو في العشرينات من عمره ، مغامرة مثيرة تستهويه شاباً طليعةً يحب المغامرات والأمور المثيرة . أما الرؤى التي يتمثلها هذه المرة ، وقد قارب على الخمسين ، فرؤى تروع ضميره وتهز أعماق كيانه اشفاقاً على الإنسانية. قال :

« هنالك بدأ الحريق
شبيهاً بالآلاف من الملائكة الغضاب ،
يرسلون شعورهم وقبضات أيديهم في الهواء
صارخين بصوت كثيب : لطالما قلت هذا
« لطالما قلت هذا » - هكذا صاحت التوايب القاسية
متحركة غير متسكافة ورءوسها عالية
وفي الأسفل غاص في بالوعة قبر كل بطنٍ مفتوحةٍ
أورغنُ الأحشاء الدنس
وفي هذه العقد اللزجة الملتوية
جعلت الأقدام الشاحبة من الخوف مثل حواء
جعلت النار تمسك رجال الإطفاء جسماً بجسم
وقد جاءوا على عربة حمراء تلتهمها الحمى .
ورجال الإطفاء بخوذاتهم الذهبية
وثبوا من مخادعهم العالية
هبوا من النوم وكانوا جالسين واقفين وأيديهم متقاطعة
والآن هددت غابة من شرابة الراعى الاسماء المعبودة
المرقومة على اعلاناتنا
هددت الأسماء والفنانين الأشباح

—١٠٠—

الذين يلعبون اليوم أدوار الأمس
 وخنق الموت بعقد اللبلاب
 القلة القليلة من الهاربين على منحدرات القش ..
 والملائكة الشعب لووا أذرعهم
 وصاح الصائح فيهم : تخلوا عن وجوهكم !
 (لأن أكثرهم لم تعد لهم وجوه إنسانية)
 سكنهم حسبوا السلام قفصاً .
 وشرابة الراعى والملائكة والذهب
 كانت تؤلف شيئاً واحداً تتخلله دفقات الماء .
 والليل تحت كهربائه الأسود
 كان يستمتع بكونه بطل المساة .
 وكان لا يزال في المدينة أشجار الخريف
 والصحف وحدها هي التي أضاعت أوراقها الدرامية
 وبين الفينة والفينة كان لابد أن تتوقع
 انهيار العالم القديم البديع .
 كان ذلك مساء حافلا بين الأمسية كلها .
 المدينة ميتة ، ونافذة الليل حافلة ؛
 وبالتقرب من معبد « المادلين » الصامت
 جلست فقيرة لا ترى وينبعث منها السعال .
 والجغرافيا المروعة
 حركت أعضائها المشتتة كأنها أعضاء نائم ::
 وأنا أفكر في هذه الأسفار أو تلك

هذه الأسفار التي من أجلها تلد الأمهات الأولاد - أليس كذلك ؟
 النوم ؟ إلى أراقب لعبة الأوزة الرهيبة
 التي يجب العود إليها برأس ميت .
 قديما كان سحب القرعة على المطلوبين للتجنيد
 يلف الورق كما يلف جناح الفريسة .
 متى الكارثة الهائلة ؟ غدا ، أو بعد غد ؟
 الشهيد الشاب يرقد مطبقاً كفيه
 أيها الآباء المساكين ! إن الملاك يسهر ،
 بأجنحته وظهر من زجاج وجبس ، على موتاكم الأعزاء . »

لقد كتب كوكتو هذه القصيدة في سبتمبر سنة ١٩٣٨ ، أي بعد انعقاد
 مؤتمر ميونيخ الذي اجتمع فيه زعماء العالم آنذاك : هتلر وموسوليني
 وتشمبرلن ودالاديه ، لإنقاذ السلام المهدد . لكن نذر الحرب تعلن بكل
 يقين أن كل هدنة فهي لأجل قريب ولن تلبث الحرب أن تندلع . فرجال
 الإطفاء الأربعة هؤلاء لن يستطيعوا أكثر من أن يؤجلوا الاندلاع اللهب ،
 لأن أخشاب النار معدة ، والنار عتيقة ، ولم يبق إلا تقريب هذه من تلك .
 إنهم كالملائكة الشعث الشعور لكن من الواضح أنهم غير مخلصين ، وجوهم
 كاذبة وعليهم أن يتخلوا عن وجوهم هذه المناقفة إن كانوا يريدون إلى
 السلام حقاً . لكن هيئات هيئات ! فمعظم هؤلاء - ولو أنصف لقال :
 كل هؤلاء - لم تعد لهم وجوه إنسانية . ثم إن الليل - ليل الأكاذيب
 والرغبة في السيطرة والسيادة والنزعة إلى التحكم والتسلط - قد أصبح هو بطل
 المأساة . وعلى الناس أن يتوقعوا بين لحظة وأخرى انهيار العالم القديم ،
 العالم العذب البديع .

هنالك ستتحرك الجغرافيا - أي حدود الدول - أعضاءها لتزحف هاهنا

وهاهناك على الدول المجاورة أو البعيدة . وهناك يدفع الشباب إلى جهات القتال يشيعهم أمهاتهم اللواتي كأنهن لم يلدن إلا ليذهبوا إلى مذبج الحرب الرهبة لئذبحوا ذبحاً .

وكيف ينال المرء جفن وهو يرى لعبة الأوزة - وخطوة الأوزة تمثل المشية العسكرية - وقد اضطر الشباب إلى الدخول فيها ورؤوسهم على كف الموت !

ثم يتابع الشاعر رؤياه فيقول :
 « رفع الحريق راياته ورماحه
 بينما الطفل المسكين الراقد
 يسكن الصمت بسذاجة
 يسكن الخلاء الذى عنده يفترق الصحاب
 الأسلحة مشرعة وجها لوجه
 تزبئر منها شجرة النسب التى من حديد .
 وهى تمون شمعدان الدموع
 التى تجرى من البحر أنهارها المالحه ؛
 وتساعد حتى العيون ، حتى الأغشية المخاطية
 وحتى مروحة الممثلات الساخرات
 وحتى الأهذاب المحملة بالصواعق واللال
 التى تصنع النظرة مثل فراشة الليل » .

ويتابع الشاعر هذه الصورة الرهبة لما ستجره الحرب من ويلات لن ينجو منها أحد ، ولا « الممثلات الساخرات » ولا « الأهذاب المحملة

بالصواعق والملال ، أهذاب الغانيات والنسوة الناعمات ثم يتساءل :

« أسائل النفس لماذا أغنى
 غناء بلشون مريض يحتضر احتضاراً رائعاً .
 لعل في نفسى أملاً يداعبني
 أملاً في أن ينحرف الحظ ليخدمنى .
 إلى هذا الحد يذهب عجب الشاعر بنفسه
 وما دامت النار في كل مكان من الشرق إلى الغرب
 تشتعل ، وتشتعل وفي الأسفل تخضب الجاسوسات
 فلماذا يموت مجدى ؟
 أيها الحريق ، شبك مناضليك المدلهين .
 الذين يقذفون بالألسنة والشعور . . .
 ويشوهون على طول عقود البوابة
 الاشكال قبل أن تكون على هذه الحال التي هي عليها .
 إنهم عنيدون في القتال بعضهم لبعض ،
 يتناولون ويتعاقون ،
 يتلاعقون وأحياناً يتمرغ بعضهم في بعض
 ويصبحون فجأة رماداً وجدوة .
 أى تشنجات ووثبات وبطون عصبية !
 أى ليال كلية فالبورج ! أى خليط غريب !
 وهم يلمعون تحت أضواء المشاعل ذات الشعور الطويلة
 تحت الراية التي تصطفق أهداها » .

ولسنا بحاجة إلى أن ننبه القارئ إلى تزامم الصور في هذه القصيدة الفريدة ، الصور العينية اللافتة : « شمعدان الدموع التي تجرى من البحر أنهارها المالحة » ، « الأهداب . . التي تصفع النظرة مثل فراشة الليل » ، « شجرة النسب التي هي من حديد » (شجرة الأسلحة المصنوعة من حديد والتي كأنما تمثل شجرة نسب) الخ . . وهذه الصور العينية المتوالية هي التي تميز الشعر الحديث كما أشرنا إلى هذا في كلامنا عن الشاعر سانت جون برس والتي بها يمكن الشعر العربي المعاصر أن يساير ركب تطور الشعر في العالم .

ويكفيها هذا القدر من هذه القصيدة ، ولننتقل إلى قصيدة أخرى تعد أروع ما كتبه كوكتو ، وهي قصيدة « ليونه » (اسم المرأة) ، وتشتمل على ٥٩٨ بيتا من الشعر الطويل المقسم إلى ١٢٠ مقطوعة ، وقد نظمها بين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٤ أي أبان الاحتلال الألماني لفرنسا . وفيها يصور مخلوقة خارقة دعاها باسم « ليونه » (مؤنت ليون) وجعلها تتجول في باريس الراقدة تحت نير الاحتلال الألماني ، ثم يرتفع بها إلى عالم الأفلاك حيث تتحارب الكواكب . وكما قال أندريه فرنيو (« كوكتو بنفسه » ، ص ٩٨) « تبرهن ليونه على تعدد مواهب جان كوكتو الصورية ، فهو كما قال قادر على أن يتغنى بعشرين طريقة ويظل مع ذلك أمينا على دقة تعبيره » .

ولا نستطيع هنا أن نقدم ترجمة لها ، ولا لأهم فقراتها ، نظرا لطولها . لكننا نكتفي ببعض الصور الطريفة :

« زحقت ليونه حتى الفجر البالغ

لقد كانت قد ماها بارعتين في المشي على الليل

لأن ليونه كانت تمشي حتى على الليل

وكان الحلم في ذاتي كما كانت ليون في حلمها...
 كانت تمشي على شاطئ أهذاب الندى
 وكانت هذه منها مغامرة مروعة
 لانه عند رصيف الميناء والنقط الأصلية
 كان جنود الصبح ساهرين على الأسوار
 والتماثيل التائهة على (بحر) العصور
 كانت تحمل عَمَّ هياكلها الخفيف
 والتاريخ يرسم صلبانا على المنازل .

وهكذا تكثر الأوصاف الغريبة والتشبيهات الطريقة التي لا تكاد
 تخطر على البال ، ولكنهما مع ذلك خالية من المغالطة الذهنية التي تقصد الرؤية
 الشعرية ، بل كلها مفهومة أو قابلة للفهم الواضح ، وهذا أعلى ما ينشده الشاعر:
 إفراط في طرافة الصور مع وضوح الرؤية الشعرية في وقت واحد .

ولا يسعنا في ختام هذا الفصل عن كوكتو الشاعر إلا أن نشير إلى قصيدة
 أخرى ، ألفها سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦ بعنوان «الصلب» ، وتمتاز بغرابة تركيبها
 وكثرة الجناس بين ألفاظها ، والسجع الوافر في داخل الأبيات نفسها ،
 وتجزئتها على ترتيب تتوزع فيه الجملة الواحدة على عدة سطور ، مع خلو من
 القافية ، لأن الإيقاع نفسه حافل بالنقفة خصوصاً بفضل الجناس الداخلي
 والأسجاع في داخل الأبيات . ولا سبيل أبداً إلى إعطاء فكرة عنها
 بالترجمة ، لأنها لا تقبل الترجمة إلى لغة أخرى ، وكل ترجمة ستفقد
 كل صنعها .

كوكتو الناقد

ألف إذن كوكتو كتاباً صغيراً في النقد الفني وعلم الجمال عنوانه « الديك والمهرج » حينما ثار الجدل حول للموسيقى الجديدة التي كان رائدها أريك ساسي وجماعته الستة وهم : السيدة جرمين تيفير ، وجورج أوريك ، ولوى دوريه ، وأرتور هونجر ، ودريوس ، مليو وفرنيس بولانك ، وقد اشتهر منهم خصوصاً هونجر ، ودريوس ، مليو ، وخلاصة موقف أريك ساسي (١٨٦٦ - ١٩٢٥) أنه عارض في المبالغة في الاعتماد على السلم للملون ، وطالب بالتبسيط في اللحن والتوافق ودعا إلى ثنائية الأنغام وزيادة الحركة واستعمال الغرائب والإفادة من موسيقى « الجاز » . ولكن هذه الجماعة السادسة سرعان ما تفرق شملها ؛ وبرز من بين أعضائها موسيقيان عظيمان هما داريوس مليو (المولود سنة ١٨٩٢) ثم أرتور هونجر (١٨٩٢ - ١٩٥٥) . وأولهما وهو مليو متعدد الآفاق واسع الابتكار ، إذ شمل تأليفه كل ميادين الموسيقى ، فقد كتب حتى الآن خمس سمفونيات وعديداً من « المتتابعات » التي اشتهرت خصوصاً في حفلات الموسيقى ، ومن أشهرها متتابعة رقص تسمى « متتابعات البرازيل » (سنة ١٩١٩) وتقوم على أساس رقصات شعبية برازيلية ، و « المتتابعة البروفنصالية » (سنة ١٩٣٦) ، و « المتتابعة الفرنسية » (سنة ١٩٤٦) . وشكل هذه المتتابعة واضح ، والجل الموسيقية فيها موزعة . والألحان مستمدة من الأغاني والرقصات الشعبية . وقد برع مليو خصوصاً في الألحان المزدوجة أي توالى لحنين في أصناف من النغم مختلفة ، وينجم عن ذلك قسوة في التوافق وخشونة . - أما هونجر فكان أكثر ثورة من مليو ، حتى تجاوز استرافنسكي . ولما ألف « الباسفيك رقم ٢٣١ » أحدث ضجة كبرى ، فقد قدم فيها أوج الموسيقى الآلية ، ومجد السرعة التي امتازت.

بها آلات هذا العصر . ثم جاء في « الملك داود » (سنة ١٩٢١) فقدم لنا ' مزموراً سخفونياً فى ثلاثة أجزاء ، نجح نجاحاً أرسخ من « الباسفيك . رقم ٢٣١ » .

هذه الموسيقى الجديدة راح يدعو لها ويدافع عنها جان كوكتو وهو المولع بكل تجديد ثورى فى الفن ، فقدم لنا هذه « العقيدة الجمالية » تحت عنوان « الديك والمهرج » وقد صاغه على شكل جل قصار كأنها قواعد الفن الجديد . ونبدأ فنقدم مجموعة من هذه الجمل :

- * الفن هو العلم مجسدا .
- * الموسيقىار يفتح القفص للأرقام ، والرسام يحرق الهندسة .
- * العمل الفنى ينبغى أن يرضى كل آلهات الفن التسع . وهذا ما أدعوه . باسم : البرهان بالتسع .
- * الرائعة الفنية دور شطرنج ينتهى بتمويت الملك .
- * ينبغى على الشاب ألا يشتري قىما مؤكدة .
- * اللياقة فى الجسارة هى أن يعرف الفنان إلى أى مدى يستطيع أن يذهب . بعيداً جداً .
- * هناك بيت ومصباح وحساء ونار وخمر وغليون...خلف كل عمل فنى مهم عندنا (فى فرنسا) .
- * الغريزة تتطلب الترويض بواسطة المنهج ، لكن الغريزة وحدها تساعدنا على اكتشاف منهج خاص بنا بفضله يمكننا ترويض غريزتنا .
- * البلبل يغنى غناء رديئاً .

* من بين الكوميديين من هم سحرة ، وهذا يهيجنا ، لكننا لا نفرطهم ذلك إلا إذا أنجزوا اللعبة : فأن يضع المرء أرنبا في قبة فيخرج منها أقفاص ، هذا جيد ، لكن أن يضع المرء أرنبا فيخرج أرنب .. أيحق لهذا الساحر أن يدعى لنفسه أنه شاعر ؟

* إن الفنان يمكنه ، وهو ينحس ، أن يفتح بابا سرياً دون أن يفهم أبداً أن هذا الباب يستر عالماً .

* لو عد إنسان أباً لمدرسة في الفن ، لأنه هو الذي عمل على إيجادها ، ثم جاء يوماً وهز كتفيه وأتكرها ، فإن هذا لا يغض من شأن هذه المدرسة .
* إن الينبوع يستنكر دائماً تقريباً للجرى الذي يتخذة النهر النابع منه .
* الفنان هو الغنى حقا . إنه يسير بسيارة ، والجمهور يتبعه في أومنيبوس .
فأى عجب إذن في كون الجمهور لا يتابع الفنان إلا عن مسافة وبعد !

* حينما يبدو أن العمل الفني سابق على عصره ، فعنى هذا ببساطة أن عصره متأخر عنه .

* الفنان لا يقفز الدرجات ، فإن قفز فلهذه مضیعة للوقت ، لأنه يجب عليه أن يعود فيصعداها .

* الفنان الذي يتراجع لا يخون أحداً غير نفسه .

* الانفعال الناشئ عن عمل فني لا تكون له قيمة حقيقية إلا إذا كان غير ناشئ عن تهديد عاطفی .

* في الفن كل قيمة يبرهن عليها هي قيمة وضيعة .

* ينبغي أن يكون الفنان إنسانا في حياته ، وفنانا بعد وفاته .

* الحقيقة عارية جداً ، ولهذا لا تثير الناس .

* التلفيق هو موت الحب والظلم . وفي الفن العدالة نوع من الظلم .
* من الشاق الإنكار ، خصوصا إنكار الأعمال النبيلة . لكن كل تأكيد عميق يقتضى إنكاراً عميقاً .

* يتهوفن ممل حينما ينمى ، بعكس باخ ، لأن بيتهوفن ينمى الشكل ، أما باخ فينمى الفكرة . ولكن معظم الناس يعتقدون العكس .

بيتهوفن يقول : « هذا القلم الريشة فيه ريشة جديدة - إن في هذا القلم الريشة ريشة جديدة - جديدة هي ريشة هذا القلم الريشة » أو : « أيتها المركيزة ، عيناك الجميلتان . . »

أما باخ فيقول : « هذا القلم الريشة فيه ريشة جديدة لأغسها في الحبر وأكتب ، الخ » ، أو « أيتها المركيزة ، عيناك الجميلتان تقفلاني حبا ، وهذا الحب . . الخ » .

ذلك هو كل الاختلاف بينهما .

* يضطر المرء أحيانا إلى مساندة من لا يرضى عنه . فمثلا كيف لا يدافع للمرء عن اشتراوس ضد أولئك الذين يهاجمونه بسبب كراهيتهم للألمان ، أو يهاجمونه حبا في بوتشيني ؟ !

* بشرتنا جميعا حساسة لنعمات التسيجان (العجبر) وللمارشات العسكرية .

* للموسيقى الرديئة التي يحتقرها بعض النفوس الجميلة هي موسيقى لذيذة .
أما الشيء الكريه فهو موسيقاهم الجيدة .

* بعض الإعلانات تقول : احذر من الدهان (البويه) . وأنا أضيف : .

احذر من للموسيقى

* حذار لأن الموسيقى ، وحدها من بين سائر الفنون ، تدور حولك .

* ينبغي على الموسيقار أن يعالج للموسيقى من التوائها وحيلها وألاعيبها
وأن يلزمها قدر الإمكان أن تبقى في مواجهة السامع .

* الشاعر عنده دائماً أكثر مما يلزمه من الكلمات في كنز مفرداته ،
والرسام أكثر مما يلزمه من الألوان على لوح ألوانه ، والموسيقار أكثر مما
يلزمه من النغمات على مفتاح نغماته .

* في كل مبدع يوجد دائماً رجل وامرأة ، والمرأة دائماً تقريباً غير محتملة .
* الجميل يبدو سهلاً ، وهذا ما يزدريه الجمهور

* حتى حين تعيب لا تهتم إلا بالخاصية الأولى (للعمل الفني المنقود) .
* الحاكم يكون دائماً شاعراً رديئاً .

* ليس اللهم أن تطفو بخفة ، بل أن تختفي بثقل ناشراً أمواجاً خفيفة .
* نحن نغلق عيون الموتى برقة ، كذلك ينبغي أن نفتتح عيون
الأحياء برقة .

* شونبرج أستاذ ، وكل موسيقارينا واسترافنسكي يدينون له بشيء ،
لكن شونبرج هو خصوصاً موسيقار ذو سبورة سوداء .

* تقدير ساسي صعب ، لأن من بين مفاتيح ساسي أنه يقدم القليل
لإمكان تقديره .

* للموسقيون الثائرون قسموا الكثرى إلى إثني عشر جزءاً وأطلقوا
على كل جزء من هذه الأجزاء الأثني عشر عنوان قصيدة ، ولكن ساسي
ألف اثني عشرة قصيدة وعنوان الكل بعنوان : « قطع على شكل كثرى » .

* انحرف دبوسى لأنه بدلاً من السكين الألماني (فاجنر) وقع في السكين
الروسي ، فقد أصبح مشير الاستمرار (البدال) يذيب الإيقاع ، ويخلق

نوعاً من الجو الغامض الصالح للأذان الضعيفة . أما ساسى فقد ظل كاملاً ،
استمع مثلاً « الأقدام العاريات » ، وهى واضحة الخطوط حزينة ، لقد وزعها
« دبوسى » ، نخلط فيها ، وغطاها هى ومعمارها الرقيق بغمام ..

* دبوسى عزف بالفرنسية لكنه استعمل مشير الاستمرار الروسى

* نحن نؤوى ملاكاً نصدق به باستمراره ، والواجب علينا أن نكون حراساً
على هذا الملاك .

ونكتفى بهذه الجمل القصار التى عبر فيها كوكتو عن موقفه من الفن
بوجه عام ، والموسيقى بخاصة ، وواضح أنها تمتاز بالتجديد وأحياناً بالمفارقة
رغبة فى إثارة الدهشة ، وأن فيها دعوة إلى الثورة على ما أصبح كلاسيكياً فى
الفن والشعر ، وإلى محاولة التغيير باستمرار ، وإلى ترويض الحواس المتذوقة
فيما حتى لا تستكين إلى المألوف وترفض دائماً كل ما هو غير مألوف لأن
ذلك علامة انحلال وشيخوخة ، ولا بد من قبول التجارب الجديدة فى الفن ،
ومن تعاون مختلف الفنون على إيجاد الجديد فى الفن الواحد منها .

ولقد عاود كوكتو تقديم نظرياته فى النقد الفنى ، والأدبى بخاصة ، فى
كتاب صغير آخر بعنوان « سر المهنة » ، ظهر فى نفس المجموعه التى ضمت
« الديك والمهرج » وظهرت سنة ١٩٢٦ بعنوان : « الدعوة إلى التزام النظام »

وخلاصة رأيه فى هذا الكتاب : « سر المهنة » كما لخصه هو فى آخره هو
أن الشكل يجب أن يكون شكل الروح ، وليس كيفية التعبير عن الأشياء ،
بل كيفية التفكير فيها ؛

وأن الحاجة إلى التعبير علنا هى نوع من الإفراز الذى لا يبرره إلا كونه
ينشأ عندهنا منذ الميلاد ، ولا يمكن البرء منه ؛

وأنه ينبغي أن يتوافق المرء أو يترك ، فلا معنى لموقف مشاهد يجد
المسرحية غير معقولة ومع ذلك يبقى في القاعة ليستدق و يتظاهر ضدها
ويصفر ويمنع الآخرين من سماعها؛

وأن القليل جداً من الناس هم الذين ينتسبون إلى عصرهم لأنه لا محل لأن
يوجد رائد، ويكفى واحد من هؤلاء الرواد المزعومين ، أى واحد يعبر عن
العصر بالرغم من العصر ، كما يعرج العصر كله من ورائه وهو لا يدري ؛

وأن الحماقة والافتقار إلى الحساسة والشك الروحي تحمى بواكير بلد ما
بجهل قيمتها ؛ إنها بمثابة ثلاثة تحفظ فيها ثمارنا . أما كثرة حب الاستطلاع
والجد والتسامح والتساهل فيجعل الثمار تنقل من يد إلى يد فيزول عنها وبرها.

وأن الصراع ينعش الفنان ، أما طيبة الجمهور فتخدره ؛
وأنه لا مفر من وجود نوع من جنون العظمة عند الرجل الحر جدا الذي
لا ينتظر جزاء من أى نوع ؛

وأن الشاعر لا يشبه الموتى من حيث أنه يتجول غير منظور بين الأحياء
ولا يكادون يلحونه إلا غامضا وبعد وفاته ، أى حينما يتبدى الموتى على
هيئة أشباح ؛

وأن الشعر لا يعود واضحا بالنسبة إلى الجميع حين يصبح محدد
عند البعض ؛

وأن عدم التزام القافية والقواعد الثابتة ابتغاء قواعد أخرى وجدانية
يعود بنا إلى القاعدة الثابتة وإلى القافية بحرص جديد ، وأن الموسيقى والرسم
والنحت والمعمار والرقص والشعر والمسرح ، وربة الشعر التي سميتها

« السينما ، هذه الربة العاشرة » هي أحابيل بها يحاول الإنسان أن يقتنع
الشعر ابتغاء الانتفاع به .

إن الشعر في نظر كوكتو هو جماع الفنون ، وهو لهذا يصنف مؤلفاته
على اختلاف أنواعها تحت اسم الشعر : شعر القصة - شعر النقد - شعر
المسرح - شعر الرسم - شعر السينما ، ذلك أنه يرى أن الشعر يتناول
الموجود كله بكل نواحيه ، ويقتضى من الإنسان مسلكاً حيويًا جديدًا .

إن الشعر في نظر كوكتو حالة فزيائية وعقلية ، والشعر ليس فنياً من
القول بقدر ما هو فن في الوجود .

كلوديل و تأملاته في الشعر

لا يزال بعض الناس يذكرون مشكلة « الشعر المحض » التي أثارها القس بريمون في سنة ١٩٢٧ فانبرى النقاد يناقشون صحة دعواه .

وقد ظهر للشاعر الفرنسي الكبير بول كلوديل في شهر يوليو سنة ١٩٦٣ كتاب بعنوان « تأملات في الشعر » ضم رسالة كتبها آنذاك إلى القس بريمون، إلى جانب خمسة أبحاث جيدة تدور حول الشعر : مضمونه وموضوعه وصلته بالدين ، وفن النظم ، والشعر الحر .

ومن رأى القس بريمون أن الشعر عمل « للملكة الشعرية » ، والملكة الشعرية ذات صلة أوثق بالخيال والحساسة منها بالعقل والفكر ، وأنه يقوم على « الإلهام » .

أما كلوديل فيرى أنه لا شك في وجود « الملكة الشعرية » ، وصلتها الوثيقة بالخيال والحساسة ، ولكن ليس معنى هذا أنه ليس للعقل دور في الخلق الشعري ، إذ الشعر ثمرة الحاجة إلى الفعل ، إلى تحقيق الفكرة التي لدينا عن شيء ما: تحقيقها بواسطة الكلمات . ولهذا ينبغي أن تكون لدى الخيال فكرة واضحة قوية حادة ، وإن كانت في بدايتها ناقصة غامضة بالضرورة ، والفكرة أمر عقلي . وينبغي أيضاً أن تكون الحساسة في حال من الرغبة الملحة بالنسبة إلى هذا الشيء . « فالعمل الفني ثمرة تعاون الخيال مع الرغبة الملحة » .

أما « الإلهام » فيمكن أن يفهم - في نظر كلوديل - بثلاثة معان متباينة : الأول معنى عام يقترب من معنى الرسالة الطبيعية ، أو الموهبة ؛ والقدرة على

«ربط الخيال بالرغبة الملحة عن طريق ترتيب كلمات هي من الطبيعة . وبهذا المعنى يقال عن الشاعر إنه « ملهم » أو يوحى إليه ، وكأنه يأتيه من الخارج نفس يهب على مواهب كامنة فيوقظ النور الكامن فيها ، ويستخرج الثروة اللفظية المستترة فيها .



والمعنى الثانى للإلهام هو أن الشاعر يدفعه إلى القول نوع من الالتهياج الإيقاعى ، والتكرار والترجيع اللفظى والإشاد الموزون : فيفرك يديه ، ويمشى ذهاباً وجيئة ، ويرقم الميزان ، ويدندن بين أسنانه . وتحت تأثير هذا الدافع المنتظم ، وبين قطبي الخيال والرغبة الملحة يفيض جدول القول وتنشق الأفكار ، وتستيقظ كل الملكات وتتنبه ، وكل منها على استعداد لتقديم ما تستطيع تقديمه : من ذاكرة وتجربة ، وخيال ، وذوق ، وصبر ، وشجاعة ، ويتدخل العقل خصوصاً لينظر ويقول ويتساءل وينصح ويكبت ويهيج ويفصل ويدفع ويجمع ويوزع النظام والنور والتناسب . وليس العقل هو الذى يفعل ، بل هو الذى ينظر إلينا ونحن نفعل . ولفهم الإلهام بهذا المعنى ، يكفي أن ننظر إلى خطيب فى محفل وقد دفعه التصفيق أو أهاجه معارضة الحاضرين هنالك نجد الألفاظ تفيض منه كالسيل ، وتتدافع الأفكار والمعاني من فمه ، وفى الوقت نفسه يحاول بعقله ألا ينزلق وهو ينطق ، وحينما يعود إلى حالته الطبيعية يدهش هو نفسه من فصاحته . ومن هذا الانفعال لا يصدر الغموض ، بل أعلى درجات الوضوح .

« وبالجملـة فالشعر لا يمكن أن يوجد دون انفعال ، أو إن شئنا - دون حركة النفس تنظم حركة الكلام . فالقصيدة ليست عدة ساعة تنظم من الخارج ،

وإلا فلا يبقى إلا أن ننظم في الشطرنج أو لعبة البلياردو . وحتى العقل نفسه لا يقوم بوظيفته تماما إلا تحت دافع الرغبة الملحة .

ونتم معنى ثالث للإلهام ، أطف وأخفى من المعنيين السابقين . ذلك أننا في الحياة العادية لا نستعمل الكلمات من حيث هي « تدل » على الأشياء بل من حيث هي « تشير » إلى الأشياء ، أى من حيث تفيدنا عمليا في أخذها والانتفاع بها واستعمالها : فهي بمثابة إشارات موجزة كالعملة النقدية التي نستعين بها في شراء السلع وتبادلها . أما الشاعر فلا يستعمل الكلمات بنفس الطريقة هذه ، لأنه لا يستعملها لمنفعتها العملية ، بل من أجل أن يؤلف من هذه الأشياء الرنانة التي يضعها اللفظ في متناوله ، يؤلف لوحة مفهومة وممتعة في آن واحد . ويصبح أعدى أعداء الشاعر هذا الاستعمال الاعتيادي ، العلمي للألفاظ ، ومهمته حينئذ أن يسترد للألفاظ معانيها الدالة الخافلة الكاملة ، معانيها الأصلية التي كانت لها منذ أن علم الله آدم الأسماء كلها .

« وبهذا المعنى يقترب الشعر من الصلاة ، لأنه يستخلص من الأشياء جوهرها الخالص بوصفها مخلوقات خلقها الله وتشهد على الصانع الذي فطرها » .

* * *

ويماود كلوديل الحديث عن « الإلهام » في الفصل الذي عقده « مقدمة لقصيدة عن دانتة » فيقول إن الإلهام الشعري يتميز بموهبتي « الصورة » و « العدد » (أى الوزن) . فبالصورة يصبح الشاعر بمثابة رجل صعد إلى مكان مرتفع فأصبح الشاعر يشاهد من حوله أفقا أوسع فيه تتقرب بين الأشياء علاقات جديدة ، علاقات لا تتحدد بالمنطق أو بقانون العلية ، بل بارتباط منسجم لتسكون « معنى » . وبالعدد تتخلص اللغة من الظروف والملابسات ،

ومن المصادقات ، وينفذ المعنى إلى العقل بالأذن وهو حافل بما يلد النفس والجسم معا .

ويلج كلوديل في تأكيد أهمية العقل في الخلق الشعري . فبالعقل يصبح الشاعر قادرا على تكوين منظر محكم ، وعالم باطن تحكم أجزائه كلها علاقات عضوية ونسب لا تنحل عراها ، وذلك بالبحث المتواصل الجريء والتساؤل والامتحان المستمر لمواده الشعرية . فهذا من شأنه إحكام عالمه الشعري لأن الإلهام وحده لا يقدم غير صورة ناقصة ورؤيا غامضة ، ونداء خافت أو لفظ غامض مبهم .

لكن الشاعر لا يكون شاعراً خلاً إلا إذا كانت رؤياه الشعرية كلية ، جامعة . تخلق الشاعر ينبغي أن يكون صورة ونظرة في الخلق كله .



وموضوع الشعر ليس - كما يقال عادة - الأحلام والأوهام أو الأفكار ، بل موضوعه هو تلك الحقيقة الواقعية المقدسة المعطاة لنا جملة واحدة والتي نحن نوجد في مركزها . نعم ، موضوع الشعر هو عالم الأشياء المستورة غير المرئية ، وهو عالم المرئيات التي تحيط بنا ونشاهدها وهي تشاهدنا (ص ١٤٥) .

والموضوعات الكبرى التي تناولها الشعر في القرن الماضي أهمها : التمرد . وطالما وجد في العالم ظلم فسيظل التمرد شعوراً عميقاً ذا صدى واسع في النفوس الإنسانية . والشعور بالتمرد شعور طبيعي مشروع تماماً ، لأنه من حق الإنسان أن يقول شيئاً يدافع به عن نفسه حين يلحق به أذى أو اعتداء . وفي سفر « أيوب » (من التوراة) نجد أيوب يصرخ إلى الرب مما وقع عليه من ظلم لا يستحقه ، وحينما يحاول أصدقاؤه أن يققوه ويكفوه عن الاستمرار

في الشكاة ، يقول الرب القدير : أنتم حتى ، دعوا الإنسان يعرض قضيته كما يريد . ولهذا كان خير الشعر في القرن التاسع عشر هو شعر التمرد . لكن التمرد ينطوى على بعض المآخذ الفنية ، لأنه لا يفضى إلى شيء ، بل هو يدعك تماما عند النقطة التي كنت فيها عند البداية . فهو عبث ، ولهذا كان مملا في النهاية . إنه يحرضنا على الفارغ . ثم إن أجود الموضوعات الشعرية هي تلك التي تؤلف ، أي تلك التي تحتاج إلى عدد كبير من العناصر يؤلف فيها بينها . والتمرد ليس موضوعا يؤلف ، لأنه لا يجعل الأشياء تتوافق لتؤلف شيئا ، إنما هدفه هو التفريق وإثارة النزاع والتفكيك والتعطيم والتدمير . وصيحة الاحتجاج النافذة يمكن أن تؤثر في القلب ، ولكنها لا تؤلف انسجاما أبداً .

وتم موضوعان آخران على صلة وثيقة بالتمرد هما : «اليأس» و«السخرية» ، وكلاهما قد أشبعه شعراء القرن الماضي . لكن عليهما نفس المطنع الذي وجهناه إلى « التمرد » : فالْيأس حالة عارضة زائلة ، والنفس الإنسانية لا تصمد لليأس طويلا وليس اليأس من طبيعتها ، بل هي تستشرف دائما إلى الأمل ، إلى الرجاء ، إلى الآفاق المفتوحة ، إلى ما يقودها إلى قيمة أرفع . والسخرية تلذ الإنسان أحيانا ، لكنها ضئيلة القدر ، سرعان ما تفرغ جعبتها ، فيتطلع المرء إلى ما هو إيجابي .

وهكذا نرى أننا لا نستطيع أن نبني شيئا بمواد التمرد واليأس والسخرية ، وما شاكل ذلك من معان سلبية .

لكن القرن الماضي عُرِف إلى جانب ذلك ببعض الموضوعات الإيجابية ، ولكنه طرقها بأسلوب بارد سمج قضى على كل شاعرية فيها . فالعلم لم يعد يؤمن بخلود النفس ، فاستبدل الشعراء بخلود النفس بنفسمها ، خلودها بالمواد

التي ينحل إليها البدن والنفس : فسبقت البدن والنفس في الرياح ، في الشمس ، في الأزهار ، في الطيور التي تتألف مما انحل إليه البدن والنفس بعد الموت . لكن هذا التصور - في نظر كلوديل - ساذج فضلا عن سماجته كموضوع شعري ، لأن تمثال فينوس مثلا لا يبقى تمثالا حين ينحل إلى قطع من الجير أو الرخام ؛ فكذلك لا يبقى الإنسان إذا تحلل بدنه إلى تراب وهواء تكون عنهما بعد ذلك أزهار وطيور ونسيم . وموضوع آخر لجأ إليه الشعراء هو « التطور » الذي افتتن الناس بنظريته في القرن الماضي فراحوا يكتبون القصائد فيه أو باستلهامه ، وكان له شأن كبير لدى القصصيين خصوصا . لكنه في الشعر أخفق ، لأن فكرة التطور تميل إلى إعطاء الخليفة كلها طابعا موقوتا عارضا زائلا حائلا ، من شأنه أن يجرد النتائج الوقتية من جدها وأهميتها : وهذا من شأنه أن يجعلنا نفضل ما ليس بموجود على ما هو موجود . والشاعر الحق لا يحتاج إلى نجوم أو كبر وورود أجل ليتغنى بالنجوم والورود ، بل تكفيه النجوم والورود التي يراها ، وهو يعرف أن حياته قصيرة ، وأن أعمال الله جميلة جدا ، فلا يطلب غيرها ؛ ويعرف لماذا تلج الطبيعة فلا تتوقف عن التكرار ، فتقدم في كل عام نفس الوردة ونفس الزنبقة ؛ وليس الشاعر بحاجة إلى وردة من نوع آخر ينبثق عن التطور المنتظر ليتغنى بالورد .

وكلوديل ، رغم أنه من أنصار الشعر الحر المتحمسين في فرنسا ، فإنه يقر مع ذلك بكل صراحة في نهاية بحثه عن « الشعر الفرنسي » الذي صدر به هذا الكتاب بأن الشعر المنتظم هو الأكثر ملاءمة لغريزة الذوق والأناقة والقصيدة .

تمهيتي انا والشعر

سنتاينا شاعر ممتاز ، وناقد للشعراء ، ولهذا نجد لديه نظرية كاملة في حقيقة الشعر بخاصة ، إلى جانب نظريته العامة في علم الجمال ، وهو كما نعلم ممن أسهموا بنصيب وافر في ميدان هذا العلم .

ونظريته في الشعر نجدها مجملة في فصل كتبه بعنوان : « عناصر الشعر ووظائفه » نشر ضمن كتابه « تفسيرات الشعر والدين » سنة ١٩٠٠ . وفي هذا الفصل حدد عناصر ووظائف الشعر بأربعة : « حسن الجرس ، ونخامة اللفظ ، والتجربة الحية المباشرة ، والخيال المنظم » .

أما حسن الجرس فيعرفه بأنه « الجمال الحسي للألفاظ والتعبير عنها بالوزن » . فإدانة اللغة هي الألفاظ ، والنخامة الحسية للألفاظ هي الصوت . فلجعل اللغة كاملة لا بد من جعل موادها جميلة باخضاعها للوزن وإضفاء الصورة عليها . ولئن قيل إن اللغة رمز للعقل أولى من أن تكون مهيجاً للحس ، وأن جمال القول هو في جمال ما يعبر بواسطته عنه ، أي جمال المعاني والأمور المعبر عنها ، فإنه مما لا شك فيه أيضاً أن للرموز نفسها جمالاً وحقيقة حسية ذاتية خاصة بها ، ولها حسن جرس يلذ الحواس . واللسان يفضل العبارات ذات الجمال الطبيعي ، والذاكرة لا تحتفظ إلا بالجميل الموزونة .

والصورة العليا لحسن الجرس هي الأغنية ، فإن الصوت المعنى يهب الأصوات التي يعبر بها سحر للموسيقى ، وهو سحري يعتمد كما نعرف على الإيقاع والوزن . بيد أن هذا اللون هو من حسن الجرس ، ونعني به الغناء ، قد طغى عليه العقل ، وتعتدت اللغة بسبب تطور الفكر وتعتد للمعاني ، بحيث لم يعد الغناء كفيلاً بالتعبير عن المعاني العميقة والفكر المعقد .

لكن حتى لو ضاع العنصر الغنائى الخالص ، فإنه يبقى فى القول نوع من الكيفية الحسية الناشئة عن نظام وترتيب الأصوات المتحركة والأصوات الساكنة فى الألفاظ . وفضلا عن ذلك فإن لبعض الحروف إذا ما تكررت جرساً جميلاً خاصاً ، مثل حرفى S و y لأنهما يزيدان من اللعاب فى فم من ينطق بهما . وهذا ظاهر فى بيت أعشى قيس المشهور :

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعنى شاو مشل شلول شلشل شول

فترديد هذه الشينات يعطى جرساً جميلاً للبيت على الرغم من ضآلة بل تفاهة المعنى الذى يعبر عنه . بل إن اللغات تتفاوت فيما بينها من حيث قدرتها على توفير أكبر قدر من حسن الجرس فى الشعر المكتوب بها . وهو ما عبر عنه بيرن فى قصيدة يقارن فيها بين جمال اللغة الإيطالية وعدم جمال اللغة الإنجليزية . قال : « أحب اللغة الإيطالية ، تلك اللاتينية المهجنة الرقيقة التى تذوب كالقبعات المسفوحة من ثغر امرأة وترن كأنها ينبغى أن تكتب على الساتان بمقاطع تتنفس أنفاس الجنوب العذب ، وحروف ساكنة سائلة تجرى الهوينا فلا تخرج منها نبرة واحدة غريبة من نوع صغيرنا الشمالى الحلقى الناخر الذى يضطر إلى أن نفحه ونبصقه » .

لكن إلى جانب هذه الخصائص الأصيلة فى اللغات والمتباينة بين الواحدة والأخرى يمكن الحصول على حسن الجرس عن طريق الوزن ، أى عن طريق نظم الألفاظ على نحو من شأنه أن يحدث تطريباً .

والشعر يشبه الزجاج الملون فى النوافذ : فبينما الزجاج الشفاف لا يصلح إلا لتوفير النور ، نجد الزجاج الملون يسمح بنفوذ النور وصبغها بألوان تتعشقها الأبصار ، وتعمل فيها فعل السحر . فكذلك الشعر : يصنع الألفاظ بألوان تتأمر الانتباه وتضفى على الألفاظ سحراً .

والعنصر الثانى من عناصر الشعر هو كما قلنا «نخامة اللفظ» . وهو عنصر استغله أصحاب المذهب الرمزي في الشعر إلى أبعد الحدود . ويعرفه سنتايانا بأنه « اختيار الألفاظ ذوات الألوان والجمل النادرة التضمينية . فإذا كان الشعراء الفحول مثل المهندسين والنحاتين ، فإن أصحاب اللفظ الفخم هم مثل الصاغة وصانعي الذهب ، إن عملهم نقش مائى في معادن نفيسة » . ومن برعوا في هذا اللون من الشعر ذى اللفظ الفخم كيتس وشلى من بين الإنجليز ، وبودلير ورامبو وما لارميه من بين الفرنسيين . ونخامة اللفظ تسوقنا « مما هو لفظى خالص إلى منطقة الخيال » .

هذان العنصران يتعلقان باللفظ . أما العنصران الباقيان فيتعلقان بالمعنى . والعنصر الثالث ينشأ عن وظيفة الشعر الأولى . ذلك أن الشعر أقرب ما يكون إلى التجربة الحية المباشرة . « إنه يحطم التصورات الرثة التى تدل عليها الكلمات المألوفة ويكسرها إلى الصفات والكميافيات الحسية التى عنها تركبت هذه التصورات . إننا نسمى ما ندركه ونعتقده ، لا ما نراه ؛ نسمى الأشياء ، لا الصور ؛ والأرواح ، لا الأصوات والأشباح »^(١) . إن الشعر جسم ، إنه يمثل التجربة وصورتها^(٢) .

فالشاعر الناشئ بعد أن تعلم اللغة التى يستعين بها في التفاهم ، يبدأ بإدراك المعانى والمظاهر الأولية في الطبيعة ، ويحمل في عقله انطباعات حية عديدة رفضها العقل المنطقي ، ويعمل في المدركات العديدة التى أدركها . إنه يستعيد للبصر براعته ، ويفك عقد الإدراك المعتاد إلى عناصره الحسية ؛ ثم يختزن هذه العناصر الحسية . والانطباعات الانفعالية ليستمد منها عند الحاجة مادة شعره . ونحن في أعماقنا نحلم .

(١) « تفسيرات الدين والشعر » ص ٢٥٨

(٢) « العقل فى الفن » ص ٩٨

والشاعر هو الذى يستطيع أن يغوص إلى هذه الأعماق الحاملة وأن يستخلص منها خامة يستعين بها فى صوغ أوزانه . « إن الحياة الواعية حلم أخضعناه لضوابط . ومن الثروة المهمة الكائنة فى هذا الحلم يستخلص الشاعر بضاعته . فيغوص فى العماء الممتد تحت الغطاء العقلى للعالم ويبرز صورة نافذة ، أو انفعالا مطروحاً ، ويربطه بالموضوع الحاضر ، إنه يعبر عن أمور ضرورية ويؤكد أموراً مهمة ، ويصبغ المنظر بألوان وأصباغ شاء العقل لها أن تبته وتبلى . فإن بدا أحياناً أنه يكسو حقيقة بضباب الغموض ، فما ذلك إلا من أجل أن يسترد تجربة . ويمكن أن نلاحظ هذه العملية فى أبسط الأحوال .

فحينما نجد الشاعر أوسيان وهو يتحدث عن الشمس ، يقول إنها مستديرة مثل درع أجداده ، فإن هذا تعبير شعري . لماذا ؟ لأنه أضاف إلى كلمة الشمس وهى فى ذاتها كافية واضحة ، أضاف إليها كلمات أخرى ، لا ضرورة إليها للوضوح العملى ، لكنها تفيد فى استعادة شخصية إدراكه وما يرتبط به فى عقله . فلا توجد شمس مربعة يمكن أن يخلط بينها وبين الشمس التى يتحدث عنها ، فأن يتوقف وينعمها بأنها مستديرة ، هذا ترف ، وتوقف عند الإحساس حباً فى شكله . »

وفى الشاعر يرجع إلى حد كبير إلى قدرته على تقوية الانفعالات بحشد الأمور المشتتة التى تثيرها بالطبع . إنه يشاهد الأنساب القائمة بين الأشياء عن طريق مشاهدة روابطها المشتركة بحماسة وانفعال . فجميع الأمور البعيدة ذات الرابطة المشتركة بعضها مع بعض يقوى الشعر ويشد الانفعال .

والشاعر هو الذى يستغل المغالطة الوجدانية التى تعود بنا إلى العالم الخيالى الذى كان يعيش فيه أجدادنا . لقد كانوا يملأون دنياهم بالأرواح والأشباح ، بالحياة العرمة التى تجرى فى كل شئ . والشعر يعود بنا إلى تلك الحال الأولى التى كان يحياها الأجداد ، ويذكرنا بالمرحلة التى مرت بها الإنسانية فى عصورها الأولى . وإذا كان تقدم العقل قد كبت هذه النوازع ،

فإن مهمة الشاعر أن يستردها وأن يبرزها . وليس في هذا ضرر على الإنسان : إنه يستمتع بهذا العالم الخي الحافل للوهوم ، ويستشعر في حضرته سورة حيوية هائلة و طاقة متدفقة .

والعنصر الرابع والأخير هو الخيال المنظم : ذلك أن وظيفة الشعر الكبرى هي كما يقول سنتاينا ، « اللجوء إلى مادة التجربة والإمساك بحقيقة الحواس والخيال الكامنة تحت سطح الأفكار التقليدية ، ثم من هذه المادة الحية غير المحددة بنى أبنية جديدة أغنى وألطف وأنسب إلى الليول الأولية في طبيعتنا . وأصدق نحو ممكنات الروح النهائية . هنالك يبرز نزولنا إلى عناصر وجودنا بصعودنا التالى الحر نحو هدفه وغايته . فإننا نرجع إلى الحس من أجل أن نجد قوتنا للعقل ، ونحطم الأمور التقليدية ابتغاء تشييد مثل عليا . ومثل هذا التحليل المهادف إلى الخلق هو جوهر كل شعر عظيم . »

ويؤكد سنتاينا أن خيال الشاعر منظم ، بل هو منظم بنفس القدر الذى به خيال العالم بالقلك منظم . إن الشاعر لديه صبر عالم النبات ، وحب للتفاصيل . إنه لا يعرف العجلة ، وينشد التأثير فى موضوعاته . وعقل الشاعر أكثر عينية من عقل العالم ، لأن عالمه محسوس حى حافل بالألوان والحياة والانفعال ، وبدلا من أن يدرس فى التجربة عناصرها القابلة للحساب والمقياس ، يدرس فيها قيمها الأخلاقية والمعنوية ، وجهاها ، وآفاتها التى تنفتح لها الروح . والكون الذى يشيده الشاعر مسرح مثالى للروح تمثل عليها دراماها القوية النبيلة ويجرى فيها مصيرها . إن الشعر يحطم الصورة المبتذلة للتجربة ويولج فى الحقيقة الواقعية سيالا موزونا يجعلها أقرب إلى إدراك العقل .

والشعور والخيال ينبغى أن يستمدا من التجربة الحسية مادتهما وأن يشكلاهما على نحو التجربة الحسية من حيث الحيوية والعينية . ويتحقق ذلك

على درجات : فالدرجة الدنيا تتحقق في جعل القصيدة ذات شخوص ، وأعلى منها تتحقق في جعل هذه الشخوص تاريخية الدلالة، وتصبح القصيدة في الدرجة العليا حينما تكون لها حبكة ، والشخوص تنتسب إلى مجتمع متخيل وتتحرك في مواقف درامية . فخلق الأشخاص في القصيدة مما يجعل لها روعة و ثراء . لكن الأشخاص ليسوا بالضرورة من تجربة الشاعر . إنما هو يضع كامل ذاته وكل روحه في القصيدة كلها بوصفها كلا . وليس المهم هو الشخصية ، بل الآثار التي تحدثها فيمن يقرأ أو يسمع القصيدة . ولهذا تجد كبار الشعراء مثل هو ميروس ودانتة يجعلون الأشخاص خاضعين للحركة العامة التي تسرى في المشهد مرتبين تبعاً للمعنى العام الذي يجب أن يستخلص من هذا المشهد .

ويزيد من تأثير هذه الشخوص أن تكون وراءهم خلفية تاريخية وفزيائية . أما الخلفية الفزيائية أو الطبيعية فهي المناظر الطبيعية التي يصفها ، لكن المهم فيها ليس المنظر الطبيعي بما هو كذلك ، بل التأثير الدرامي المتولد عنه بالنسبة إلى الشخوص التي يجعلها تتجول بين هذه المناظر . أما الإشارات التاريخية فأقدر من المناظر الطبيعية على إثارة هذا الجانب . « وكل شاعر كلاسيكي عنده حس بالمواضع ، حس طوبوغرافي . إنه يحشد في القصيدة أسماء أعلام وإشارات إلى التاريخ والأساطير . فإذا أُلتي بنعت في مكان ما ملء الوزن ، فإنه بغريزته يختار اسم مكان أو قبيلة ، فخرته ليست حمراء ، بل شامسية (نسبة إلى جزيرة شامس في بلاد اليونان) ، وخطوط سحره ليست عميقة ولكنها أخاديد هاموس ، وأغانيه ليست حلوة ، ولكن فيريادية (١) » .

وبهذه الإشارات التاريخية أو الأسطورية تكتسب الكلمات ثروة معنوية واضحة ، ويمتلىء للضمون بشاعرية لا تتوافر بدونها .

لكن ثم ما هو أهم من هذه الخلفية الفزيائية والتاريخية، وهو المواقف الدرامية التي يضع فيها الشاعر شخصياته . ذلك أن جوهر الشعر هو في نهاية الأمر الانفعال ، والانفعال لا يبلغ عرامته إلا في المواقف الدرامية .

وبالجملة فالشاعر في نظر سنتاينا يحتاج في اللقائ الأول إلى أن يكون ذا قدرة على الغناء ، وأن يكون صوته صافياً عالي النبرة ، وأن تجري أوزانه بانطلاق ، وفي مرحلة أعلى ينبغي أن تكون صورته متألفة بعضها مع بعض ، ويجب أن يكون فخم اللفظ ، يلون أفكاره وخواطره بأضواء من الذاكرة والإيحاء ، حتى يكون انسجامها غنياً عميقاً ، وفي مرحلة أعلى ينبغي أن يشيد عالمه بالعناصر الأولية للتجربة ، لا بما اصططح عليه الناس والإدراك العام ، ويجب عليه أن يشيع روحاً تامة في إيقاعاته ، حتى لو أدى ذلك إلى تفكيك التنظيمات الجزئية للتجربة التي وضعها العلم . لكن ينبغي ألا يؤدي هذا التفكيك إلى جعل الشاعر يضل في عماء من الحس والوجدان ، بل يكون ذلك مجرد حرث وإعداد للغرس ابتغاء إنبات محصول جديد . والتعبير عن الانفعال ينبغي أن ينظم بوضعه في قوالب أشخاص وبالإشارة إلى موضوعات واقعية كثيرة - أي بالإشارة إلى الطبيعة والتاريخ وعالم الصدق وعالم الأساطير ، والتجربة التي يتخيلها ينبغي أن تدرك على أنها مصير يخضع لمبادئ ويقود الإرادة فيه نور . فهذا وبهذا وحده يمكن الشعر أن يصبح تفسيراً للحياة ، لا مجرد شطحات في عالم الأوهام ، لافائدة منها لتغذية الروح .

نيتشه والشعر

نيتشه شاعر ممتاز ، وحتى نثره يفيض شعراً . ولكنه على عادته يتف من الشعر والشعراء مواقف تتسم بالمفارقة الصارخة .

ففي حديث أجراه بين زرادشت وتلميذه يقول الفتى : « لقد سمعتك تقول إن الشعراء يكذبون كثيراً — فلماذا تقول إن الشعراء يكذبون كثيراً ؟ »

فأحابه زرادشت : « لماذا ؟ أت تسأل لماذا ؟ إنى لست من أولئك الذين يطلب إليهم إبداء الأسباب .

» فهل تجربتي بدأت بالأمس ؟ لقد مضى زمان طويل منذ أن امتحنت أسباب أفكارى .

» وهل ينبغي على أن أجزو رأى ذاكرة حافلة كالقربة ، حتى تكون كل أسبابى حاضرة لدى ؟

» كمفانى ويزيد أن أحتفظ بكل أفكارى ، ولقد طار الكثير من طيورى .

» وبين الحين والحين أجد فى برج حمامى طائراً لاجئاً غريباً عنى ينفذ حينما أضع يدى عليه .

» ماذا قال لك زرادشت من قبل ؟ أقال لك إن الشعراء يكذبون كثيراً ؟ — لكن زرادشت نفسه شاعر .

فهل تعتقد الآن أنه قال الحق هنا ؟ ولماذا تعتقد ذلك ؟

فأجاب التلميذ : « إنى أعتقد فى زرادشت ، لكن زرادشت هو رأسه وابتم .

وقال : إني لا أعرف الإيمان الذي يُنجّي، خصوصاً إذا كان إيماناً بنفسي !
لكن إذا فرض أن أحداً قال بكل جد إن الشعراء يكذبون كثيراً ، فإنه
يكون على حق : فنحن نكذب كثيراً .

نحن نعرف القليل جداً ولا نحسن التعلم ، ولهذا فإننا مضطرون
إلى الكذب .

ومن منا معشر الشعراء لم يزيّف خمره ؟ لقد أعددنا في أسرابنا كثيراً
من الأشربة السامة ، وصنعنا أموراً لا توصف .

ولما كنا لا نعلم إلا القليل ، فإننا نحب الفقراء بالروح ، خصوصاً إذا
كانوا أوانس .

ويلد لنا أن نستمع إلى ما يقصه العجائز في المساء . وهذا ما نسميه الأوثّة
الخالدة فينا .

وكما لو كان للعلم مدخل سرى خاص يقف عثرة في سبيل الذين يتعلمون ،
فإننا نؤمن بالشعب و « بحكمته » .

وكل الشعراء يعتقدون أنه يكفي الواحد منهم أن يرقد على العشب الممتد
على منحدر رابية متوحدة وأن يرعى سمعه ، كي يلتقط أموراً مما يجري بين
السماء والأرض .

فإن أصابتهم انفعالات رقيقة ظنوا أن الطبيعة تعشقهم ، وأنها تقترب
منهم خفية لتهمس في آذانهم بأسرار وأقوال معسولة ، وهم يفخرون بذلك
ويتباهون أمام كل الأحياء الفانين !

واأسفاه ! إن بين السماء والأرض لأموراً لم يحلم بها غير الشعراء !
بل خصوصاً فوق السماء ، لأن الآلهة تشبهات للشعراء وابتسكات.
للشعراء .

والحق أننا نحلم دائماً بالأعلى ، وبملكوت السحاب ؛ وفيها نضع أغشيتنا المتعددة الألوان التي نسميها آلهة وأناساً أعلين .

وجوهرهم خفيف تحتمله هذه الكراسي - كل أولئك الآلهة والناس الأعلين .

آه ! كم أنا متعب من عدم الكفاية ، هذا الذي يريد أن يكون مهماً بأي ثمن ! آه ! كم أنا متعب من جميع الشعراء ! .

ولما سمع التلميذ من زرادشت هذا الكلام استشاط غضباً لكنه لزم الصمت .

وبقي زرادشت نفسه صامتاً ، وبدأ أن نظرته تتجه إلى الباطن ، وكأنها تدرك فيه آفاقاً بعيدة . وأخيراً تهد واستعاد أنفاسه .

وقال : أنا ابن اليوم وابن الماضي ، لكن في ذاتي شيئاً ينتسب إلى غد وبعد غد وما يستقبل من الزمان .

أنا متعب من الشعراء ، القدماء منهم والمحدثون ، إنهم جميعاً سطحيون ؛ إنهم بحار ضحلة .

أفسكارهم لم تغص في الأعماق ، ولهذا لم تنزل عواطفهم حتى الهاوية .

قليل من الشهرة وقليل من الملل ؛ هذا خير مافي تأملاتهم .
وطنين قيثاراتهم هو في نظري شبيه بمرور الأشباح الهامسة ، ماذا أدركوا حتى الآن من حماسة الأنعام ؟

ثم إنى لا أجدهم طاهرين طهراً كافياً ، إنهم يعكرون أمواهم حتى تبدو عميقة .

ويودون أن يبدووا بمظهر الوسطاء ، لكنهم في نظري بقوا مجرد متوسطين ومخلطين وأنصاف أنصاف وغير أطهار ! -

آه ! صحيح أنى ألقيت ذات يوم بشباكى فى بحرهم ، أملأ صيد أسماك
جيدة ؛ لكنى لم أصطد غير رأس إله قديم .

وهكذا لم يقدم لى البحر ، أنا الجائع غير حجر . ولعلمهم هم أيضاً قد
نشأوا من البحر .

صحيح أن المرء يجد فيهم لآلىء : لكنهم أشبه بأسماء البحار ذوات
الأصداف القاسية . وبدلاً من أن أجدر روحاً ، كثيراً ما وجدت فيهم قليلاً
من الرغبة الملحة .

لقد تعلموا من البحر أيضاً غروره ، أليس البحر طاووس الطواويس ؟
حتى بالنسبة إلى الجاموسة البالغة القبح تراه يدير أمواجه ، ولا يكل
أبدًا من اللعب بالفضة وبحرير مروحته المطرزة .

والجاموسة تتطلع فيه بشراسة ، وروحها تشبه الرمل ، بل هى أشبه
بالأحمة ، بل هى أقرب ما تكون إلى المستنقع .

ماذا يهمها من جمال البحر وفتنته التى تشبه فتنة الطاووس ؟
هذا المثل أهديه إلى الشعراء .

فالحق أن روحهم طاووس الطواويس ، وبحر من الغرور .
إن روح الشاعر تريد مشاهدين ، حتى لو كانوا من الجاموس .
لكنى ضقت ذرعاً بهذه الروح ، وإنى أتنبأ أنها ستضيق ذرعاً بنفسها .
لقد رأيت الشعراء يتجولون ، وشاهدتهم يوجهون نظراتهم إلى
ذوات أنفسهم .

وشاهدت المكفرين عن الروح قادمين : لقد نشأوا بين الشعراء .
هكذا تكلم زرادشت .

وهكذا نرى في هذه الكلمات كيف يعجد نيتشه الشعراء ويلعنهم في وقت واحد : فالشعراء لا يعلمون إلا القليل وهم معلمون سيئون ، والشعراء أنصاف — أنصاف ، لأنهم يحاولون التوسط في الأمور ، وهم يشبهون البحار القليلة الغور ، وهم لهذا سطحيون ، والشعراء يؤمنون بالعامية وبحكم العامة ، وروح الشعراء مليئة بالغرور ، والشاعر أشد غروراً وزهواً وادعاءً من الطاووس : إنه طاووس الطواويس غروراً وكبراً وادعاءً .

ولكننا نجد نيتشه في موضع آخر يصف الشعراء بأنهم يخففو الحياة ، أي يخففو متاع الحياة . إنهم ينشدون تخفيف متاع الدنيا عن الناس ، ومن أجل هذا تراهم إما أن يشيحوا بأنظارهم عن الحاضر المضي أو يصبغون الحاضر بألوان جديدة زاهية . ولكي يكون ذلك في وسعهم ينبغي عليهم أن يكونوا كائنات متجهة إلى الوراء في كثير من النواحي : حتى يستطيع الناس أن يستعينوا بهم جسوراً تفضي إلى أزمان سحيقة وتصورات عتيقة وحضارات وديانات بالية . ولكن وسائلهم لتخفيف متاع الحياة فيها جانب غير حميد ذلك أنهم يهدئون ويشفون موقتا فحسب وللحظات ، ويعنعون الناس من العمل الإيجابي الفعال لأصلاح أحوالهم حقاً ، لأنهم يكفون ويكبتون حمية الساخطين الدافعة إلى العمل . وبالجملة فإن تخفيفهم للحياة ضار ، لأنه يضعف الطاقة القوية المتولدة عن عدم الرضا بالحالة الراهنة التي يعيش فيها المرء . وبعبارة أوضح إن تأثير الشعراء شبيه بتأثير المخدرات . فمن الطبيعي إذن أن يحمل عليهم نيتشه وهو الداعي إلى القوة والفعل الحى المتوتر . إنه ينبغي على الشاعر عدم حبه للحقيقة الواقعية ذلك لأن « ربة الشعر عند الشاعر الذي لا يعيش الحقيقة الواقعية ، لن تكون هي الحقيقة الواقعية ولن تلد غير أبناء خاوي العيون هشى العظام » ، أعنى ضعافاً مهزولين غير قادرين على تأكيد إرادة الحياة والسيطرة والانتصار .

بيد اننا نجد نيتشه في مقابل ذلك يعجد الشعر والشعراء فيقول إن الشاعر يعبر عن الآراء العامة السامية التي عند شعب ما ، إنه لسان حالها ونأيها . وهو يفعل ذلك بفعل الوزن وأنواع من الحيل الفنية بحيث يجعلها جذيرة رائعة يتلقاها الشعب بكل احترام و إعجاب إلى حد أنه ينعت الشاعر بأنه لسان حال الآلهة . وفي سورة الخلق الشعري ينسى الشاعر من أين جاءته كل تلك الحكمة - التي وصلته من أبيه وأمه ومعلميه والكتب على اختلاف أنواعها والشارع والكهنة - ويخدعه فنه ويعتقد حقاً في عصور الفطرة والسذاجة أن الله ينطق بلسانه ، وأنه ينظم الشعر عن وحي يوحى به إليه ، وهو في الواقع لا يقول غير ما تعلمه من حكمة الشعب و حماقته . وهكذا فإن الشاعر بقدر ما يكون صوت الشعب يكون صوت الله .

ونيتشه يقدر جانب الوزن للموسيقى في الشعر أكثر من سائر الجوانب ، ولهذا يفضل الشاعر الرائع الرنين ، الفائق الإيقاع ، المسيطر على مادة الأوزان ، وأعظم مناقب الشاعر أن يكون شعره وقصائده سلاسل من الأناشيد الصالحة للترقيص . وحتى في المأسى (التراجيديات) إنما يعجد الجانب للموسيقى المتمثل في الكورس . ولهذا نراه يقدر خصوصاً من بين الشعراء أولئك الذين يحتفلون لموسيقى القصيدة . وهذا يفسر إعجابه بهيلدرن وهينه ، لأن كليهما يمتاز بروعة موسيقى القصيدة . وإعجابه بشروجيته لم يكن لأسباب فنية شعرية ، بل بسبب مضمون شعرها . لقد قال عن هيلدرن - مع أن قصائده لم تكن قد اكتشفت بعد ، إذ هي اكتشفت سنة ١٩١٠ ، أي بعد وفاة نيتشه بعشر سنوات - نقول إنه نعت هيلدرن بأنه الشاعر «الرائع» الساحر ويقتبس من فشر قوله عن هيلدرن إنه « فرتر اليونان » ، وقال إنه هو وكليست قد سقطا صريعى أصالتهما ، لأنهما عجزا عن احتمال جو الثقافة الألمانية ، هذا الجو الكالح ، الخافق في نظر نيتشه ، الذي ما كانت لتحتمله غير

طبائع من البرنز مثل بيتهوفن وجيته ، وشوبهـور وفاجنر . أما عن هينه فقال إنه هو الذى أعطاه أسمى فكرة عن هو الشاعر الغنائى ، حتى قال مرة أخرى إن ألمانيا لم تنجب غير شاعر واحد ثان إلى جوار جيته ، ألا وهو هينه . فبينه فى نظره لاعب ماهر بالأوزان والألوان . أما جيته فكان موضوع إعجاب لا حد له من جانب نيتشه . فقد رأى فيه النموذج ، وتوسم لديه النزعة الطبيعية المضطربة وقد تحولت شيئاً فشيئاً إلى مكانة جادة . وجيته فى نظره رجل ذو طراز ارتفع إلى مستوى أعلى مما ارتفع إليه أى ألماني آخر ، ولم يرض أحد فى نبل الأسلوب إلى الشوط الذى وصل إليه . وعلينا دائماً أن نتأمل له . وليس جيته ذلك الأولمبي المخلق فى سموات الفن ، بل هو رجل بكل ما لهذه الكلمة من معنى ، رجل فعال مشارك فى آلام الحياة يحمل عبء الوجود بكل ثقله . لقد صنعت منه الطبيعة فناً عظيماً ، لكنه أخطأ حين توهم أنه عالم ومكتشف عظيم ، وأخطأ فى الشطر الأول من حياته حين نشد شيئاً أسمى من الشعر .

وإلى جانب هذه الأقوال العامة عن الشعر والشعراء ، نجد لـنيتشه خواطر متناثرة تتصل بكليهما . فيقول : إن الشاعر خادع يرى فى الكاذب أخاه فى الرضاة - لا محل للقول بتعارض بين الشاعر والناقد ، بل التعارض يقوم بين الشاعر وبين مادة الشعر - لا يحتاج الشاعر أن يكون منطقياً مع نفسه - كل بداية خطر على الشاعر - الشعراء كانوا دائماً خداماً لنوع معين من الأخلاق - الشاعر لا ينجل من تجاربه الحية - الشاعر العظيم لا يستلهم غير واقعه . والشاعر الذى يريد أن يدفع تقدماً بالذهب ، لا بد له أن يدفع من تجاربه الحية .

شوبنهاور والشعر

يعترف شوبنهاور الشعر بأنه الفن الذى يثير نشاط الخيال بواسطة الكلمات . ويستشهد على ذلك بعبارات وردت فى رسالة كتبها الشاعر فيلاند إلى مرك يقول فيها : « أمضيت يومين ونصفاً أعالج فقرة من الشعر ، يرجع الأمر فيها أساساً إلى كلمة واحدة كنت فى حاجة إليها ولم أستطع العثور عليها . فأدرت الأمر وأدرت رأسى فى كل اتجاه ، لأنى بطبعى حين يتعلق الأمر بصورة (أو لوحة ما) أسمى لكى أنقل الرؤيا التى تجلت أمامى ، أنقلها لتتجلى أمام القارئ ، وكثيراً ما يحدث - كما تعرف - أن يتوقف كل شيء على لحظة أو هزة أو ارتكاس » .

ومن ناحية أخرى يربط شوبنهاور بين الشعر وبين الرمز Allegorie والرمز حيلة فنية تشير إلى شيء يختلف عما تعرضه . والشعر يعطى للرمز مكانة بارزة فى داخل أدواته الفنية للتعبير ، لأن الشعر يشمل كل الصور والأفكار والمثل ، ومهمته أن يوضح الصور والأفكار والمثل بطريقة عينية ، بحيث تبدو للخيال بكل قدرتها وجلالها . ومن أجل ذلك يستعين بلغة الصور ، وتشمل المجاز والاستعارة والتشبيه والحكاية والرمز . فهو مبروس يقول عن آتية Até إلهة الجنون إنها بقدَميها الرقيقتين السريعتين لا تمشى على الأرض القاسية بل تحلق فوق رعوس البشر ؛ وثربنتس يشبه النوم بمعطف يغطى جسم الإنسان كله ، وكليست يقول عن مصباح العالم الباحث إنه يضئ الكرة الأرضية كلها . أما الرموز والحكايات الرمزية الشعرية فيسوق شوبنهاور أمثلة عليها : « دون كيشوته » لثربانتس ورحلات جلغر فى ليليوت لسوفت ، وأسطورة الكهف فى المقالة السابعة من « جمهورية » أفلاطون :

والشعر يهدف إلى الكشف عن الصور أو المثل وعن درجات تحقق الإرادة الموضوعي، وأن ينقل ذلك بوضوح وحيوية إلى السامع أو القارئ. والمثل أو الصور - بالمعنى الأفلاطوني لهذا اللفظ - هي في جوهرها عينية : فإن كانت الأفكار التي يعبر عنها في الشعر بواسطة الكلمات أفكاراً مجردة ، فإنه يهدف في نفس الوقت إلى أن يجعل هذه الأفكار حية واضحة مرئية - إن صح هذا التعبير - في خيال السامع أو القارئ ، وذلك بإثارة نشاط خياله ليعمل في الصور المقدمة إليه حتى يتخيل الأمور العينية التي تدل عليها. لكنه ، لكي يتمكن من تحريك الخيال للعمل ، لا بد له أن ينظم مادة الشعر نظاماً من شأنه ألا يدع الأفكار المجردة تظل جامدة في مواضعها .

وعمل الشاعر في هذا كعمل الكيماوي الذي يصل إلى رواسب ثابتة من سوائل صافية شفافة بالمزج بينها ؛ فكذلك الشاعر يحصل على ما هو عيني فردي وامتنال مرئي من تصورات عامة مجردة شفافة ، ذلك أن « الصورة » بالمعنى الأفلاطوني لا يمكن أن : تُتَّعَرَّفَ إلا إذا عُبِّرَ عنها تعبيراً مرئياً ، وإن هدف الفنون كلها هو تعرُّف الصور أو المثل ، ولتحقيق هذه الهدف يستعين بالصفات العديدة التي تحيل عموم التصور إلى صورة عينية مرئية ، فنرى هوميروس يضيف إلى كل اسم صفة تشق نطاق المعنى المجرد فتحدد منه أكثر فأكثر ، وتكشف عن صورته العيانية ، فنراه مثلاً يقول : « هوى ضوء الشمس الباهر في أحضان المحيط ، جاذبا الليل الفاحم على الأرض الحنون » ، وجيته يقول وقد هاج في نفسه الحنين إلى إيطاليا وإلى جو الجنوب الدافئ الشهواني : « حيث النسيم العليل يهب من السماء الزرقاء ، والآس ساكن ، والغار مُشرَّع » ؛ ففي هذه المعاني والصور القليلة استطاع أن يهيب بجو الجنوب ويحيي روحها فيه .

ويقول بعد ذلك : « هل تعرف الدار ؟ سقفاها يقوم على سَمد ، والبهو

يرفّ ، والغرفة يشعّ منها النور، وعلى الجدران رسومٌ من المرمر ترنو إلى « ؛
في هذه الأوصاف والجزئيات الضئيلة مثل لنا إيطاليا ذات الفنون أروعَ
تمثيل ، وكأنّها عرضت نفسها أمام عينه حية مُشاهدة .

ومن الوسائل الفعالة جداً التي يستعين بها الشعر في تحقيق غايته : الوزن
والقافية . إن لهما تأثيراً هائلاً في تحريك الخيال . ويقول شوبنهاور إنه
لا يستطيع أن يقدم تفسيراً لهذا التأثير غير هذا وهو أن ملكة التصور ،
وهي في جوهرها مرتبطة بالزمان ، تحصل بهما على خاصية بفضلها تتابع كل
ضوءاء تتوالى بانتظام ونشعر بانسجام وإياها . وهكذا نجد أن الوزن والقافية
وسيلتان لإثارة انتباهنا ونحن نتابع سماع الإنشاد ، هذا من ناحية ، ومن
ناحية أخرى فإنه ينشأ عنهما فينا توافق أعمى سابق على كل حكم ، توافق مع
ما يُنشَد ، يحصل به هذا الذي ينشد على قوة اقتناع عارية عن كل سبب .

ونظراً إلى عموم المادة التي يستعين بها الشعر للتعبير عن « الصور »
(بالمعنى الأفلاطوني دائماً) ، فإن ميدانه واسع جداً . فالطبيعة كلها ،
« والصور » من مختلف الدرجات ، تصبح بفضلها قابلة للعرض أحياناً
بالوصف ، وأحياناً أخرى بالحكاية والقص ، وأحياناً ثالثة بالتمثيل الدرامي .
وإذا كانت الفنون التشكيلية تتفوق على الشعر في عرض الطبقات الدنيا لتحقيق
الإرادة الموضوعية لأن الطبيعة الحيوانية الخالصة العارية عن الإدراك
والمعرفة تعبر عن نفسها كلها في لحظة ممتازة من لحظات وجودها ، وهي
اللحظة التي يقتضيها الفنان التشكيلي ليعبر عنها في عمله الفني ، فإن موضوع
الشعر الرئيسيّ هو الإنسان ، بوصفه لا يستنفد في مجرد تعبير الشكل
والملاح ، بل يتمثل خصوصاً في سلسلة من الأفعال وما يصاحبها من أفكار
وعواطف وانفعالات ، أي الإنسان في حركة الزمانية المنظورة ، وهذا أمر

لا يستطيع أى فن تشكيلى أن يعبر عنه ، والشعر وحده هو القادر على التعبير عنه .

وعلى هذا فإن مهمة الشعر الكبرى هى الكشف عن « الصورة » التى هى أعلى درجات تحقق الإرادة الموضوعى ، وتصوير الانسان فى السلسلة التماسكة من الأفعال التى يقوم بها بما يصاحبها من عواطف وأفكار وانفعالات . - صحيح أن التجربة والتاريخ يدلاننا على الانسان ، لكنهما يعرّفاننا بالناس أكثر من أن يعرّفاننا بالانسان بما هو إنسان ، أعنى أنهما يقدمان لنا معلومات تجريبية عملية عن سلوك الناس ، أولى من أن يمكننا من النفوذ إلى الجوهر الباطن للإنسان بما هو إنسان . إن التاريخ لا يعبر عن الانسان فى « صورته » ، بل فى حوادثه وأعراضه وتغيراته ؛ أما الشعر فيدرك « الصورة » ، أعنى الطبيعة الانسانية - بعمامة ، بغض النظر عن العلاقات والزمان ؛ أى أنه يدرك التحقق الموضوعى التام للإرادة فى أعلى درجات التعبير عنه . « ولهذا فإن الذى يريد أن يعرف الانسانية فى جوهرها الباطن ، فى صورتها ، متحققة ومتطورة باستمرار ، فعليه أن يبحث عنها فى الآثار الخالدة لكبار الشعراء ؛ ففيها صورة أكثر أمانة وأعظم وضوحا من تلك التى يعرضها علينا المؤرخون : « لأن أفضل المؤرخين بعيدون عن أن يكونوا فى المرتبة الأولى كشعراء ، فضلا عن أنه تعوزهم حرية الحركة » . ذلك أن الشاعر يدرك « صورة » الانسانية من أية ناحية معينة قابلة للعرض ، ويدرك حقيقة ذاته وما تحقق فى هذه الذات : وإدراكه نصف قبلى : فالنموذج يقف أمام عقله ثابتا واضحا مضيئا ، لا يتخلى عنه ، ولهذا فانه يبين لنا فى مرآة روحه « الصورة » صافية واضحة ، ووصفه صادق صدق الحياة نفسها والمؤرخون القدماء العظام حينما يتخلون عن الأخبار يصبحون شعراء ، مثلا حين يصورون مُخطب أبطالهم ، هنالك يستمدون من الشعر الملحمى صناعته

وأدواته . والمؤرخ الخالص القُح الذى يعمل بحسب الأخبار والروايات وحدها يشبه إنسانا ليست لديه أدنى معرفة بالرياضيات يبحث فى أشكال يجدها عرضا ، فيستعمل أدوات القياس لمعرفة علاقاتها ، بينما الشاعر يشبه الرياضى الذى يبنى هذه العلاقات قبلها فى ذهنه ، فى عيان خالص ، ويبين نسبها . وخصائصها كما هى فى « الصورة » لا كما هى فى الأشكال العينية المرسومة . وفى هذا المعنى يقول شلر : « إن ما لم يحدث أبداً ولا فى أى مكان هذا وحده هو الذى لا يشيخ أبداً » .

ويشترط شوبنهاور ، بعد أن أكد أهمية الوزن والقافية فى أداء مهمة الشعر ، أن تتوثق العلاقة بين الفكرة والقافية وأن ترتبطا باطنيا . أما إذا بحثنا عن الأفكار من أجل القوافى فانه ينشأ عن ذلك شعراً جوف الرنين ، وإذا بحثنا بعناء ومشقة عن القوافى من أجل الأفكار ، فانه ينشأ عن ذلك شعر متسكف مغتصب لا تطرب له الأذن ولا يتحرك به الخيال . أما إذا تتابعت الأفكار فى تسلسل طبيعى مستمر على إيقاع الكلمات وتناغم القوافى ، فانه يكون للغة الشعر تأثير السحر . وسهولة القوافى وحجيوها بصورة طبيعية لا تكلف فيها يكفلان السلامة التامة والتوازن الباطن فى الأفكار وهذا من شأنه أن يعطى للقصيدة قدرة فائقة على التأثير فى الخيال . إن للأفكار قوافى باطنة ، كما أن للألفاظ التى تعبر عن الأفكار قوافى ظاهرة . ولا بد أن يتوافر فى الأفكار المعبر عنها فى الشعر قوافيها الملائمة باطنا . وجيته هوسيد الشعراء الألمان فى اختراع القوافى البارعة . وقصائده كلها تشهد له بذلك .

قلنا إذن إن مهمة الشاعر أن يحرك فينا الخيال بواسطة الألفاظ ، أى أن يكشف لنا عن « الصور » ، وذلك بأن يبين لنا بالمثل ما هى الحياة .

وما هو العالم : ولهذا كان شرطاً ضرورياً أن يكون قد أدرك ماهى الحياة :
وما هو العالم . فبقدر ما يكون على علم بكليهما تكون منزلته فى الشعر .
ولهذا توجد درجات لا حصر لها للشعراء كما لعمق إدراك طبيعة الأشياء .
ووضوحها . وكل شاعر يمكن أن يمد نفسه قديراً إذا استطاع بدقة أن
يصور ما أدركه بحيث تنطبق الصورة على الأصل . ويمكن الشاعر العظيم
أن يرى نفسه عظيماً إذا ما قارن نفسه بغيره فوجد هؤلاء ذوى نظرة سطحية
وغور ضحل . وله أن يفخر بنفسه ولا يستمع إلى من يطالبونه بالتواضع ،
إذ ليس من الممكن ألا يدرك صاحب الموهبة موهبته ، كما أن من طوله ست
أقدام لا يمكن ألا يلاحظ أنه أطول من غيره . وهوراس ولوكرتيوس
وأوفيد ومعظم القدماء قد افتخروا بمواهب أنفسهم ، وكذلك فعل بين
المحدثين دانتة وشيكسبير وبيكون . أما أن يكون المرء ذا عقل وموهبة
عظيمين ولا يتبين ذلك فإن هذا أمرٌ غير معقول ، ولا يطالب من هذا شأنه
أن يكون متواضعا غير أولئك الذين يريدون أن يغزوا أنفسهم عن عجزهم
وإفلاسهم . وقد تمك أحد الانجليز قائلاً إنه لا يوجد بين كلمتى *modesty* *merit*
شئٌ مشترك غير أن كلتا الكلمتين تبدأ بحرف M . وقد قال كورنى الشاعر
الفرنسى العظيم : « إن التواضع الزائف يرفع كل ثقة : فأنا أعرف قيمتى ،
وأعتقد ما يقوله عنها الآخرون » ، وقال جيته بكل صراحة : « الصعاليك
وحدهم هم المتواضعون » . ذلك أن لديه مواهب ومناقب ، يقدر
مواهب الغير ومناقبهم ، ويفهم نفسه جيداً . أما الذى يفتقر إلى المواهب
والمناقب فإنه يود ألا توجد أية مواهب أو مناقب ، ونظرته إلى الغير تملأ
نفسه بالعذاب : لأن الحسد الباهت الأخضر الأصفر يأكل قلبه ، ولهذا
يود أن يحطم كل تفوق وامتنياز ؛ فاذا اضطر رغم أنفه أن يسلم بوجود
التفوق والمواهب الممتازة ، فإنه لا يسلم بذلك إلا بشرط سترها وإخفائها .

بل والتنصل منها وإنكارها والبراءة منها كأنها جرائم وكبائر ! وهذا هو الذى يفسر انتشار إطراء التواضع وعد التواضع فضيلة حميدة .

وعرض الشاعر « لصورة » الإنسانية ، يمكن أن يتم : إما بأن يكون المعروض والعارض شيئاً واحداً : وهذا هو الذى يحدث فى الشعر الغنائى ، ففيه يعرض الشاعر أحواله وعواطفه وانفعالاته ، ومن هنا كان من جوهر هذا الشعر الذاتية ، — وإما أن يكون العارض والمعروض مختلفين تماماً ، كما هو الشأن فى سائر فنون الشعر ، إذ يختفى العارض وراء المعروض وأحياناً يزول تماماً . وفى الشعر الرومانسى يعبر الشاعر عن حالته بالنغم والموقف الكلى : وهو أوفر من الأغنية قدراً من الموضوعية ، ولكنه مع ذلك ينطوى على جانب ذاتى ، وهذا الجانب الذاتى يقل أكثر فأكثر فى الشعر المسمى Idyll ، ويتضاءل أكثر فى القصة ، ويتضاءل أكثر وأكثر فى الملحمة ، ويكاد لا يعثر له على أثر فى الدراما ، ولهذا فإن الدراما أكثر الفنون الشعرية موضوعية ، ومن نواح عديدة تعدأ كلها وأصعبها . وهكذا نرى أن للشعر ثلاثة أنواع : الغنائى والملحمى والدرامى . وهذه الأنواع بمثابة درجات متصاعدة حسب الأهمية والموضوعية وتتنازل وفقاً للفردية والمشاعر الذاتية . إذ الشعر يرتفع من عرض الأحوال الفردية العاطفية إلى النموذج الأعلى الإنسانية الكلية : فهو فى المرحلة الدنيا مرآة للذات الفردية ، وهو فى المرحلة العليا مرآة للعالم والإنسانية : والأولى مرحلة الشعر الغنائى . والمرحلة العليا هى مرحلة الشعر الدرامى : فالشعر الغنائى مرآة للذات الفردية ، والشعر الدرامى مرآة للذات الإنسانية العالمية . ولقد صدق هاملت حين قال : « إن هدف المسرحية أن تضع أمام الطبيعة المرأة ، وأمام الفضيلة ملامحها ، وأمام العار صورته ، وأمام العصر والزمان نسخة محاكية لوجهه » .

هيجل والشعر

الشعر في منزلة وسط بين الفنون التشكيلية وبين الموسيقى ، إنه تركيب جامع بينهما يرفعهما إلى مستوى أعلى ، هو مستوى الباطن الروحي . فالشعر يشارك الموسيقى في أنه يقوم على مبدأ إدراك الباطن بالباطن ، وهو مبدأ يفتقر إليه المعمار والنحت والتصوير ، والشعر من ناحية أخرى ينمو حتى يؤلف مع الامتثالات والعيانات والعواطف الباطنة ، يؤلف عالماً موضوعياً يفوق دقة النحت والتصوير . ثم إن الشعر أقدر من سائر الفنون على التعبير — على نحو أكمل — عن كلية الحادث والسرد التام للحركات الباطنة والانفعالات والامتثالات وتطور مراحل الفعل .

إن مبدأ الشعر هو الروحية . لكنه بدلا من أن يستعين بالمادة الثقيلة لإعطاء الباطن جواً رمزياً ، مثل المعمار ، وبدلاً من أن ينحت في المادة الحقيقية امتثالا خارجياً ومكانياً للروح كما يفعل النحت ، نجده يصور الروح من أجل الروح ، دون أن يضفي على تعبيراته شكلاً مرئياً جسمى . والشعر أيضاً قادر على التعبير ليس فقط عن الباطن الدقي بل وأيضاً عن خصائص الحياة الخارجية على نحو أكمل وأشمل من الموسيقى والتصوير . إنه في آن واحد : تركيبى ، بمعنى أنه قادر على أن يجمع في حزمة واحدة عناصر الباطن الذاتي ، — وتحليلي بمعنى أنه قادر على تقرير خصائص العالم الخارجي عرضاً بأن يضعها بعضها إلى جانب بعض .

لكن الشعر يمتاز من سائر الفنون بقدرته على التعبير عن أى مضمون كائناً ما كان . صحيح أنه لا يملك الدقة التي يملكها الإدراك الحسى المتمثل في أعمال النحت والمعمار والتصوير ، وصحيح أن الملاحم الخلفة التي يستعين بها

الشعر لجعل الشكل العيني لمضمون ما مدركا - نقول إن هذه الملاح لا تؤلف شكلاً واحداً ، كما في التصوير حيث التفاصيل تقدم كلها دفعة واحدة وفي وقت واحد ، أما في الشعر فإنها تسرد منفصلة متوالية ، ولهذا لا يملك الشعر إلا التعبير عن العناصر على الولاء الواحد بعد الآخر . لكن هذه النقائص من نوع حسى خالص ويمكن الروح أن تتلافها . ذلك أن القول لا يقتصر على تقديم المضمون وكأنه ميسور للتأمل الخارجى فحسب ، بل هو فضلا عن ذلك يهيب بالباطن فينا ، بالعيان الروحى ، وينتج عن هذا أنه ولو أن الملاح المختلفة تقدم على الولاء ، فإنها تنتهى بالتجمع فى النفس التى هى فى هوية دائمة مع ذاتها ، وفى وسعها أن تقضى على فواصل التوالى ، وأن تحشد فى لوحة واحدة كل التفاصيل للتتالية . ومن ناحية أخرى نجد أن افتقار الشعر إلى الإدراك الحسى والدقة الخارجية المتمثلين فى التصوير ، هذا الافتقار هو نفسه علة ثراء لا حده . ذلك أن الشعر لا يحد بمكان معين ، ولا بلحظة معينة أو موقف معين ، بل هو قادر على تمثيل الشئ بكل عمقه الباطن وبكل سعته وعرضه الممتد فى الزمان .

والشعر يتميز من الموسيقى ، رغم اشتراكهما فى المادة وهى الأصوات ، من حيث أن الموسيقى تقتصر على الباطن ولا تتجاوزه إلى خارج الصوت . فالموسيقى تتوقف عن إعطاء النفس صورة مرئية محسوسة حاضرة ، إلى جانب التعبير الصوتى اللامادى تقريباً ، أما الشعر فيريد أن يتحقق بكامله ، مختلطاً بمضمون النفس كما يتكون فى الخيال .

وبعد أن يميز هيجل بين الشعر وسائر الفنون يتساءل عن خاصية الشعر فيجدها أولاً فى كون التعبير الخارجى للمضمون الشعرى يرد إلى أقل درجة ، إن لم يكن إلى الصفر . إنما خاصية الشعر أن يعبر عن العيان الباطن فتتخذ الأشكال الروحية مكان المحسوس وتقدم المواد التى يراد تشكيلها .

أما عن ماهية الشعر فهو كسائر الفنون تعبير عن الجمال كله في جانبه الأكثر روحية . فمضمون الشعر ليس الأمور الطبيعية : بل موضوعه هو المعانى الروحية التى تنطوى عليها الأمور الطبيعية . إن موضوع الشعر ليس هو الشمس والجبال والغابة والمناظر ، ولا القسمات والأشكال الإنسانية الخارجية بل المعانى الروحية الكامنة فيها . وحتى لو أهاب بالعيان والإدراك ، فإنه يظل محتفظاً بطابعه الروحى ولا يعمل إلا من أجل الوجدان الباطن . ونسبته إلى الروحى أكبر من نسبه إلى الموضوعات الخارجية في مظهرها الحسى العيى . وعلى هذا فإن هذا المضمون ، أعنى الأمور الطبيعية أو الإنسانية الخارجية المادية ، لا يدخل في مجال الشعر إلا بالقدر الذى تجد فيه الروح دافعاً لنشاطها أو مواد لانفعالها ؛ إنها تدخل في الشعر بوصفها الإطار الذى يحول فيه الانسان ، لكنه إطار يستمد كل قيمته من علاقاته بباطن الشعور ، دون أن يوحى لنفسه منزلة الموضوع الوحيد للشعر . فإن موضوع الشعر هو الملكوت اللامتناهى للروح . ومن هنا كانت مهمة الشعر الرئيسية هى أن يستثير في الشعور قوى الحياة الروحية وكل ما يهزنا ويحركنا في العواطف والمشاعر الإنسانية ، أى الملكوت اللامتناهى للامتثالات والأفعال والمشروعات والمصائر الإنسانية وسير الدنيا وأحداثها والطريقة التى على نحوها تسيطر عليها الآلهة وتوجهها . ولهذا كان دائماً ، ولا يزال حتى اليوم ، ينبوع الذى يرتوى منه عطش الإنسان للمعرفة ورغبته في التعلم .

والشعر أقدم من النثر . إنه يعبر عن الامتثال التلقائى للحق ، إنه معرفة لا تفصل بعد بين الكلى وبين مظاهره الحية الجزئية ، ولا الناموس عن تطبيقاته ، ولا الهدف عن الوسيلة ، بل يتصور كل حد من هذه الحدود من خلال الحد المقابل .

والشعر يصور كل شىء على شكل كل مستقل مقفل ، يمكن أن يحتوى

على مضمون غنى جداً وأن يشتمل على كثرة من الظروف والأفراد والأفعال. والأحداث والعواطف والامتنالات ، لكن ينبغي عليه أن يصور هذا الحشد الهائل من الخصائص والجزئيات على أنها تتوقف على مبدأ واحد ليست كل هذه الجزئيات غير فيوض صادرة عنه . ولهذا فإن السكلى والعام والعقل لا يظهر فى الشعر على هيئة عموم مجرد أو تركيب فلسفى أو تنوع متعدد المظاهر يصنع العقل منها روابط ، بل يبدو ما هو كلى و عام وعقلى على أنه شئ "حى" ، ذو وحدة تؤثر فى كل أجزائه ، وتفعل فعلها فيه من الباطن .

ولما كان موضوع الشعر ليس السكليات والعموميات المجردة العلمية ، بل الفردى العينى ، فإنه يجد تحديده الرئيسى فى الطابع القومى الصادر هو عنه ، فتصبح طرائق هذا الطابع القومى هى طرائقه ، ولهذا يخوض الشعر فى عدد هائل من الجزئيات والخصائص . فالشعر الشرقى والإيطالى والأسبانى والانجليزى . واللاتينى واليونانى والألمانى يختلف بعضه عن بعض بالروح ، والعاطفة ، والنظرة إلى العالم ، والتعبير ، الخ .

كما أن الشعر يختلف طبيعته وفقاً للعصور ، فلكل عصر شعره ، ولا يمكن أن يكون له شعر غيره . فالشعر الألمانى اليوم مثلاً ما كان يمكن أن يكون كذلك فى العصر الوسيط أو فى عصر حرب الثلاثين عاماً . فالتحديدات التى تهمنا اليوم إلى أقصى درجة تؤلف جزءاً من مرحلة التطور التى فيها عصرنا . هذا ، وهكذا نجد أن لكل عصر حساسته الخاصة ، وطريقته الخاصة فى النظر إلى العالم ، مما يجد أوضح وأكمل تعبير عنه فى الشعر .

ومن بين هذه الخصائص القومية وطرائق التفكير التى تختلف من عصر إلى عصر والنظرات فى العالم المتباينة ، نقول إن من بينها ما هو أكثر شعرية من غيره . ولهذا نجد على وجه العموم أن الشعور الشرقى أحفل بالشاعرية

من الشعور الغربى ، فيما عدا عند اليونان . إن غير المنفصل ، والثابت والواحد والجوهري ، هو الذى يلعب الدور الرئيسى فى الشرق ، وهذه الطريقة فى النظر إلى الأمور ، وإن لم تصل إلى حرية المثل الأعلى ، فإنها يمكن ويجب أن ننظر إليها على أنها الطريقة المثلى والأكمل . أما الغرب فعلى العكس من ذلك ، هكذا يقول هيجل ، ينصرف خصوصا فى آخر أيامه ، إلى تشتيت وتجزئ اللامتناهى إلى غير نهاية . وبفضل رد كل الأشياء إلى نقط منعزلة فإن المتناهى يتخذ فى الامتثال طابعا مستقلا ، مما لا يعنى من ضرورة رده إلى ما هو نسبي ؛ أما الشرق فلا شىء فى نظره مستقل بذاته ، بل كل شىء يبدو كأنه عرض من أعراض الواحد . والمطلق يندرج فيه وفيه يجد السبب الأعلى لوجوده .

ولكن رغم هذه الفروق بين الشعوب ، فإن شعر كل شعب وشعر كل عصر يتضمن عنصراً معقولاً يعقله سائر الشعوب وسائر العصور ، عنصراً يؤلف مصدر المتعة لكل إنسان إلى أى عنصر انتسب : إنه عنصر عام لأنه إنسانى ، ولأنه يشارك فى ماهية الفن . ولهذا السبب ظل الشعر اليونانى موضوع إعجاب باستمرار ونموذجاً يحتذى ، إما فى مضمونه أو فى شكله الفنى . وحتى الشعر الهندى ، رغم اختلاف النظرة إلى العالم التى تكن وراءه عن نظرنا نحن إلى العالم ، فانه ليس غريباً عنا كل الغرابة ، بل نفهمه ونقدره وتذوقه . وإنه لمن أكبر مزايا هذا العصر — عصر هيجل — أنه ينمو شيئاً فشيئاً نحو تمثل كل ثروة الفن وكل نتاج الروح الانسانية ، عن أى شعب صدر وإلى أى عصر انتسب .

* * *

أما العمل الفنى الشعرى بوجه عام فينبغى فيه أن يبدو على هيئة كل
(م ١٠ — الأدب الاوروبى)

عضوى مقفل محدود كامل فى كل أجزائه. وهذا الشرط لا يمكن أن يتحقق إلا على النحو التالى :

فأولا ينبغى فى كل ما يقدر له أن يؤلف المضمون الرئيسى للعمل الفنى الشعرى، سواء أكان فعلاً أو مغامرة أو عاطفة أو وجدانا ، نقول إنه ينبغى أن يكون ذا وحدة باطنة . وماحوله ينبغى أن يعود إلى هذه الوحدة وأن يكون معها على علاقة عينية حرة . لكن يلاحظ مع ذلك أنه بالنسبة إلى التصور والخلق الشعرين فإن كل جزء وكل لحظة له قيمته فى ذاته وله حياته الذاتية . ولهذا نرى الشعر يلذ له أن يهتم بما هو جزئى ، ويرسمه بولع ، وينظر إليه على أنه كل فى ذاته . وبهذه الناحية يحصل العمل الفنى الشعرى على لون من الاستقلال ؛ وليس فى هذا تناقض مع الشرط الأول وهو الوحدة، لأنه ليس المقصود باستقلال الجزئيات انفصالها بحيث تتنافر مع الكل ، أى تتنافر فيما بينها ، بل يقصد فقط أن يكون ثم تمايز إلى الدرجة التى ترينا أن الأجزاء المختلفة وضعت لذاتها ، وأن لها حياتها الخاصة الذاتية ، وأنها تستطيع أن تقوم بنفسها دون أن تنفصل عن الكل . ذلك لأنه لا بد من هذا اللون من الاستقلال من أجل إضفاء حياة حقيقية على العمل الفنى .

وكل عمل فنى شعرى هو كائن عضوى لامتناه فى ذاته ، غنى فى مضمونه ، ويعبر خارجياً عن هذا المضمون بمعونة التعبيرات للملائمة ؛ إن فيه وحدة ، ولكنها وحدة فيها الجزئى بدلا من أن يكون فى حال من التبعية المجردة يملك نفس الاستقلال الحى الذى يملكه الكل ، ويتحقق دون أى عرض ظاهر ، أى منفعة معلومة ؛ إنه غنى بالمادة التى استمدتها من الحقيقة الواقعية ، لكنه برىء من كل اعتماد على هذا المضمون ، وعلى أى ميدان معين من ميادين الحياة . وبالجمله فإن العمل الفنى الشعرى يخلق بكل حرية ، ابتغاء أن يفضى ، على أكمل وجه ممكن إلى تصور الأشياء ، وأن يحقق اتفاقاً بين الموجودات الخارجية وماهيتها الباطنة .

هيجل والموسيقى

تختلف الموسيقى عن سائر الفنون اختلافاً بيناً من حيث أداة التعبير ومداه «وما تكشف عنه - فالمعيار أشدّ الفنون نقصاً لأنه غير قادر على التعبير بدقة عما هو روحى ، بمعونة المادة الثقيلة التى يستخدمها، عنصراً حسيّاً يعالجه وفقاً لقوانين الثقل . والنحت ، وإن استهدف ما هو روحى ، فإنه لا ينظر إليه من حيث إنه ذو طابع خاص ، ولا من حيث إنه بطون ذاتى ولكن من حيث الفردية الحرة المنفصلة عن المضمون الجوهري وعن التعبير الجسماني عما هو روحى . والتصوير أدخل في ميدان ما هو روحى ، لأنه يعبر عن الذاتية الخاصة ، إذ هو لا يكتفى بالمادة الخاضعة لقوانين الثقل ، كالمعيار ، ولا بالمادة غير المتعينة كالنحت ، بل يتخذ المظهر أداة للتعبير ، خصوصاً المظهر المتولد عن الألوان . بيد أنه لا يستخدم اللون إلا لإظهار الأشكال المكانية كما توجد في الواقع الحى ، ثم يوغل في استخراج قوى اللون بحيث يصل إلى ما يمكن أن يسمى سحر الألوان الذى بفضل يكتفى ما هو موضوعى ، فلا يبدو الأثر صادراً عن شيء مادي . ورغم ذلك الأثر فأننا في ميدان التصوير لا نزال نتعلق بالمظاهر المكانية ، فليس ثم فيه إذن ذاتية خالصة . ولا بد للفن أن يتخلص مما هو ذو طبيعة دائمة ، مادة أو لوناً ، لكي يحقق هذه الذاتية الخاصة .

وهذا ما تفعله الموسيقى . ففيها لا تدخل عناصر دائمة تبدو كأن لها شخصية مستقلة قائمة برأسها ، بل عناصرها لا أقوام لها ، تختفى بمجرد استخدامها لأن النغمات والأصوات تزول فور التعبير عنها ولا يبقى منها شيء ، مما يجنبها كل استقلال موضوعى . ولهذا فإن الذاتية تظل كما هى حتى في تعبيرها بالموضوعى ، بحيث لا يكون للتعبير الموضوعى أى قيام بالذات .

« إن الموسيقى ، بفضل الصوت ، تنفصل عن الشكل الخارجى والمظهر المدرك ، وتحتاج ، لإدراك آثارها ، إلى عضو خاص هو السمع ، والسمع كالبصر لا يؤلف جزءاً من الحواس العملية ، بل هو حس نظرى ، وهو أوفر تصورية من البصر وذلك لأن التأمل الهادىء النزيه للأثار الفنية لا يحاول القضاء على الموضوعات ، بل يدعها باقية كماهى. ولهذا فإن ما يدرك بالبصر ليس ما هو صورى فى ذاته ، بل يتعلق بوجود المحسوس ؛ أما الأذن فإنها لا تتجه إلى الموضوعات بل تدرك نتائج ذلك الإدراك الباطن للجسم الذى به ينكشف تصور النفس انكشافاً أولياً ، ولا يتعلق بالشكل الخارجى المادى » (« علم الجمال » ، ج ٢ ، ص ٢٩٦ . باريس سنة ١٩٤٤ .)

فالصوت بطبعه مجرد ، وفى هذا يختلف كل الاختلاف عن اللون وعن المادة الغليظة . ولهذا يستطيع المرء بالحجر واللون أن يحاكي أشكال الأشياء كلها ، كما توجد فى الواقع ، أما الصوت فيستحيل عليه ذلك ، إنه لا يستطيع أن يعبر إلا عن الذاتية المجردة ، التى هى الانا الخاوى من كل مضمون. ولهذا فإن المهمة الأساسية للموسيقى هى جعل الانا أو الذات الباطنة تن رنيناً خاصاً ، وليست مهمتها محاكاة للموضوعات الواقعية . إنها تهز الذاتية العميقة والنفس التصورية .

ولهذا تتجه الموسيقى إلى الذاتية العميقة ؛ إنها الفن الذى يُستخدم للتأثير فى النفوس . صحيح أن التصوير يستطيع هو الآخر أن يعبر — بطريق الملامح والأشكال — عن أحوال النفس والمواقف التى توجد فيها والأحداث التى تكون هى مسرحها ، بيد أن ما نراه فى اللوحات ما هو إلا مظاهر موضوعية يدركها الانا من خارج ، إن صحّ هذا التعبير ، بوصفها أموراً متميزة منه .

ومهما حاول المرء أن يغوص فى أعماق الموقف أو الشخصية أو الشكل الذى

يعبر عنه التمثال ، ومهما حاول أن ينفذ في أعماق الأثر الفني وأن يتجاذب وإياه ، في نوع من الوجد شبيه بالوجد الصوفي الاتحادي فلن، يغير هذا كله من واقع الأمر شيئاً ، فإن هذه الآثار الفنية ، اللوحات والتمائيل ، تظل بالنسبة إلى المشاهد مجرد موضوعات خارجية عنه متميزة منه . أما في الموسيقى فليس هناك تمايز وانفصال بين القطعة الموسيقية ومن يسمعها . فمضمونها هو الذات في ذاته ، وتعبيرها الخارجي ليس فيه ثبات في المكان بل هو تخليق في الهواء لا تحمله إلا الذاتية الباطنة ولا يوجد إلا بها ومن أجملها . صحيح أن الأصوات تعبيرات خارجية ، لكنها تعبيرات خارجية تختفي بمجرد ظهورها ، بينما الألوان والأحجار تظل باقية . إن الأذن حالما تدرك الصور تختفي الصوت . والأثر الذي يتركه يستمر في الباطن فوراً ، والأصوات لا تجد لها أصداء إلا في أعماق صمات النفس وقد اهتزت ذاتيتها التصويرية .

وهذه الذاتية هي الجانب الشكلي في الموسيقى . وإذا كنا نتحدث عن مضمون في الموسيقى ، فليس ذلك بالمعنى الذي نقصده حينما نتحدث عن مضمون في الفنون التجسيمية أو الشعر ، لأن الموسيقى لا تنتهي إلى شيء موضوعي مثل الأشكال التي تصور ظواهر خارجية واقعية .

لكن ليس معنى هذا أن الموسيقى خالية من المضمون ، وإلا لما كانت - خليقة باسم الفن . بل لابد أن تقوم الموسيقى بالتعبير عما هو روحها من أجل أن تكون فناً . وهذا التعبير إما أن يصاغ في كلمات أو يستخلص من الروابط الانسجامية والميلودية . ولهذا فإن المهمة الرئيسية الخاصة بالموسيقى هي أن تقدم هذا المضمون للروح ، لا كما يوجد في الشعور العام ، لكن كما تدركه الذاتية الباطنة . فعلى الموسيقى أن تجعل حياة الأصوات ترن . والعنصر الأساسي في الذاتية الباطنة هو « العاطفة » .

ثم يتسع مجالها بحيث تصبح تعبيراً عن كل المواقف الخاصة ، وكل الفروق الدقيقة للسرور والبهجة والهوى وانتصار الروح ، وكل الفروق المتدرجة للقلق والضيق والحزن والشكوى والألم واليأس ، وكذلك درجات العبادة والتقدير والحب .

والصوت في أصله تعبير عن النفس ، فالآهات تعبيرات عن الذات . ولكن الآهات ليست في ذاتها موسيقى ، لأنها خالية من الإيقاع . فلا بد من الإيقاع والوزن ، لكي تستحيل الأصوات إلى موسيقى . وإذا كانت الأصوات أقدر من سائر العناصر الحسية على التعبير عن الجوهر البسيط الباطن للمضمون ، فما ذلك إلا لأن الصوت من ميدان الزمان ، وهو بالتالي لا يتضمن فارقاً بين الذاتية البسيطة والشكل الجسماني .

والموسيقى تدرك الشعور الباطن للذات ، وعن هذا الطريق تحرك مسرح التغيرات الباطنة ، أي القلب والنفس ، أي المركز البسيط الذي يتجمع عنده الإنسان كله .

وقد قلنا إن الزمان هو العنصر الرئيسي في الموسيقى ، ذلك أن الموسيقى لا تحدث الأصوات إلا بإثارة حركة ذبذبة في الأجسام المرصوفة في المكان . وهذه الذبذبة لا تدخل الفن إلا من خلال التتابع ، حتى إن الأجسام لا تشارك في الموسيقى من حيث شكلها المكاني ، ولسكن من حيث حركاتها في الزمان ومن حيث مدة هذه الحركات . لكن الموسيقى لا تدع الزمان يجري في تسلسله كما يشاء ، بل لابد لها أن تخضعه لوزن وإيقاع .

ويتلو الزمان في الأهمية الانسجام ، ويقصد به الروابط التي تحكم عالم الأصوات وفقاً لقانون دقيق . ذلك أن لكل آلة خصائصها الصوتية .

ابتداءً من الصوت الإنساني حتى الكمان . وعلى الموسيقى أن تفيد من كل آلة : إما على حدة ، وإما بالوفاق فيما بينها . وتحقيق الوفاق بين مختلف الآلات تعترضه صعوبات عديدة ، لأن لكل آلة - كما قلنا - خصائص قد لا تتفق مع خصائص آلة أخرى ، ولهذا يحتاج إلى مهارة عظيمة جداً تتناول معرفة كل آلة وما تؤديه . ويقول هيجل إنه لدى سماعه لسمفونيات موتسارت كان يشعر بأنه أمام حوار درامي ، حوار بين مختلف الآلات ، فيه أحياناً تنمو مجموعة من الآلات بينما المجموعة الأخرى تشير مجرد إشارة ، وأحياناً ترد مجموعة على مجموعة أخرى وينشأ عن هذا كله تبادل جذاب لذيذ بين الأصوات وقراراتها ، بين الابتداء آت والاستثناءات ، بين ألوان التقدم وأنواع الحشو المكمل .

والعنصر الثالث هو الميلوديا ، وهي الجانب الشعري السامي في الموسيقى الذي فيه يتخذ الإبداع الفني كامل حريته . فإن الميلوديا تخلق فوق الوزن والايقاع والانسجام ، بيد أنها لا تملك من وسائل التحقيق غير حركات الأصوات الايقاعية الموزونة في روابطها الجوهرية الضرورية .

وخصائص الميلوديا تنحصر فيما يلي : فالميلوديا ، فيما يتصل بتسللها الانسجامي قد تقتصر أولاً على مجموعة بسيطة جداً من التوافق والتنوع في النغمة ، ليس فيها تعارض . ومن هذا النوع ميلوديات الاغانى Lieder . وقد تتسع الميلوديا فتتزايد كل نغمة فيها إلى أن تصبح توافقاً كبيراً ، وبهذا تكتسب ثروة عظيمة من الأنغام ، وتحقيق بالانسجام تداخلاً يفسر معه التمييز بين الملوديا بالمعنى الدقيق وبين الانسجام الذي لا يعطى في الواقع غير نقط ارتسكان ويكون بمثابة أرض وأساس تنشأ عليهما الميلوديا . هنالك يؤلف الانسجام والميلوديا كلا واحداً متماسكاً ، وكل تغير في الواحد يجر بالضرورة إلى تغير في الآخر ، كما هي الحال في الكورال ذي الأربعة أصوات . كما أن الميلوديا

ذات الأصوات العديدة يمكن أن تتعقد بحيث تتخذ شكل التوالى الانسجamy أو تتداخل فيما بين بعضها وببعض، بحيث يؤدي التلاقى إلى انسجام، كما هو مشاهد في تأليف يوهان سبستيان باخ Bach .

والموسيقى إما أن تتبع نصاً معيناً تنقيد به ، وإما أن تطلق لنفسها العنان في الإبداع . غير أن التمسك بنص يجعل الموسيقى تخرص على مضمون معين . والنص يقدم امثالات دقيقة وينزع الشعور من المشاعر الغامضة والأحلام الخالية من المضمون التي ينساق إليها . غير أن هذا التقيد بنص ليس معناه أن تصبح الموسيقى عبدة له وتتخلى عن كل حرية في حركاتها الذاتية ، وإلا فإنها لا تخلق عملاً يكتفى نفسه بنفسه ، بل يقتصر على الاستخدام العقلي، المصطنع ، لوسائل التعبير الموسيقية من أجل الترجمة الآمنة عن مضمون خارج عنها . غير أن هذا يجب ألا يحملنا على الدعوة إلى التحرر التام من مضمون النص ، كما فعل المؤلفون الموسيقيون الإيطاليون في عصر هيجل . وإنما الفن كل الفن في النفود إلى معنى الكلمات والمواقف والأفعال الموصوفة في النص ، ثم ترك النفس على سجيته يتدفق فيها التعبير الموسيقي فهذا شأن كبار مؤلفي الموسيقى إنهم لا يضيفون شيئاً غريباً عن الكلمات ، بيد أنهم لا يعوقون بذلك الانطلاق الحر للأصوات والسورة الحرة للتأليف .

والموسيقى المصاحبة ذات أنواع ثلاثة . الأول هو ما يمكن أن يسمى بالموسيقى الدينية ، وهي التي لا تعبر عن عاطفة ذاتية فردية ، بل عن مضمون جوهرى لكل عاطفة ، أو عن العاطفة العامة عند جماعة معينة ، وغالباً ما تتخذ طابعاً ملحمياً ، وإن كانت لا تعبر عن حادثة بوصفها حادثة . وهذه الموسيقى الدينية بالغة العمق والتأثير . والمثل الأبرز لهذه الموسيقى هو موسيقى سبستيان باخ الذي بلغ درجة فائقة من عمق العاطفة الدينية وإتقان فن

«الموسيقى وغنى الإبداع الفنى . وتمتاز الموسيقى البروتستنتية ، التى يمثلها خصوصاً باخ ، من الموسيقى الكاثوليكية بالأوراتوريو oratorio المستمد من أعياد آلام المسيح .

والنوع الثانى هو الموسيقى الغنائية lyrique ، وهى تعبر ميلودياً عن الأحوال الفردية للنفس ، وينبغى أن تكون بعيدة - قدر المستطاع - عما هو خطابى إلقائى déclamatoire .

والنوع الثالث هو الموسيقى الدرامية ، وهى التى تعبر عن الوجدانات الصاخبة العنيفة التى لا تعرف بداية ولا نهاية ، وعن النقائص الباطنة غير القابلة للحل ، وعن ألوان التمزق العميق للروح ، مما هو موضوع الطراغوديات أو المأسى المسرحية .

وإلى جانب هذه الموسيقى المصاحبة توجد موسيقى مستقلة قائمة برأسها ، هى تلك التى نجدها فى الرباعيات والخماسيات والسداسيات والسمفونيات ؛ وهى موسيقى إما تستخدم بضع آلات قليلة ، أو تستخدم أوركسترا بأكملها ولا تبدأ من نص ، ولا تستخدم صوتاً إنسانياً ، ولا تتابع سيراً من الامتثالات . والتصورات ، بل تتوجه إلى الحساسية المجردة العامة . وما يميز هذه الموسيقى هو الجيئة والذهاب ، والصعود والنزول فى الحركات الانسجامية والميلودية والتقدم المتفاوت والنفوذ العميق أو الجاد أحياناً ، أو التطور الهادئ الرقيق السائل أحياناً أخرى ؛ وبالجملّة تتميز هذه الموسيقى المستقلة بأنها استغلال عميق لميلوديا بكل وسائل الموسيقى وبالتأليف البارع بين أصوات الآلات ، وبالتقابل والتبادل .

تلك خلاصة نظرية هيكل فى الموسيقى ، هذا الفن المعبر عن الذاتية الباطنة وعن أعماق الروح الانسانية .

شوبنهور والموسيقى

الموسيقى عند شوبنهور « فن مستقل بذاته عن بقية الفنون كلها تمام الاستقلال . ففيها لا نجد تقليد أو تكرار أية صورة للكائنات الموجودة . في العالم . ولكن لها مع ذلك من الجلال والروعة ، وقوة التأثير في أعماق الانسان ، والنفوذ إلى أخفى خفايا ، وكأنها لغة عامة كل العموم ، قد فاقت في وضوحها العالم المرئي نفسه - ما يجعلنا نعدّها المعبر الأكبر عن جوهر الوجود وحقيقة العالم » .

ذلك لأن الموسيقى هي وحدها ، من بين الفنون ، التي تعبر عن الوجود في وحدته المطلقة ، لاعن هذا الجزء أو ذاك كما تفعل بقية الفنون ، فإن هذه إنما تعبر عن صور متعددة جزئية للوجود ، الذي هو الارادة المطلقة الكلية كما تتحقق في الظواهر ؛ ولا تستطيع أن تدرك الوجود ككل واحد تسوده . إرادة واحدة ، بل يتعلق كل فن منها بطائفة من الظواهر التي يتكون منها هذا العالم المحسوس . أما الموسيقى فتجاوز الصور ، هذا المظهر الأول للتحقق . الموضوعي للإرادة ، إلى الارادة نفسها في أعماقها وجوهرها وأدق مضمونها وخفاياها ، وتعبّر عن هذه الارادة مباشرة ، لا في صور منعزلة مفردة ، بل في كل وحدتها المطلقة . إنها تصوير دقيق شامل لإرادة الحياة ، التي هي الوجود ، تصوير لها في مداها وجزرها ، وضلالها وهداها ، ومتناقضاتها وأحوالها المضطربة المتغيرة ، ونزعاتها إلى الهدم وإلى البناء .

ذلك أن التحقق الموضوعي الموافق المطابق للإرادة هو الصور الافلاطونية . والغاية من سائر الفنون هي إدراك « الصور » عن طريق تصوير الأشياء الجزئية ، لأن هذه هي الآثار الفنية . فالفنون كلها لا تعبر عن الارادة

إلا بطريقة غير مباشرة ، أعنى عن طريق « الصور » . ولما كان هذا العالم ليس شيئاً آخر غير ظهور الصور في الكثرة ، وذلك بالدخول في مبدأ الفردية ، فإن للموسيقى ، وهي تتجاوز عن « الصور » ، مستقلة عن عالم الظواهر ، بل إنها تتجاهله ، وهو أمر لا تستطيع أن تفعله الفنون الأخرى : وذلك لأن الموسيقى تحقيق موضوعي مباشر للإرادة كلها ومحاكاة لها ، بوصف الإرادة هي العالم نفسه ، وهي « الصور » عينها التي بمظاهرها للموضوعية المتعددة تؤلف عالم الجزئيات . وعلى هذا فإن الموسيقى ليست محاكاة للصور ، كما هو شأن باقي الفنون ؛ بل هي محاكاة للإرادة ذاتها . ومن هنا كان تأثير الموسيقى أقوى وأعمق نفوذاً من تأثير سائر الفنون ، لأن الموسيقى تعبر عن الجوهر بينما سائر الفنون تعبر عن الظلال والأشباح . ولكن لما كانت الإرادة التي تعبر عنها الموسيقى ، والإرادة التي تمثلها « الصور » هي نفس الإرادة ، وإنما الاختلاف في طريقة التحقيق الموضوعي ، فانه ينبغى أن يكون ثم تشابه مباشر ، بل توازن وتماثل بين الموسيقى وبين « الصور » التي تظهر في كثرة العالم المرئي ونقصاته .

ويرى شونهور في درجات السلم الموسيقي ما يناظر درجات تحقق الإرادة في الوجود . فالنغمات الدنيا في الانسجام تمثل الدرجات الدنيا في التحقيق الموضوعي للإرادة ، أعنى الطبيعة غير العضوية ، أي كتلة الكواكب . والنغمات العليا ينبغى أن ينظر إليها على أنها نشأت عن الدبذبات الفرعية للنغمة الأساسية العميقة ، وإنه لقانون من قوانين الانسجام أنه لا يوجد فوق النغمات الدنيا نغمات أعلى غير تلك التي تستخلص من الدبذبات الفرعية . وكذلك الحال في الكائنات : نجد لها كلها ناشئة عن تطور من كتلة الكواكب . والعمق له حد يتجاوزه لا يمكن سماع نغمة ، وهذا يماثل ما نجده في الطبيعة من أنه لا يمكن إدراك مادة بدون صورة وكيفية ، أي بدون تعبير عن قوة .

لا يمكن تفسيرها ؛ وكما أن كل نعمة ترتبط بها درجة معينة من الارتفاع ،
فكذلك المادة ترتبط بها درجة معينة من التعبير عن الإرادة . وعلى هذا
فإن النعمة الأساسية الدنيا في الانسجام تماثل المادة الخام ، في عالم الطبيعة
الاعضوية ، وهذه المادة الخام يقوم عليها كل شيء ، ومنها ينشأ وينمو
ويتطور .

والقريب من « الباص » يماثل المرحلة الدنيا المتحققة على صور عديدة
وإن كانت لا تزال من المادة الاعضوية ؛ والأعلى منه يماثل النبات ثم الحيوان .
والقواصل بين السلام للموسيقية تماثل درجات تحقق الإرادة ، أعنى الأنواع
والأجناس المختلفة في الطبيعة . والانحراف عن الدقة الحسابية للقواصل
الموسيقية ، إما بسبب المزاج أو النعمة المختارة ، يماثل انحراف الفرد عن
النوع أو الجنس . والنغمات الفاسدة التي لا تبني على فواصل معلومة تماثل
المسوخ المتولدة من نوعين من الحيوان ، أو من حيوان وإنسان . بيد أن
هذه النغمات كلها ، التي تؤلف الانسجام ، ينقصها ذلك التماسك في التقدم
الذي لا يوجد إلا في الصوت المغنى للميلوديا ، والذي يتحرك في تنغمات .
فـ « الباص » الأدنى يتحرك ببطء أشد ، وصعوده ونزوله يتم في درجات
كثيرة ، في الثلاثيات والرابعيات والخماسيات ، لافي فارق النعمة الواحدة .
وهذا البطء في السلم له ما يناظره في العالم الفزيائي . وأسرع منه النغمات
العليا ، التي تناظر عالم الحيوان .

والميلوديا ، التي تكشف عن فكرة متماسكة من البداية حتى النهاية ،
تماثل أعلى درجات تحقق الإرادة الموضوعي ، وتماثل الحياة العاقلة وسعى
الإنسان . وكما أن جوهر الإنسان يقوم في سعى إرادته سعياً يكلل حيناً
بالبجاح ، وحيناً آخر ينتهى بالاختناق ، حتى إن حياة الإنسان تتمضى بين

تحقيق وإخفاق ، ورضا وسخط ، فكذلك الميلوديا هي سير من النعمة الأساسية في طرق متعددة ملتوية أحياناً ، مستقيمة أحياناً أخرى . فالميلوديا تعبر عن السعى المتعدد للإرادة . والكشف عن الميلوديا وعن الأسرار العميقة للإرادة والشعور الانسانيين هو عمل العبقريّة . والمؤلف الموسيقى يكشف عن الجوهر الباطن للعالم ويفصح عن الحكمة العميقة بلغة لا يفهمها عقله ، وشأنه في هذا شبيه بالماشى في نومه الذي يكشف عن أمور لا علم له بها وهو واع . ولهذا فإن الانسان ، في المؤلف الموسيقى ، منفصل تماماً عن الفنان ، على نحو أبرز منه عند أى فنان آخر .

وبما أن الانتقال السريع من الرغبة إلى إرضائها ؛ ومن إرضائها إلى رغبة جديدة - يؤدي إلى السعادة والرضا ، فكذلك نجد الميلوديات السريعة الخالية من الانحرافات الكبيرة - داعية إلى البهجة . أما المنافرات البطيئة الراجعة إلى النعمة الأساسية فإنها تدعو إلى الأسى . والجمل القصيرة السريعة في الموسيقى الراقصة تتحدث عن السعادة ؛ أما الجمل الطويلة الكبيرة من نوع الأتعجل الجليل *allegro maestoso* فتدلل على سعى نبيل نحو هدف بعيد والأهم *adagio* يتحدث عن الألم الذي يعاينه سعى عظيم نبيل يزدري . كل سعادة تافهة . ما أروع تأثير المقام الكبير *majeure* والمقام الصغير *mineure* فالأداجيو يبلغ في المقام الصغير منزلة التعبير عن الألم العظيم ويستحيل إلى عويل يهز السكبان .

غير أنه يجب ألا ننسى ، ونحن نذكر كل ألوان التماثل بين نعمات الموسيقى وبين العالم الطبيعي ، أنه ليس تمت ارتباط بين الموسيقى وبين ظواهر العالم ؛ لأن الموسيقى ، لا تعبر عن ظواهر العالم ، بل عن جوهر الوجود الباطن ، عن الشيء في ذاته ، عن الإرادة نفسها . فالموسيقى لا تعبر عن هذا

السرور أو ذاك ، عن هذا الألم أو ذاك ، عن هذا الضيق أو الفرج أو ذاك ، عن هذا الرضا أو ذاك ، إنما تعبر عن السرور بما هو سرور ، والألم بما هو ألم . والضيق في ذاته والفرج في ذاته والرضا في ذاته . وهذا هو السبب في أن خيالنا يهتز بسهولة . فالموسيقى إذئذ إنما تعبر عن جوهر الحياة وجوهر أحداثها لأعن أحداث معينة جزئية .

ولهذا فإن الموسيقى التي تتمسك بالنص والحوادث تمسكاً شديداً هي موسيقى أخطأت هدفها . وهذا خطأ لم تبرأ منه موسيقى كما برئت موسيقى روسيني Rossini ، ولهذا نجد موسيقاه تعبر بلغة واضحة صافية لا تكاد تحتاج إلى كلمات ونصوص ، وتستطيع بالآلات وحدها أن تحدث كل آثارها .

ووفقاً لهذا كله نستطيع أن نقول إن الموسيقى والطبيعة تعبران مختلفتان عن شيء واحد هو إرادة الحياة . والموسيقى لغة عامة كل العموم ، موقفها من التصورات العامة كموقف هذه من الأشياء الجزئية . غير أن عمومها ليس « ذلك العموم الأجوف الذي للتجريد ، بل هو من نوع مختلف تماماً ، إذ هو مقرون بتمين واضح كل الوضوح . إنها تشبه الأشكال الهندسية والأعداد التي هي الأشكال العامة لكل موضوعات التجربة الممكنة ويمكن تطبيقها عليها بطريقة قبلية . وكل ألوان السعى والتأثر والتعبير عن الإرادة ، وكل الأحداث الجارية في باطن الإنسان ، يعبر عنها بالميلوديات العديدة اللامتناهية الأنواع ، لكن في عمومها ، في ذاتها - لا في مظاهرها ؛ في كيائها الروحي الباطن ، لا في جسميتها . وهذا يفسر لنا لماذا كانت للموسيقى المصاحبة للمناظر أو الأحداث أو البيئات أو الكلمات أبلغ تفسير لهذه الأمور ، يوضحها . ويزيد في تأثيرها . » لأن الموسيقى فن لا يلبث أن يكشف عن موارده وقوته الكبرى : فسرعان ما تجعلنا الموسيقى ننفذ إلى الأعماق النهائية

الخفية في العاطفة المعبر عنها بالألفاظ أو الفعل الممثل في الأوبرا ، وتزيل النقاب عن طبيعتها الحقيقية وجوهرها الصحيح ، بل وترفع السجاف عن روح الحوادث والوقائع نفسها ، بينما المسرح لا يقدم لنا غير الغطاء والجسم . ولهذا فإن تعبير الموسيقى يبلغ أوجه حينما يخلو من الألفاظ والمناظر والافعال وهو ما يتحقق في السيمفونيات على الوجه الاتم . فسيمفونية من سيمفونيات بهوفن مثلاً ، نرى فيها خليطاً هائلاً من الأصوات ، لكنه يقوم مع ذلك على أكمل نظام ، ونرى فيها تضالاً عنيفاً ينحل من بعد إلى أجل انسجام . وهى من أجل هذا أجل وأدق تعبير عن طبيعة الحياة التى تدور فى خليط عجيب من الصور الانهائية ، وتحفظ بكيانها بواسطة فناء للصور مستمر . وفيها نسمع أصوات جميع العواطف والانفعالات التى يمكن أن تختلج فى النفس الانسانية لكن بطريقة مجردة ، وكأنها عالم من الارواح الخالصة قد خلا من كل مادة أجل ، إننا نميل دائماً إلى الترجمة عنها فى صور محسوسة ، فيضفى الخيال عليها لباساً من الواقع ويخلع عليها اللحم والعظام ، ولكن هذا ليس من شأنه أن يجعل فهمنا لها أحسن ، ولا تذوقنا أكمل ، بل بالعكس ، نحن نحملها حينئذ بأشياء غريبة عنها ، تشوهها وتدنس طهارتها . فمن الخير لنا إذن أن نتذوقها خالصة طاهرة كأصوات مجردة من كل لباس محسوس .

وتذوقنا للموسيقى يتم دائماً فى الزمان وبواسطة الزمان ، بغض النظر عن المكان والعلية ، أى لا ندركها بالذهن ، لأن الأصوات تحدث أثرها الجمالى بتأثيرها الخالص دون أن نكون فى حاجة إلى الارتفاع إلى مصدرها وعلتها ، كما هى الحال فى العيان . فنحن نحس بتأثيرها ، ونشعر بما لهذا التأثير من متعة عظيمة ، ونجدها ترت فى أسماعنا وكأنها صدى انفرادوس مألوف لدينا ، ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نعلمها ونفسرها . والعلة فى ذلك أنها تصور لنا كل الحركات الخفية التى تهز بها كياننا ، دون ما يصاحبها

في الحياة الواقعية من آلام وعذاب ، وإنما هي حركات خالصة من كل إرادة ، وإن كانت تعبيراً عن كل الإرادة .

ولما كانت الموسيقى لاشأن لها بالتصورات المجردة ، لأنها بعيدة عن جوهرها ، فإن المضحك بعيد عن نطاقها ، لأن المضحك يقوم على أساس عدم التناسق أو على المفارقة بين الامتثال وبين التصور المجرد . ولهذا لا توجد موسيقى مضحكة . فالإرادة - والموسيقى تعبير عنها - جادة دائماً . وبفضل الموسيقى تسمو عواطفنا ، وبالتالي تملأ أهمية صور الحياة والفن . لأن الموسيقى تصور جوهرنا الباطن وتجعلنا ندركه . ومن هنا سحر الموسيقى الذي يهز قلوبنا .

إن مذهب شوبنهور في الموسيقى يتلخص في هذه العبارة التي قالها :
« إن الموسيقى ميلوديا ، كلماتها العالم كله » .

نيتشه والموسيقى

آراء نيتشه في الموسيقى متناثرة في مختلف كتبه لا يضم شملها فصل ولا كتاب ، ولا تنفرد بنفسها ، بل ترتبط بعرضه وتحليله لموسيقى فاجنر أو غيره من الموسيقيين . وأهم ما لدينا في هذا الباب ما نجده متفرقاً في كتاب «نشأة المأساة عن روح الموسيقى» ثم في كتبه الثلاثة عن فاجنر وهي : «رثرد فاجنر في بايروت» ، ثم «قضية فاجنر» ، و« نيتشه ضد فاجنر » . ولقد تطورت آراء نيتشه بعض التطور ، وإن كان الخيط الحادى فيها كلها واحداً ، وأعنى بذلك أن الموسيقى فن يعبر عن الروح الديونيزوسية في مقابل الروح الأبولوجية : والروح الأولى هي روح السكر والعريضة ، روح الفزع ، والتوثب ، والانطلاق العامر والشوق الغامر ، روح الاندفاع والتمرد والثورة ؛ أما الروح الأبولوجية فهي روح الوضوح والنور والنصاعة والهدوء والأثزان . والروح الأولى ، أعنى الديونيزوسية ، هي روح الطبيعة الأولية التي تنبثق عن حضن الطبيعة لإنها جماع غرائز الطبيعة وقواها .

ونيتشه يتصور فاجنر - في مرحلة إعجابه به - ممثلاً لهذه الروح الديونيزوسية ولهذا يصف فاجنر في كتابه « رثرد فاجنر في بايروت » بأنه كان يهدف إلى جعل كل ما في الطبيعة يتكلم ، حتى تلك الأشياء التي لم ترد من قبل أن تتكلم ، ذلك لأن فاجنر لا يعتقد أن في الطبيعة شيئاً أخرس أبكم ، ولهذا نراه يطلق الفجر والغابة والضباب والأغوار والقمم وقشعريرة الليل وضوء القمر - من صمتها ويجعلها تنطلق بالأغنام الرائعة التعبير النافذة المعانى . فإذا قال الفيلسوف - ويقصد به شوبنهاور - إن نمت إرادة تنزع إلى الوجود ، في الطبيعة الحية وغير الحية ، فإن الموسيقى (م ١١ - الادب الأوربى)

نضيف إلى ذلك : « وهذه الإرادة تريد في كل مراتبها وجوداً رناناً
ذا نغمت » .

لقد كانت الموسيقى قبل فاجنر ضيقة الحدود ، لأنها كانت تقتصر على
أحوال ثابتة في الإنسان ، هي ما يسميه اليونانيون باسم الايثوس Ethos
أي الطباع . وإنما بدأت الموسيقى بفضل بيتهوفن تترجم عن الوجدان
(البائوس) ، عن الإرادة الانفعالية ، عن الأحداث الدرامية في باطن الإنسان .
كان يتطلب من الأنغام أن تكشف عن حالات محددة واضحة ، وكان
يتطلب من تشابه الصورة وامتدادها أن تعطى للسامع المعنى الذي يستهدفه
من الموسيقى . ثم جاءت خطوة أخرى بأن كانت الحالات المتعارضة تدخل
في التعبير الموسيقي الواحدة تلو الأخرى ، وعن طريق التعارض تحدث الأثر
في النفس . وخطوة ثانية تمت بأن أصبح في القطعة الواحدة تعارض بين
الطباع والأحوال فيما بين بعضها وبعض ، مثلاً بالتنازع بين موضوع ذكوري
وآخر أنثوي . ولكن هذه الخطوات كلها كانت خطوات بدائية أولية
ساذجة . ثم جاء بيتهوفن فجعل الموسيقى تتكلم لغة جديدة ، هي لغة
الوجدانات التي كانت محرمة من قبل . غير أن فنه انبثق من قوانين فن
الطباع واصطلاحاته ، وكان عليه أن يبرر نفسه في مواجهته ؛ ولهذا فإن عمله
الفني ينطوي على صعوبة ذاتية فيه وغموض . ولهذا بدا وكأن بيتهوفن قد
وضع لنفسه هذه المهمة الحافلة بالتناقض ، مهمة جعل الوجدان يترجم عن
نفسه بأدوات الطباع . غير أن هذا التصور لم يكف إطاراً لأعمال بيتهوفن
العظيمة الأخيرة ولهذا اضطر إلى اتخاذ وسيلة جديدة للتعبير عن التوتر
الهائل في وجدانه ، وذلك بأن أخذ نقطة مفردة في مسار طيرانه ، وأشار
إليها بإشارات محددة ، حتى يمكن تقدير الخط العام من جانب السامع . ومن
الناحية الخارجية أخذ هذا الشكل الجديد صورة تجميع أو تأليف بين قطع

نغمية مختلفة ، كل منها يبدو في الظاهر أنه يعبر عن حال ثابتة ، ولكنه في حقيقة الأمر يعرض نظرة في التطور الدراى للوجدان .

وجاء فاجنر فبذل قصارى جهده لاكتشاف كل الوسائل المؤدية إلى خدمة الموضوع ؛ ومن أجل ذلك كان عليه أن يتخلص من كل مضايقات الموسيقى التقليدية وادما آتها ، وأن يجعل موسيقاه تعبر بكل جلاء عن عملية الوجدان والشعور . فاذا نظرنا إلى مافعله في الموسيقى وجدناه يشابه مافعله في ميدان الفنون التجسيمية مكتشف المجاميع الحرة . وكل الموسيقى السابقة ، إذا ما قورنت بموسيقى فاجنر ، تبدو متحجرة أو فزعة ، وكأنه لا يخلق بالمرء أن يشاهدها من جميع النواحي . لقد كان فاجنر يمسك لكل درجة ولكل لون في الشعور بكل شدة وتحديد ؛ وكان يمسك بالانفعال الدقيق والمتوحش على السواء دون قلق ولا جزع . ولهذا فان موسيقاه ليست غير محددة أبداً ؛ بل كل ما يتحدث بها ، سواء أكان إنساناً أم طبيعة يملك وجداناً واضح الفردية والشخصية ، والعاصفة والناركاتها تأخذ عنده قوة الارادة الشخصية .

غير أن هذا المدح الذى ساقه نيتشه لفاجنر سنة ١٨٧٦ سيرجع عنه في سنة ١٨٨٨ ، فقد أخذ حينئذ على موسيقى فاجنر ما أخذ سماها فسيولوجية لأن علم الجمال في نظره ليس إلا فسيولوجيا تطبيقية . ذلك أن موسيقى فاجنر تضغط على أنفاسه حين يسمعها ، فلا يستطيع التنفس بسهولة ؛ وسرعان ما يتمرد قدمه عليها ، حتى أصبح في حاجة إلى ملبس جيراندول لسماع موسيقى فاجنر ! فان ما يطلبه جسم نيتشه من الموسيقى - ولا يقول نفسه لأنه ليس ثم نفس ! - هو التخفف ، بمعنى أن تسرع الوظائف الحيوية في أداء عملها عن طريق إيقاع خاص .

فإذا ما انتقلنا إلى آراء نيتشه في أنواع الموسيقى وصلاتها بالمسرح ، وجدنا أولاً فكرة الصلة بين المأساة وبين الموسيقى ، وهى التى كرس لعرضها كتاب « نشأة المأساة عن روح للموسيقى » . وهنا نراه يقول إن للموسيقى هى المثال الحقيقى للعالم ، بينما الدراما ليست إلا ظلاً وشبحاً له . والموسيقى والأسطورة الأسبانية كلتاها تعبير عن الملكة الديونيزوسية عند شعب من الشعوب ، ولا تنفصل الواحدة عن الأخرى وكلتاها تنشأ عن ميدان فن . يتجاوز نطاق الروح الأبولونية ، وينير منطقة من الانسجيمات البهيجة . يختفى فيها التنافر والنشاز ، وتختفى صورة العالم المروعة .

أما الأوبرا فنيتشه يرى فيها علامة انحلال الحضارة ، ومظهراً من مظاهر الحضارة أو الثقافة الأسكندرانية ، أى المخططة الشكلية الجوفاء . ذلك لأن الأوبرا من عمل الرجل النظرى ، والهاوى الناقد ، لامن عمل الفنان الخالق ؛ إنها ظاهرة من أغرب ظواهر الفنون كلها . لأن الأوبرا تقوم على أساس فكرة أن الكلام أسمى من الانسجام ، وهذه الفكرة الجاهلة المضادة للموسيقى هى التى جعلت الأوبرا تنشأ على أساس الجمع بين الموسيقى والصورة والكلام ، وتبعاً لها قامت المحاولات الأولى فى الأوساط الارستقراطية الهاوية فى فيرننتسه بوضع الصور الأولية للأوبرات . وهكذا نرى أن الذين لا يحسنون إدراك العمق الديونيزوسى للموسيقى يحولون المتعة الموسيقية إلى تفهم عقلى لخطابة الانفعال المؤلفة من الأصوات والكلمات ولأنهم لا يستطيعون الارتفاع إلى مدى الكشف ، فإنهم يستعينون بالميكانيكيين والمزخرفين .

« إن الأوبرا لانقدم لنا التعبير عن ذلك الألم الايليغى الذى تسببه خسارة لاسبيل إلى تعويضها ؛ بل تقدم لنا متعة سهلة بأوضاع مثالية خيالية » .

وبالجملة فإن حملة نيتشه على الأوبرا راجعة إلى أن الأوبرا تشوه الطابع الأصيل الحقيقي للموسيقى ، وهو الروح الديونيزوسية ، روح القلق والجزع والالتم والنشوة والتمرد والانفعال الغامر .

وقد كان نيتشه يرى أن الروح الديونيزوسية هي التي يمكن من جديد أن تعطى للحضارة دماً جديداً . ومن هنا فانه لما رأى فاجنر لا يحقق هذه الروح ، خصوصاً في أوبراه الأخيرة برتسيفال ، فانه تمرد عليه . إن الفن عند نيتشه قدرة على التحويل ، وهو تعبير عن الإرادة الميتافيزيقية ولهذا نراه يطالب الموسيقى بأن تقوم باحداث هذا التحويل الحضارى في نفوس الناس . ولقد قال في هذا الصدد : « حينما أتصور أن بضعة مئات من الناس في الجيل المقبل سيدركون من معانى الموسيقى ما أنا أدركه ، فاني أتوقع قيام حضارة جديدة تماماً » (« مجموع رسائله » ، ج ٢ ص ٢٧٦) . لكنه رأى في بايرونيت عكس ذلك تماماً : رأى انحلال الفن لأنه لم ير في فن فاجنر أقل ذرة من الوحي والتحول اللذين طالب الموسيقى بأن تحققهما في الناس . ولهذا قال إن إنتاج فاجنر إجهاض ، لأنه مزيج خفيف مختلف الأجزاء من عدة فنون . لقد اتجه فاجنر إلى إنتاج فن للجماهير ، ونيتشه يرى أن الموسيقى الجيدة والفن الممتاز لا يمكن أن يكون لهما جمهور ، حتى إنه كان حين يسمع أن مسرحية ما ظفرت بالنجاح فانه يشك فوراً في قيمتها ، وإذا جمع أنها أخفقت فانه ينظر فيها بعناية واهتمام .

وكان نيتشه يكره الموسيقى الرومنطيقية بخاصة ، فقال : « لقد بدأت بأن حرمت كل موسيقى رومنتيكية تحريماً أساسياً مبدئياً ؛ إنها فن قابض كثير الإدماء غير محدود الاتجاه ، يقضى على صلابة الروح وانبساطها ، ويستزيد من النوازع الغامضة والشهوات المنتفشة . . . إن هذا اللون من

الموسيقى يضعف الأعصاب ويصيب المرء بالوفاة والفتور ، ويشيع روح التخلف ، وأنوثته الخالدة تجذبنا إلى أسفل . . . لقد انصب غضبي منذ زمان بعيد على الموسيقى الرومانتيكية ورحلت أحذر منها ؛ وإذا كنت لأزال أمل شيئاً من الموسيقى (ونيته كان يكتب هذا الكلام في سنة ١٨٨٦ أى في أخريات حياته الواعية) ، فإن ذلك على أمل أن يوجد في المستقبل موسيقار جسر ، مرهف الوجدان ، شري ، جنونى النزعة ، وافر الصحة جداً ، لكي ينتقم من تلك الموسيقى الرومانتيكية انتقاماً يكتب له الخلود (مؤلفاته ٣ : ٧) . ومن هنا نراه يعد الموسيقى الرومانتيكية الألمانية موسيقى من الدرجة الثانية (٧ : ٢١٢) بعد الموسيقى الرائعة التي أبدعها موتسارت بما تمتاز به من أحلام رقيقة ، ولذة صبيانية بما هو عيني ، وتهذيب للقلب ، ونزوع إلى ماهو مزوق محبوب مرقص مثير للعبارة ؛ وبعد موسيقى بيتهوفن التي كانت بمثابة جسر بين روح رخوة تتكسر باستمرار وبين روح شابة نضرة متطلعة دائماً إلى المستقبل . إن الحركة الرومانتيكية في الموسيقى كانت حركة سطحية عابرة . فإذا تعنى بالنسبة لنا « أوبرون » و « فرايشوتس » لفيفر ، أو حتى « تانهويزر » لفاجنر ! إنها موسيقى مبهورة الأنفاس ، عني عليها الزمن . ولم يكن في هذه الموسيقى الرومانتيكية من فن الموسيقى أكثر مما يصلح للمسرح وللجمهور ؛ ولا محل لها بين الموسيقيين الحقيقيين . ونيته كان يرى أن الموسيقى المسرحية ضرب رخيص من الموسيقى ، إنها لا معنى لها ، إنها مجرد موسيقى رديئة .

وفي ختام هذا الحديث عن الموسيقى في نظر نيتشة يخلق بنا أن نورد بضع عبارات رنانة مما هو معهود عند نيتشة الذي كان يلذ له دائماً أن يتكلم بالجل القصار التي هي بمثابة جوامع الكلام : قال :

إن الموسيقى تحرر الروح - بدون الموسيقى ستكون الحياة خطأ -
الموسيقى لا يمكن أبداً أن تكون واسطة ووسيلة - الموسيقى ترفع المدينة
مثلاً يرفع ضوء الشمس ضوء المصباح - الموسيقى تخلق التفكير - الموسيقى
العظيمة ليس لها أبداً جمهور - إن الإنسان كله مظهر للموسيقى -
القديس والموسيقار العظيم إنما هما تكراران للعالم - الموسيقى تتحدث من
قلب العالم - الموسيقى الحقة قطعة من القدر والناموس الأول - الموسيقى
امرأة - الموسيقى عند النساء شكل من أشكال الحساسية - كبار الموسيقيين
كلهم متوحدون

هرمن كوهن والموسيقى

الموسيقى عند هرمن كوهن ، مؤسس مدرسة ماربورج الكنتية الجديدة والمتوفى سنة ١٩١٨ ، تعبير عن الوجدان الجمالي الخالص ، بمعنى أنها ليست تعبيراً عن الطبيعة ولا عن الإنسان . وذلك أن الموسيقى ليس عندها طبيعة ولا عالم أخلاقي بوصفها موضوعات ونماذج للخلق الموسيقى . ولهذا فإنها تصرف النظر عن الإنسان ، وعن طبيعة الإنسان ، ولا ترى أن تمت نموذجاً أعلى في السماء ولا على الأرض ، بل هي لاتعترف بوجود سماء ولا بوجود أرض ، ولا بوجود إنسان . ومعنى ذلك هو أن الموسيقى تتخلص من كل العلائق التي تربطها بالإنسان وبالطبيعة وتتجرد منها .

فلننظر في الأحوال التي يتم فيها الخلق الموسيقى . هنالك نجد أولاً حس السمع ، وهو حس يعارض صفاء الوجدان ، لأنه يتطلب المعرفة ، ولكن الموسيقى تحاول أن تنأى بنفسها عن كل معرفة من أجل أن تتخلص للوجدان الخالص . فكيف يمكن الوصول إذن إلى صفاء الوجدان ؟ ولكن لا محل لهذه المشكلة إذا أدركنا أنه لاتعارض بين الوجدان وبين المعرفة ، والدليل على ذلك أن الموسيقى احتلت مكانة خاصة في تاريخ الرياضيات . وتفسير ذلك أن مضمون حس السمع يتوقف على تحديدات رياضية :

غير أن الإحساس السمعي وإن كان بداية شروط الموسيقى ، فليس هو غير الوسيلة إليها . ولهذا يجب أن ننظر في عنصر آخر تتوقف عليه الموسيقى ، ألا وهو الزمان . والزمان تعاقب وتوال . وهذا التوال لا بد له من نظام ، وهذا النظام هو الإيقاع . فالإيقاع عنصر أساسي في الموسيقى

«وأهمية الإيقاع بالنسبة إلى صفاء الوجدان تتعلق بالصلة بين الإيقاع والزمان . فالإيقاع هو الجمع والتنظيم للعناصر مع مراعاة تكرارها . غير أنه ليس العامل أو المبدأ الوحيد في هذا للتنظيم ، بل لابد أن نحسب — إلى جانبه حساب الوزن والإسراع tempo . فإذا يميز الإيقاع من الوزن والإسراع ؟ إن الصورة الأولى للإيقاع هي التنظيم الدوري للعناصر تنظيمياً يتم عن طريق التكرار . ولكن الإيقاع يتجه دائماً إلى أعلى ، وبهذا يتجه نحو المستقبل وهذا التوقع المميز الحقيقي للإيقاع وهو الذي يميزه من الإسراع والوزن وبه يحقق الإيقاع دوريته . فالدورية لا تتم على نحو مفاجيء وكأنها شيء عارض ، بل لابد أن تكون متوقعة . فتوقع الدورية هو الإيقاع أو قانون الإيقاع . والوزن من نتاج هذا الإيقاع .

ولقد أوضحنا حتى الآن أقسام الإيقاع ، وبقي علينا أن نحدد كيفية لحظاته ، وهذه الكيفية هي النغمات ، وهذه الصفة تكون النغمات هي عناصر الموسيقى : والنغمات صور مركبة تناظر أعداداً تدل على النسب . وعلى هذه النسب تقوم الفواصل .

وهنا نصل إلى الميلوديا : والميلوديا تتوقف على الهارمونيا : وهي أساس القانون الشخصي الذي يميز عبقرية من عبقرية أخرى : ولهذا فإن الموسيقار يجب أن يكون له لون خاص من الميلوديا .

ولنظرنا في تطور الموسيقى الحديثة لوجدنا أن ذلك التطور بدأ من الاوراتوريو oratorio ، وهو موسيقى قائمة على الأسرار والكلمات الدينية ويدين بوجوده لعلمين عظيمين هما هيندل وباخ . وأهميتهما في تطور الموسيقى بالغة : فلو لم يوجد لما وجدت الأوبرا العظيمة ، بل ولا الموسيقى الآلية العظيمة . وكلاهما يقف إلى جانب الآخر مثلما يقف جيته إلى جانب شلر

ولم يضررها أن يكون الطباقي والتسلل (الكونترا بانكت والفوج) قد وصلتا إلى درجة عالية من السكالم ، بل زاد ذلك من قدرتهما في الموسيقى ثم ينمو الأوراتوريو عند هايدن فيتخذ طابعاً جديداً إذ تحمل الطبيعة عنده محل الألوهية في الأوراتوريو ، ولكن هذا لا يمنع من وجود نزعة دينية قوية حتى في هذا التجديد للخلقة .

والأوراتوريو هو الذي أفضى إلى الأوبرا سواء في ألمانيا وفي إيطاليا . وعلى الرغم من الصلة الواضحة بين الأوبرا والدراما ، فيجب أن نميز بينهما تمييزاً دقيقاً . فإن الفعل من شأن الموسيقى ، بينما هو جوهر الدراما . والدراما تتضمن فلسفة ، أما الأوبرا فليس فيها فلسفة ، ولا تحاول أن تتفلسف . وأول الرواد في ميدان الأوبرا هو جلوك ، الذي أدرك العنصر الغنائي في المسرحيات اليونانية وأراد أن ينميه . ومن هنا جاءت أوبراته أوبرات غنائية ، Iyriques ، على العكس من أوبرات خليفته موتسارت الذي ألف أوبرات درامية .

وموتسارت تأثر بشيكسبير ، ولكنه لم يرد أن يصنع كوميديات ولا تراجيديات . لقد انصرف عن هذا التعارض بين الأسيان الهزلي ، وعاد إلى اللحظات الأولية للجهال في السامى وفي الفكاهة humour

وهنا يعود السؤال الذي طرحناه من قبل عند الحديث عن شوبنهور والموسيقى ، وهو : هل يمكن أن تكون للموسيقى مضحكة ؟ وهل الهزلي يصلح أن يكون موضوعاً للموسيقى ؟ وقد رأينا كيف أن شوبنهور أنكر ذلك تماماً ؛ أما هرمن كوهن ف يرى أن حل هذه المسألة يتطلب الدقة في تحديد معنى صفاء الوجدان . إن الصفاء هو الواسطة المنهجية ، وهو في الوقت نفسه الشاهد على السكالم . وموتسارت أسقط الهزلي من موسيقاه ، ولكنه

وضع مكانه الفكاهة *humour* والشخصيات التي يقدمها وتبدو في الظاهر أنها هزلية ليست في الواقع كذلك ؛ وحتى شخصية باباجينو المشهورة . ليست شخصية هزلية ، بل فكهة خصب . والأمـر كذلك بالنسبة إلى شخصيات زفاف فيجارو ، فياعدا سوزان .

وكانت أوبرا « الناي الساحر » لموتسارت بمثابة نشيد البلشون لهذا النوع من الأوبرات ، ففيها الفكاهة على أشدها ، ولكن ما هو سام قد ازداد مع ذلك تألقاً . غير أن التوتر الدرامي لم يعد بالقوة التي نراها في أوبرات موتسارت السابقة .

وبعد أن فرغ كوهن من تحليل الموسيقى المرتبطة بالغناء في الأورتوريو والأوبرا والأغاني *Lieder* ، انصرف إلى دراسة موسيقى الآلات . والموسيقى قد صارت بفضل موسيقى الآلات فنا مستقلا عن الغناء . وقد تم ذلك بفضل بيتهوفن ، فهو الذي أبدع الموسيقى المطلقة ، أي الموسيقى المتحررة من الغناء . ويميز فيه أمران خصوصا : الأول صوت الطبيعة ، ولا نقصد بذلك ما يقصد به في رسم الطبيعة في ميدان الرسم . ذلك أن العاصفة مثلا في السميفونية الريفية ليست مجرد محاكاة للطبيعة ، بل قيمتها هي في أنها تعبير عن انهيار العالم . وبيتهوفن حينما يعبر عن مظاهر الطبيعة وأحداثها لا يعبر عنها كأحداث وظواهر ، بل كتعبيرات عن الطبيعة الكلية في مجموعها . والأمـر الثاني الذي يتميز به فن بيتهوفن الموسيقي هو عودته إلى الأغاني الشعبية *Volkslieder* فمثلا في السوناتا للبيانو في مقام أوت الكبير المؤلف رقم ٥٣ ، وخصوصا في *Appassionata* ، عمل رقم ٥٧ ، نجد أن موضوع الجملة الموسيقية الأولى مأخوذ من الأغاني الشعبية . وهذا الاستقاء من معين الأغاني الشعبية ظل ملازما لبيتهوفن حتى آخر حياته .

وفن بيتهوفن فن يجمع بين السامى والفك على نحو أصيل . وفضله الأكبر فى أنه حرر الموسيقى من الأوبرا ، بحيث جعل الموسيقى مستقلة بنفسها قائمة بذاتها ، فدفعها إلى أعلى مقام من صفاء الوجدان .

وهنا تأتى مشكلة الكورس فى السمفونية التاسعة ، وكثيراً ما أثبتت لأن الكثيرين يرون فى هذا الكورس تشويهاً للموسيقى المطلقة التى استهدفها بيتهوفن فى سمفونياته التسع - فكيف جاء إذن وشوه هذا الصفاء وهذا الاستقلال بأن أدخل الصوت الغنائى ، الكورس ، فى هذا الصنع الباهر من الألحان الخالصة ؟! وليس هنا مجال التوسع فى شرح هذه المشكلة التى سبق أن تعرضنا لها فى مؤلفات عديدة ، وإنما ندلى هنا برأى هرمن كوهن .

يقول كوهن إن الموسيقى عند بيتهوفن قد صارت موسيقى مطلقة ، لأنها تخلصت نهائياً من الغناء . فإن بيتهوفن لم يخلص الموسيقى من الغناء نهائياً . والناس يسوقون شاهداً على هذا - الكورس الختامى فى السمفونية التاسعة . غير أن بيتهوفن حاول مراراً أن يحذف هذا الكورس منها ، وأن يستبدل به جملة موسيقية آلية خالصة . ولكن هل حاول بيتهوفن مثلاً أن يتنكر لأوبراه « فيدليو » Fidelio أو يتحلل من « القداس الحافل » Missa Solemnis وفيه يلعب الصوت الإنسانى دوراً خطيراً عن طريق الكورس الذى يكاد يعدل الموسيقى نفسها ؟ كلا ، إنه لم يفعل ذلك ؛ غير أن هذا وذاك لم يضر موسيقاه المطلقة . ويرى هرمن كوهن أن الكورس الختامى فى السمفونية التاسعة لم يؤذ الموسيقى المطلقة فى شيء ، ولم يصعبها بأى ضرر ، لأن الكورسات شأنها شأن الأصوات السوليست ينبغى أن تتجاوز نطاق الآلات ، كما هو مشاهد فى « القداس الحافل » .

— ١٧٣ —

إن الموسيقى المطلقة هي تلك التي تتحرر من سيطرة الدراما . واللاؤبرا خاضعة لهذه السيطرة ، كما هو مشاهد عند موتسارت ، بالرغم من تفوقه الموسيقى الهائل . ولا بد من التحرر من هذه السيطرة إن أريد للموسيقى أن تكون مطلقة : وهذا هو الدور العظيم الذي لعبه بيتهوفن في تاريخ الموسيقى : لقد حرر الموسيقى من سلطان الدراما .

وبهذا استطاع أن يحقق الجوهر الحقيقي للموسيقى في نظر هرمن كوهن ألا وهو صفاء الوجدان الجمالى

اشبنجلر والموسيقى

على العكس مما يذهب إليه للفكرون السابقون ، يرى اشبنجلر أنه لا محل للفرقة بين فنون السمع وأخرى للعين . والقرن التاسع عشر هو وحده الذى غالى فى إبراز الأحوال والشروط الفسيولوجية للتعبير والإحساس . ولكن الحق هو أن صورة « تنغى » يرسمها لوران أو فاتولا تتوجه إلى العين الحسية ، كما أن موسيقى الأفلاك منذ باخ لا تتوجه إلى الأذن الحسية . والعلاقة القديمة بين العمل الفنى وبين عضو الإحساس هى علاقة بسيطة أكثر مما يتخيل حتى الآن . فنحن نقرأ « عطيل » « وفاوست » ، وندرس التقسيمات الموسيقية ، ومعنى هذا أننا نفسرنا لتحدث فينا الأثر الروحي الخالص الصادر عن روح هذه الأعمال الفنية . فهنا نداء مستمر من الحواس الخارجة إلى الحس الباطن ، إلى الخيال الفاوستى . وبالجملة ، فإن الأصوات ، شأنها شأن الخطوط والألوان ، هى أشياء ممتدة محدودة ، عددية ؛ والانسجام ، والميلوديا ، والقافية ، والإيقاع - مثلها مثل المنظور والنسبة والظل والخط . ويمكن أن يكون بين نوعين من التصوير من الفارق والبعد أكبر بكثير جداً مما بين تصوير وموسيقى متعاصرين . وإن ثمت فناً واحداً يشمل منظراً من رسم بوسان وأنشودة ريفية تعزف بموسيقى الغرفة ، أو لوحة يرسمها رمبرنت وموسيقى الأرغن عند بوكستيهود Buxtehude وباخ وأوبرات موتسارت . « فكلها تتكلم لغة شكلية واحدة ، بمعنى أنه أمامها تحى الفروق بين الوسائل البصرية والوسائل السمعية » .

والموسيقى وجدت منذ الأزل ، حتى قبل قيام الحضارة ، ونجدها حتى عند الحيوان . غير أن الموسيقى القديمة ذات الطراز العالى لم تكن إلا فناً

تجسيمياً للأذن ، ومن هنا استبعدت الموسيقى اليونانية الهارب المصري -
ولعله كان ذا صوت شبيه بصوت السمالو .

والموسيقى الصينية لا يفهمها الغربي ، ولا يستطيع أن يميز فيها بين المواضيع
البهجة والمواضع المحزنة ؛ وكذلك الحال بالنسبة إلى الصيني نراه حين يسمع
الموسيقى الغربية يحس بأنه بإزاء مارش . وهو نفس الشعور الذي يتولد عند
الأجنبي حينما يرى الفن الأوربي عامة : سواء في الكاندراتيات بتصاعدها
المستمر إلى اللامتناهي ، أو في لوحات التصوير ، أو في مجرى الحوادث
في المسرحيات . والموسيقى العربية هي الأخرى تبدو غريبة على الأوربي
وعلى الصيني على السواء . ذلك أن الموسيقى ، شأنها شأن كل مظاهر الحضارة
ومرافقها ، تنبع من روح كل حضارة حضارة . وما دامت الحضارات تختلف
كل واحدة عن الأخرى من حيث روحها ، فإن الموسيقى تختلف اختلافاً
بيناً . وإن ثمت بين الموسيقى العربية والأربسك العربي والشعر العربي من
التشابه أكبر بكثير جداً من التشابه بين الموسيقى العربية والموسيقى الصينية
أو الأوربية . ولما كان الرمز الأولى للحضارة الأوربية هو النزوع إلى
اللامتناهي ، والرمز للحضارة العربية - بالمعنى العام الواسع الذي يستخدم
به استبنجلر هذا اللفظ بما يشمل الحضارة البيزنطية والفارسية والحضارة
السامية بعامة - نقول إن رمز الحضارة العربية هو الكهف . فكذلك نجد
هذا الرمز يتجسد في الموسيقى . فالمارش هو من نبع المكان اللامتناهي ، كما أن
أرباع النغمات في الموسيقى العربية ينبع من رمز الكهف .

ولا بد لنا أن نميز في الموسيقى بين جانب المحاكاة ، وجانب التزيين .
والجانب الأول هو الروح والمنظر والعاطفة ؛ والجانب الثاني ، أي جانب
التزيين ، هو الشكل الدقيق والأسلوب والمدرسة الفنية . وأحدها يظهر فيما

نميز به بين موسيقى فرد وشعب وجنس ، والثاني يظهر في قواعد التأليف الموسيقي . وفي أوروبا موسيقى تزيينية من الطراز العالى ، لا يمكن فصلها عن معمار الكاتدرائيات ، وتقرب من الاسكلائية والتصوف . والطباق (كونترابونت) (Contrepoint) معاصر لطراز القوس الساندة arc - boutant في المعمار . وهو معمار من الأصوات الإنسانية ، مثله مثل المجاميع التمثالية . والألواح الزجاجية ، لا يفهم إلا بربطه بأقواس الحجر .

وإلى جانب هذه الموسيقى التزيينية نشأت في القصور والقرى موسيقى محاكاة غير دينية ، هي موسيقى التروبادور والشعراء الغنائيين وكانت مجرد ميلوديات بسيطة تصاحبها آلات . وعنها نشأت حوالى سنة ١٤٠٠ ميلادية أنواع من التأليفات الموسيقية متعددة الأصوات ، هي الروندو rondo والبلاد Ballade

والمحاكاة أقرب إلى الحياة والاتجاه ، ولهذا تبدأ بالميلوديا . ورمز الطباق ينتسب إلى الامتداد ، ويفسر المكان عن طريق تعدد الأصوات . ومن هنا تنشأ ذخيرة من القواعد الثابتة الأبدية ، وذخيرة من الميلوديات الشعبية الباقية أبداً .

ومنذ عصر الباروك اتجهت الموسيقى إلى إيطاليا ، وفي نفس الوقت . لم يعد المعمار هو الفن السائد ، بل بدأت مجموعة فنون خاصة تنشأ ، مركزها : الرسم بالزيت . وحوالى سنة ١٥٦٠ قام أسلوب بالسترينسا وأورلندو لاسو Lasso فانتهى عهد سيطرة الصوت الإنسانى فى الموسيقى ، لأنه لم يكن قادراً على التعبير عن السورة الحارة للنفس النازعة إلى اللامتناهى . وحلت محله مجاميع آلات النفخ والآلات الوترية . وفي نفس الوقت . نشأ فى فينتسيا فن تتشيانوس Ticiano فى التصوير . وهكذا نرى .

ان الموسيقى القوطية كانت معمارية وصوتية في آن واحد معاً ، بينما الموسيقى الباروكية كانت وضعية تعتمد على الآلات . الأولى تشيد ، والثانية تقصد .

هنالك نشأت مشكلة كبرى هي الامتداد بالجسم الرنان إلى اللانهائية ، أو بالأحرى إذابته في مكان رنان لا متناه . إن العهد القوطي في الموسيقى قد صنف الآلات إلى أسر ، وفقاً لفروقها الدقيقة المحدودة ؛ أما الآن فان الأوركسترا - وقد ولد في القرن السابع عشر - قد أبى أن يخضع لشروط الصوت الإنساني وظروفه ، وجعل هذا الأخير ، على العكس من ذلك ، خاضعاً للآلات الرنانة . وقد ناظر ذلك في الرياضيات اكتشاف التحليل الهندسي بفضل فرما Fermat الذي أيده التحليل الهندسي القائم على أساس الدوال ، والذي ابتكره ديكارت في هندسته التحليلية . وهنالك بدأ التمييز بين الآلات الأساسية والآلات التزيينية .

وعن الميلوديا والتزيين نشأ المقصد *motiv* مما أدى إلى نهضة روح الطباق في الموسيقى ونشأة التسلل *fuga* على يد فرسكو بالدي Fresco baldi (المتوفى حوالى سنة ١٦٥٤) ، ووصل إلى أوجه عند يوهان سبستيان باخ Baeh وبازاء القداس الصوتي والكلمات *motets* ولدت الأشكال الباروكية الكبرى المعتمدة على الآلات وحدها : مثل الاوراتوريو الذي وضعه كاريسي Carissimi (+ ١٦٧٤) والكنتات التي ألّفها *Liadue* وأوبرات مونتفردى Monteverdi :

وهذه الأشكال الباروكية قد أنشأت في القرن السابع عشر مختلف أنواع السوناتات والمتابعات والسمفونيات ، والكونشرتو جروسو . وفي القرن الثامن عشر بلغت هذه الأنواع تمام قوتها على يد هيندل وباخ ، وأصبحت (م ١٢ - الأدب الأوربي)

الموسيقى لاجسمية تماماً . وفي الوقت الذي اكتشف فيه نيوتن وليبنس في سنة ١٦٧٠ حساب التفاضل والتكامل ، كان فن الفوجا في الموسيقى قد اكتمل . وفي الوقت الذي قام فيه أويلر Euler في سنة ١٧٤٠ بوضع الصورة النهائية لتحليل القوائم على الدوال الرياضية ، كان اشتامتس Stamitz وأبناء جيله قد وضعوا الصورة النهائية الناضجة للتزيين للموسيقى : أعنى الجملة الرباعية الأجزاء ، منظوراً إليها على أنها انفعال لانهاى خالص .

وبقيت خطوة أخرى ، خطتها موسيقى الآلات الوترية ، بفضل السكمان ومايشابها ويشتنق منها ؛ فإن السكمان هي أنبل آلة اخترعها وهذبها وأكملتها الروح الأوروبية ؛ ولعل هذه الروح لم تشعر بأعلى لحظات سموها إلا في معزوفات السكمان من رباعيات الأوتار وسوناتات السكمان . وموسيقى الغرفة أو الحجرة هذه هي التي بلغ بها الفن الأوربي في الموسيقى أوج نضوجه . وإن الموسيقى التي تعرفها كان ترتيني Tartini ومارديني Nardini وهايدن وموتسارت وبيتهوفن هي وحدها التي يمكن أن تقارن في جلالها وروعها بروائع الفن اليوناني على تل الاكروبول .

وهكذا سادت الموسيقى الأوروبية سائر الفنون ، فنفت تجسيم النحت ولم تعد تحتل غير فن القيشاني ، وهو فن موسيقى النزعة تماماً ، وقد ازدهر في أوربا في نفس الوقت الذي ازدهرت فيه موسيقى الحجرة . فبينما التجسيم القوطي ينشئ تزييناً معمارياً مطلقاً ، نجد أن الفلورا الصناعية التي أنشأها الروكوكو خاضعة تماماً للغة الموسيقى . ويكفي أن نقارن «فينوس الجائية» لأنطوان كوازفوكس Coysevox (+ سنة ١٧٢٠) بالأصل القديم الموجود في متحف الفاتيكان ، لنشاهد أن فينوس كوازفوكس صلتها بفينوس القديمة كصلة التجسيم الموسيقى بالتجسيم الخالص .

إن الموسيقى ، ابتداء من القرن السابع عشر ، قد بدأت « ترسم » بواسطة فروق آلية مميزة ، مثل التعارض بين الأوتار والآلات النحاسية ، بين الموسيقى الصوتية وموسيقى الآلات . وأصبحت تطمح إلى منافسة فن التصوير من تشييانو حتى بلاكست ورمبرنت . ذلك أنها كانت تضع صوراً . وذلك بأن تصف في كل قطعة موسيقية موضوعاً ذا تنويعات على خلفية من الباصو المتصل ؛ فهذا هو أسلوب السوناتات من جبريللي (+ سنة ١٦١٢) حتى كورلي Corelli (+ سنة ١٧١٣) . وأخذت ترسم مناظر بطولية في الأناشيد الريفية cantates ؛ وصوراً ذوات خطوط ميلودية في « شكاة أريادن » تأليف موتفردى (١٦٠٨) .

وكبار الموسيقيين الألمان هم الذين وضعوا حداً لهذا الاتجاه الرسمي التصويري في الموسيقى . وعلى يدهم امتلكت الموسيقى قدرة مطلقة ، حتى أصبحت في القرن الثامن عشر هي التي تنحكم في التصوير والمعيار . واستبعدت الناحية التجسيمية plastiques بكل قوة من ميدان هذا العالم الصور ، عالم الموسيقى .

وهكذا نرى أن نظرية اشبنجلر في الموسيقى تنبع من نظريته العامة في الحضارة ومن فكرة روح الحضارة . فالموسيقى تعبير عن روح الحضارة ، عن رمزها الأول ، وهذا الرمز وتلك الروح يختلفان تمام الاختلاف من حضارة إلى حضارة . ولا سبيل إلى فهم أية موسيقى إلا بردها إلا الروح الحضارية التي صدرت عنها ، ومن هنا يفسر عدم « تذوق » أبناء الحضارة الواحدة للموسيقى التي أنشأها أبناء حضارة أخرى . ولا بد من القول بالتوازي التام بين جميع ما أبدعته كل حضارة حضارة ، أيًا كان الميدان الذي ينتسب إليه . وليس كل من هذه الفنون والمبدعات منحني للتطور يبدأ

من ربيع فصيف فخریف فشتاء . ونشأة كل فن فن ، وتطوره ، ونهايته ،
وتاريخ انقراضه وتحوله إلى فن آخر ، والسبب الذى من أجله وجد هذا
الفن أو لم يوجد ، ساد أو لم يسد فى حضارة من الحضارات ، والعلة فى تعلق
هذا للموسيقار بنوع معين من النغمات أو الآلات - كل هذا لا يمكن تفسيره
إلا بروح الحضارة التى ينتسب إليها هذا الفنان أو ذلك الفن ، وبرمزها
الأولى . وليس لنا أن نطلب عللا أخرى للتفسير غير روح الحضارة . إن
الأمريلىس أمر تقدم فى الزمان أو تطور فى مجرى التاريخ ، بل كل شىء مرده
إلى روح الحضارة : فيها يفسر كل شىء

ماهو الشعر « الحديث » حقاً ؟

برهان من

الشعر الألماني المعاصر

— ١ —

بين يدي الآن مختارات من الشعر الألماني منذ سنة ١٩٤٥ ، وهي تمثل إذن آخر نموذج في عالم الشعر ، ومعظم الشعراء فيها يتراوحون بين الثلاثين والأربعين ربيعاً ، فهم إذن في ميعة الصبا وفتاء السن ، وعانوا الأهوال من حرب ضروس أتت على زهرة الرجال وخلاصة العمران . وفي قصائدهم تعبير عن الأزيمة الطاحنة التي مرت بها بلادهم أثناء الحرب وبعيدها ، وعن النكبات والويلات التي أصابت نفوس أبناء أمتهم ، وعن الثورة الخفية التي تعتلج في صدورهم ، وعن روح الزمن الحاضر . ومع هذا كله فلن تجد في شعرهم خروجاً على عمود الشعر الألماني بأوزانه وقوافيه إلا في القليل النادر . وحتى هذا القليل النادر قد نظمه أصحابه على هذا النحو ابتغاء الإطراف والتظرف لا الإجادة والتجديد . ولعل في هذا درساً بالغاً لمن يدعون اليوم التجديد في الشعر العربي عن طريق إطراح الأوزان والقوافي أو كسر تفعيلاتها على أنحاء شتى من الكسر والتمزيق وإشاعة الاضطراب في الترتيب وماهو أدهى من هذا كله من ألوان العبث الشنيع الذي إن دل على شيء فعلى إفلاس أصحابه من كل ملكة شعرية .

ذلك أن الشعراء الأوربيين للعصرين (الشبان منهم والناضجون الكهول) قد أدركوا أن التجديد في الشعر - مادام اسم الشعر سيطلق على ما يكتبون وليس الأمر مجرد أسماء تتغير مسمياتها كما هي الحال عندنا اليوم - نقول إنهم أدركوا أن التجديد الحق إنما هو في اللوضوعات التي يطرقونها ، والصور الشعرية التي يتكرونها والتي يستمدون معظمها من كل جديد في عالم المدينة إلى جانب المعين الدائم وهو الطبيعة: سواء الطبيعة الفيزيائية والطبيعة الإنسانية

وقد صنف جامع هذه « المختارات » ، هانز بندر ، التيارات التي اتجه فيها الشعر الألماني في هذه الفترة - من سنة ١٩٤٥ حتى الآن - إلى ثلاثة:

١ - التيار الأول يمثل برتولت برشت ، وانتسزبرجر ، وفوكس - وهم يرون أن القصائد ينبغي أن تكون بمثابة « وثائق » و « موضوعات استعمال » ، و « نصوص منشورات وبيانات » أعنى أنهم يتخذون من الشعر أداة لنشر مذاهبهم السياسية والاجتماعية والفكرية بوجه عام ، وكأن القصائد « وثائق » تعبر عن هذا المذهب بأداة هي الوزن والإيقاع وهم لهذا يحفلون بموضوعات الساعة والمشاكل اليومية والتيارات السياسية .

٢ - والتيار الثاني ويمثله خصوصاً الیصابات لانجيجيسر ، وفلهلم ليمان وأوسكار ليركه ، وبیتر هوخل ، ومن بين الشباب بيونتك وبرمباخ - ويسمى باسم التيار للمسحور بالطبيعة ، وقد كان له أثر كبير في العشرينات والثلاثينات من هذا القرن وأثر في سائر الاتجاهات ، وكاد أن يبلغ أوجه على يد بول تسيلان .

٣ - والتيار الثالث ، ويمثله خصوصاً جوتفريد بن وهانز أرب ومن بين الشباب الشاعرة انجبورج بنحان واتجاههم كلاسيكي أرصين ، وكان للأولين منهم مركز الصدارة والتوجيه والقيادة بالنسبة إلى الشعر الألماني المعاصر كله .

وبين هؤلاء جميعاً شعراء عديدون لا نستطيع أن نضمهم في تيار بعينه من هذه التيارات الثلاثة ، لأنهم شاركوا بنصيب في كل منها .

* * *

ونبدأ بسيد هؤلاء الشعراء ، وهو جوتفريد بن Benn (ولد في ٢ مايو سنة ١٨٨٦ - وتوفي في ٧ يوليو سنة ١٩٥٦) ، الذي يعد أقوى شاعر غنائي .

باللغة الألمانية منذ استيفن جيورجه (١٨٦٨ — ١٩٣٣) . وهو شاعر ومفكر وطبيب مختص في الأمراض السرية والجلدية في برلين ، واشترك في كلا الحربين طبياً عسكرياً . وقد ولد في مانسفلد (بمنطقة فستبريجنتس في مقاطعة برندنبورج بشمال ألمانيا) من أب كان قسيساً بروتستانتياً وأم من غربي سويسرة . وتربى في قرية سلين وأمضى دراسته الثانوية في مدرسة فرنكفورت على نهر الأودر (شرق ألمانيا) وحضر فصلين دراسيين في جامعة ماربورج لدراسة الفيلولوجيا ، وبعد ذلك درس الطب في جامعة برلين فحصل على دكتوراه الطب ببحث عن « انتشار مرض السكر » ؛ ونال لليدالية الذهبية من جامعة برلين على بحث عن « صرع البلوغ » . واشترك - كما قلنا في الحرب العالمية الأولى طبياً عسكرياً ، فلما وضعت الحرب أوزارها أقام في برلين حيث مارس مهنة الطب في عيادة للأمراض الجلدية والسرية . واستمر في ممارسة مهنة الطب حتى قبيل وفاته بقليل .

وبدأ ينشر الشعر بأسلوب أصحاب النزعة « التعبيرية » في مجموعة كانت ممنوعة آنذاك عنوانها « قطير » (سنة ١٩١٢) فيها وصف مروع رهيب قاس عبوس للآلام الإنسانية ممثلة في قاعة تشريح الجثث . وعلى حد تعبير إرنست لاسكر شولز : « كان كل بيت في شعره بمثابة عضة نمر ووثبة وحش » وعقب على ذلك بقصائد جديدة بعنوان « أبناء » (سنة ١٩١٤) توغل في نفس الاتجاه إلى الوصف القاسي المخيف للإنسان ، وهو عين الاتجاه الذي سيمضى فيه بعد ذلك في قصائده في السنوات التالية : « لحم » (سنة ١٩١٧) ، « قاذورات » (سنة ١٩١٩) ، « تمزق » (مجموعة قصائد ، سنة ١٩٢٥) : ثم جمعها كلها من بعد تحت عنوان « مجموع قصائد » (سنة ١٩٢٧) . وشعره في هذه المجموعة كلها وفي هذه الفترة كلها حافل بالألفاظ الاصطلاحية الطبية والعلمية والأجنبية .

واختير في سنة ١٩٣٢ عضواً في أكاديمية الشعر البروسية . ثم جاءت النازية إلى الحكم في سنة ١٩٣٣ فأصدر كتاباً عنوانه « الدولة الجديدة وللمثقفون » (سنة ١٩٣٣) وفي السنة التالية كتب كتاباً عنوانه « الفن والسلطة » (سنة ١٩٣٤) ، وفي كليهما أعلن اعتناقه لمبادئ النازية ، لأنه كان يعتقد في ضرورة تجديد الشعب الألماني « بالتماس مخرج من النزعة العقلية والنزعة الوظيفية والتحجير الحضاري » . لكنه مالبت أن انقلب على النازية . فوضع في قائمة « أدباء الأسفلت للنحليين » في سنة ١٩٣٦ وطرد من غرفة كتاب الدولة في سنة ١٩٣٧ . ولما أعلنت الحرب العالمية الثانية في سنة ١٩٣٩ اشترك فيها ضابطاً طبياً في الجيش الألماني ، والتزم الصمت العظيم لأن « الإنسان - كما قال - إذا نعت النازيون بأنه خنزير ، ، والشيوعيون بأنه مغفل ، والديمقراطيون بأنه داعر فكريا ، وللهاجرون بأنه هارب ، ورجال الدين بأنه عدوى مريض - خلال السنوات الخمس عشرة الأخيرة كما فعلوا معي - هكذا يقول - فإنه لا يحرص على الظهور علانية ، خصوصاً وهو يشعر داخلياً بأنه غلي غير ارتباط بهذه العلانية » (من وصفه لنفسه بعنوان : « حياة مزدوجة » ، سنة ١٩٤٩) .

ولكنه أخذ يسترد مكانته الفكرية والأدبية بعد الحرب الأخيرة شيئاً فشيئاً . فمنح في سنة ١٩٥٣ صليب الاستحقاق من حكومة جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) . وعين عضواً في الأكاديمية الألمانية للغة والشعر ، وفي الأكاديمية البافارية للفنون الجميلة . وفي سنة ١٩٥٥ كان في طليعة المرشحين لجائزة نوبل في الأدب ، ولكن توفي قبل الظفر بها ، ولو امتد به العمر لكان من المحتمل بل للمؤكد حصوله عليها .

قلنا إن جوتفريد بن بدم أنصار « النزعة التعبيرية » برؤاها السوداوية

ونزعتهما إلى الجانب القاتم من الحياة وإلى تصوير أبشع مافي حياة الناس لكنه تطور نحو نزعة أقرب إلى تصوير النور والأحلام والجانب الفاتح الوردى من الحياة .

وبدأ يترجح بين التشاؤم الكاين وبين التفاؤل القوى الإرادة . فقال
في هذا الصدد :

« لقد نظرت دائماً إلى الحياة على أنها أسيانة ، لكن مع واجب
أن أحيائها » .

وهذه النظرة قد عبر عنها في « القصائد المختارة » (سنة ١٩٣٦)
« والقصائد الاستاتيكية » (سنة ١٩٤٨) وفي مجموعة من شعره تشمل الفترة
من سنة ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥ نشرت بعنوان « السيل النشوان » (سنة ١٩٤٩)
كما عبر عنها في مقالاته العديدة التي، تحتوي إلى جانب ذلك على مذهبه في
الشعر ، وقد جمعت أولاً في مجلدين الأول منها تحت عنوان « أوجه المنظور »
(سنة ١٩٣٠) ، وفيها يصرح بن بأن « الجنس الأبيض بلغ مرحلة القضاء »
والمجلد الثاني بعنوان : « بعد العدمية » (سنة ١٩٣٢) وفيه يضع قانون
الشكل كقوة مضادة للعدمية : Nihilismus

ثم تأثر بالوجودية في كتاب له عبارة عن محاورات نشرها بعنوان
« ثلاثة شيوخ » (سنة ١٩٤٩) وفيه يحدد الموقف الوجودي للإنسان في
عصرنا الحالي ويقول : « الحياة ليست شيئاً ، والوجود هو كل شيء » :
وجمع ما كتبه من مقالات في الفترة ما بين ١٩٤٠ و ١٩٤٥ تحت عنوان
« عالم التعبير » (سنة ١٩٤٩) . وله إلى جانب ذلك مسرحيات ضئيلة
القيمة .

ومما قاله في تحديده لماهية الشعر والشاعر :
« إن الذات الشاعرة ذات شبكية Gitter-Ich ، امتحنها الفرار ، وقدستها الأحزان

وهي دائماً ترقب ساعتها التي تستدفيء فيها للحظات ، وترقب نوازعها نحو الجنوب بما فيها من غليان وتموج ، أى نشوة ، فيها ألوان التصادم ، أى تداعى روابط الواقع تم ، والحرية تخلق للقصيد - من خلال الكلمات - ،
 وها نحن نقدم مختارات من شعره .
 ونبدأ بقصيدة عنوانها : « الذات الضائعة » وفيها أسلوبه المتميز بكثرة اصطلاحاته العلمية .

الذات الضائعة

الذات الضائعة ، التي فتنها الطبقات الطخورية ،

ضحية النصر المتكهرب (الايون) - : حمل أشعة جما ،

جزيئات ومجال - : سرابات الانهياة على حجرك الأغبر الذي فى نوتردام ،

والأيام تمضى عندك دون ليل ولاصبح

والسنوات بغير ثلج ولاثمار :

تجبب الانهياة فى تهديد - ،

العالم فى فرار .

أين تلتهى ، وأين نصبت خيامك ،

وأين تمتد كراتك - خسارة ، مكسب - :

لعبة دواب ، سرمديات ،

وأنت تفر من خلال شبكتها ،

نظرة الدابة : النجوم مثل الأمعاء

والموت فى الغابة مثل سبب الوجود والخلق ،

الإنسان ، معارك الأمم ، والسهول السكاتلونية

فى حلق الدابة

العالم تشتت فكره ، والمكان والأزمنة

— ١٨٧ —

وما نسجته الانسانية ووزنته ،
 دالة فقط للانهايات - ،
 والأسطورة كذبت
 إلى أين ؟ ومن أين ؟ - لا ليل ولا صباح
 لا آهات ، ولا ترتيل لأموات ،
 أنت في حاجة إلى شعار - ،
 لكن مستعار ممن ؟
 آه ، حينما مال الكل إلى الوسط ،
 ولم يفكر المفسكرون إلا في الله ،
 وتشعبوا إلى الرعاة والجمال ،
 في كل مرة جعلهم الدم من الكأس أطهارا
 وكلهم سألوا من جرح واحد ،
 وكلهم كسروا الخبز الذي نعم به كل منهم ،
 آه ! يا لها من ساعة مليئة قاهرة بعيدة
 أحاطت يوما بالذات الضائعة !
 وهذه قصيدة أخرى أحدث عهدا ، ولكنها حافلة بنفس.
 الروح ، وعنوانها :

وداع

أنت تملئيني كما يملأ الدم الجرح الجديد
 وتسيلين إلى أسفل أثره السكابي ،
 وتتمدين مثل الليل في تلك الساعة ،
 التي فيها يتلون المرج بلون رواق الظلال ،

وتزهري كالورود الكثيرة في البساتين ،
أيتها الوحدة الناجمة عن السن والضياع
أى فضل للحياة ، حينما تتداعى الأحلام
بعد طول الآلام ومزيد العلم
فى وقت مبكر غريب عن وهم الوقائع
عازف عن العالم المعطى بسرعة ،
متعجب من خداع التفاصيل ،
حيث لا يجتمع شىء أو أحد بالأنا العميق ،
والآن من الأعماق نفسها غير متأثر بشىء ،
ودون ظهور علامة أو كلمة ،
عليك أن تحمل صمتك ، وأن تقتاده إلى أسفل
إلى الليل والحزن والورود بأخيرة..
وكثيرا ماتفكر - : الأسطورة الخاصة : -
لقد كنت كذلك - ؟ آه ، كم تنسى نفسك !
أكانت هذه صورتك ؟ ألم يكن هذا سؤالاً ،
كلتك ، ونور سمائك الذى كنت تملكه ؟
كلتى ، نور سمائى ، الذى كان ملكى ذات يوم ،
كلتى ، نور سمائى ، تبدد ، وتلاشى -
من حدث له هذا عليه أن ينسى
وأن يدع الساعات القديمة فى هدوئها دون مساس ؛
يوم أخير - : ضوءه متأخر ، أما كن واسعة ،
وماء يقتادك إلى هدف متباعد ،
ونور عال يفيض حول الأشجار العتيقة

— ١٨٩ —

ويخلق لنفسه انعكاسا في الظلال ،
لا ثمار ، ومن السنابل لا حبوب
وهو أيضا لم يسأل عن المحصول والحصاد -
أنه يلعب لعبته ويشعر بنوره -
ولا ذكريات ؛ وكل شيء قد قيل .

وهذه القصيدة الحزينة الدامية إنما هي رثاء لحاله التي آل إليها في وحدته
الرهيبه التي لم يكن له مفر منها . وقد قال يصف نفسه في هذه الحال : « إلى
أهل أفكارى وحدها ، وقانونها يقضى بأن من يتجاوز حدوده الباطنة
الخاصة ويرى إلى العموم ، فانه يبدو أمام هذه الساعة كأسا لم يدعه أحد ،
غير وجودى ، يعيش على الهامش » .

وفى هذه القصيدة أروع تعبير عن الشعور بالوحدة والغربة الذي يغمر
نفس الشاعر أو المفكر الذي غلقت أبواب زمانه من دونه .

- ٩٠ -

- ٢ -

حين يصبح التجديد هراء

وننتقل من جو تفريد بن Benn إلى هانز آرب Hans Arp الذي كان له أثره البالغ هو الآخر في جيل كامل ولكن في اتجاه مختلف تماما فإن آرب من مؤسسي حركة « الدادائية ». تلك الحركة التي نشأت سنة ١٩١٦ في « كباريه فولتير » في زيورخ (و « دادا » كلمة بلغة رومانيا معناها : نعم ، « نعم ، نعم ، نعم ! ») واشترك في تأسيسها رتشارد هولزنيك ، وترستان تزارا (من رومانيا ، ويعد زعيمهم) ، ومارسل جانكو ، ثم اختنقها اندريه بريتون ولوى أراجون وجان كوكتو (في فرنسا) ، ولكنهم لم يستمروا معها طويلا بل ألف الأولان ، وهما بريتون وأراجون ، حركة السريالية. وقد شرح آرب برنامج هذه الحركة فقال في مقال بعنوان : « حركة الدادائية لم تكن لغة فظاظة » :

« الجنون والقتل انتشرا في الوقت الذي انبثقت فيه الدادائية في زيورخ من الأحماق الأولية . . . وقد أرادت هذه الحركة أن تفزع الإنسانية لشنزعهما من تخاذلها الأليم . إن الدادائية تحتقر الاستسلام . والاقتصار على الكلام عن الدادائية ونعتها بأنها غير واقعية دون النفوذ إلى واقعيتها العالية - معناه أن يجعل من الدادائية مجرد شذرة لا قيمة لها . . . نعم إن الدادائية لم تكن لغة فظاظة » .

وآرب Arp إلى جانب كونه شاعرا هونحات ومصورا واسع الشهرة والتأثير ، لعب دورا كبيرا في حركة الفن المجرد . ولكنه هو يرى ألا يسمى هذا الفن مجردا abstrait بل concret عينيا (عكس مجرد) . وفي ذلك يقول :

« إن الناس يسمون مجردا ما هو عيني . وهذا ليس بالغريب ، فهم عادة يخلطون بين الأمام والوراء ... إلى أفهم أن تسمى اللوحة ذات النزعة التكميلية

مجردة ، لأن أجزاء انتزعت من الموضوع الذى كان نموذجاً لتلك اللوحة .
 بيد أنى أرى أن اللوحة أو النحت ، الذى لم يتخذ نموذجاً له موضوعاً معيناً ،
 هو عيى وحسى تماماً كالورقة أو الحجر . . . ولما لم يكن فى هذا الفن أى أثر
 للتجريد ، فإننا نسميه باسم : الفن العيى . وأعمال الفن العيى ينبغى ألا تمهر
 بعد بأسماء منتجيها . فهؤلاء المصورون ، وهؤلاء النحاتون ، وتلك الموضوعات
 ينبغى أن تظل بغير أسماء فى مرسوم الطبيعة الكبير ، مثل السحب ، والجبال ،
 والبحار ، والحيوانات ، والناس ، نعم ! الناس ينبغى عليهم أن يدخلوا من
 جديد فى الطبيعة ، والفنانون ينبغى عليهم أن يعملوا مشتركين معاً مثل
 الفنانين فى العصور الوسطى وفى سنة ١٩١٥ قمت أنا وفانريس وفرويندلش
 وتاور بمحاولة من هذا النوع . وكتبت فى سنة ١٩١٥ أقول : « هذه
 الأعمال صنعت بالخطوط ، والسطوح ، والأشكال والألوان التى تسعى ، من
 وراء ما هو إنسانى ، إلى بلوغ اللانهاى والخالد . إنها تكرر أنايتنا . وأيدى
 اخوتنا ، بدلاً من أن تفيدنا مثل أيدينا نحن ، صارت أيدينا عدوة لنا .
 وبدلاً من انعدام الاسم ، قامت الشهرة والروعة ، أن الكلمة ماتت » .
 ثم يأخذ آرب فى تحديد مهمة الفن الذى سماه العيى ، وينعته الناس بأنه
 تجريدى ، فقال بعد قليل : « إن الفن العيى يريد أن يغير العالم . يريد أن
 يجعل الحياة محتملة أكثر . يريد انقاذ الإنسان من أخطر جنون يمكن أن
 يصاب به ألا وهو : الغرور . يريد تبسيط حياة الإنسان . يريد التوحيد
 بينه وبين الطبيعة . إن العقل يستأصل الإنسان ويجعله يسلك مسلك وجود
 أسيان . إن الفن العيى فن عنصرى (أولى) ، طبيعى ، سليم ، ينمى
 فى الرأس والقلب بنجوم السلام الحب والشعر . وحيث يدخل الفن العيى
 تخرج السكابة وهى تخرج حقائقها السكابية المليئة بالزفرات السوداء » .

وندع آرب النحات للصور لأنه لا يعيننا هنا في شيء . ونتجه إلى آرب.

الشاعر .

ولد آرب في ١٦ سبتمبر سنة ١٨٨٧ في اشتراشبورج ، وكانت آنذاك ألمانية ، وقام بدراساته الفنية في فيمار (ألمانيا) وباريس . وأقام فترة في مونيخ (منشن) بجنوب ألمانيا . وانضم إلى جمعية فنية تدعى «الفارس الأزرق» . كانت ذات نزعة تعبيرية . وكان من أعضائها البارزين مارك ، وكاندنسكي . بول كليه ، وهم من كبار رجال الحركة الفنية في النصف الأول من هذا القرن . وأنشأ كما قلنا في سنة ١٩١٦ مع رتشردهولزنبك (ولد سنة ١٨٩٢) وهوجو بال ، وترستان تزارا (ولد سنة ١٨٩٦) ومارسل جانكو وحركة الدادائية . وفي سنة ١٩٢٢ تزوج الرسامة صوفي تاؤبر (توفيت سنة ١٩٤٣) . ثم أقام في باريس سنة ١٩٢٦ وخصوصا في ضاحية ميدون .

وبدأ يكتب الشعر منذ سنة ١٩١١ باللغة الألمانية ، وظهرت له أول مجموعة من الشعر في سنة ١٩٢٠ تحت عنوان : «الطائر» ، ثم أخرى بعنوان « مضخة السحائب » (سنة ١٩٢٠) ثم « الرداء الهرمي » (سنة ١٩٢٤) ، وكذلك « أبيض وأسود » (سنة ١٩٢٠) و « أصداف ومظلات » (سنة ١٩٣٩) . ثم نشر في سنة ١٩٥٣ مجموعة مختارة من شعره الذي نظمه في الفترة ما بين ١٩١١ و ١٩٥٢ ، تحت عنوان : « كلمات حاملة ونجوم سوداء » (سنة ١٩٥٣) ، وقدم لها بمقدمة يكشف فيها عن كيفية « اختراعه لنوع من الفن الشعري التركيبي » . ونظراً لأهميتها في بيان مذهبه في الشعر ، فإننا نقطف منها ما يلي : قال :

« ملأت صفحات تلو صفحات بكلمات مرتبطة ارتباطاً غير مألوف ، وصنعت أمثالا غير مستعملة من أسماء . . . وبعد ذلك بزمان طويل تبينت

— ١٩٣ —

المساهمة العميقة لمثل هذه « الألاعيب العديدة للمعنى » وعن قصد صورت مثل هذه التجارب الحية . والكلمات ، والأمثال ، والجلل ، التي اخترتها من الجرائد اليومية وخصوصاً من الإعلانات ، ألفت في سنة ١٩١٧ الأساس في قصائدي . وكثير من القصائد التي تضمها مجموعة « مضخة السحاب » شبيهة بالقصائد الأوتوماتيكية . إنها نظمت مثل القصائد السريالية الأوتوماتيكية ، دون تفكير ولا صنعة .

وظل آرب مخلصاً للدادائية ، حتى إن المجموعة التي أصدرها سنة ١٩٥٧ تحت عنوان « كلمات ذات وبدون مرساة » - وتضم قصائد جديدة ، إلى جانب القصائد القديمة - لا تزال تشيع فيها روح الدادائية (تضم قصائد من سنة ١٩١٨ إلى سنة ١٩٥٦) ، وظهرت له في سنة ١٩٥٩ أشعار بعنوان : « رمل القمر » ، وفي سنة ١٩٦٠ بعنوان « الرنين للزوج » ، وفي سنة ١٩٦١ أشعار بعنوان « شعلات متألمة » .

وظاهر ما في عنوانات هذه المجموعة الشعرية ، التي كتبت كلها بالالغة الألمانية ، من غرابة ومعاظلة لها من خصائص الدادائية . وشعره يمثل أقصى ما بلغه اتجاه هذا المذهب المفرط في الاغراب والمعاظلة إلى حد السخف والهراء .
وها نحن أولاء نقدم نماذج من شعره الأخير :

— ١ —

قدماى السعيدتان

الماء

وفي أعلى سقوف بيت من منزل

تعوى بومة .

(م ١٣ - الأدب الأوربي)

تشاهد الموت متنكرا وهو يركب على دراجة .
 لقد أسند الموت دراجته
 إلى جدار البيت للنعزل .
 والموت يشبه الجراد الأبيض .
 بغير صوت يقفز في داخل البيت
 من خلال النافذة المفتوحة .
 وقدمائى السعيدتان لا تريدان أن تعرفا شيئا
 عما يجرى حياهما في قلبي ورأسى ،
 ولا أصبع من أصابع قدمي الخمسة
 يريد أن يعرف عن ذلك شيئا .
 إن قدمي السعديتين
 مهتمتان خصوصا
 بفتح أصابعهما فتحا تماما أثناء المسير
 والآن قُضِي على الرجل المسكين في البيت :
 لقد ذُبح
 ولحمه تملح .
 أود لنفسى
 عصا معجونة من الخبز .
 وأود لنفسى
 فم بحر هائلا أخضر أزرق
 له أسنان من المرجان
 أقضم بها كل النجوم

— ١٩٥ —

التي استحضرتها السماء بسحرها .
يودى لو استطعت أن أقضمها مثل البندق .

— ٢ —

لكننا نحن أصحاب الشكاوى

المازفين على الهارب
وعلى وجوههم سياء الجعران غير المتحرك
يضر بون على الأوتار بشدة .

والصبيان العديم الأرواح
يلعبون بكرات ذوات أرواح .
والمتعردون كالقنفاذ
المهرة كل المهارة

تحيط بهم شئونهم الخفاء
ينتظرون الزمان
الذى فيه

يتساقط الثلج فى أصبونة الملابس .
وعامل الجلود

ينادى هيدا .
وشجرة بغير أجنحة
تدعى أنها من ذوى قرابتنا .
لكننا نحن أصحاب الشكاوى
تمسك فى لهفة

برسالتنا عاليًا

ونأمل

أن تسقط من السماء السوداء

قطرة من شمم الختم الأبيض

لإغلاق رسالتنا .

وتسكنى هاتان القصيدتان لاعطاء القارى فكرة عن هذا اللون من « الشعر » الذى يمثل الطرف الأقصى من « الشعر » الألمانى « الحديث » ، أعنى الذى بلغ القمة فى الإسفاف. ولكن حجة أصحابه التى يسوقونها لتبرير هذا الشعر هى أنهم يريدون أن يجذبوا الشعر فى كل شيء ، حتى فى أتفه الأمور وكما قال زعيم الدادائية ترستان تزارا « إن المقصود من هذا الشعر هو التدليل على أن الشعر قوة حية تحت كل المظاهر ، حتى غير الشعرية منها ، والكتابة ليست غير أداة عارضة وليست أبدا لا غنى عنها ، وأن الشعر تعبير عن تلك التلقائية التى لا نجد لها اسما ملأنا ، ولهذا نسميها تلقائية دادائية » .

ولقد يطرب المرء أحيانا لبعض النراكيب ، رغم ما فيها من معاذلة ، نظرا إلى جدة العبارة ونضارة الصورة والسحر الملازم لكل مفارقة. ولكن هذا الشعر ، إن جاز أن نسميه شعرا حقا ، يدل فى مجلته على فقر روحى بالغ : فقر فى الأفسكار ، وتلثم فى التعبير ، وتخاذل فى التقاط المعانى وعدم وضوح رؤية فى الصور .

ومن هنا لم يكن لها ناز آرب الشاعر -- لا النحات المصور -- أثر يذكر فى الشعر الألمانى . وحتى الشعر الفرنسى ، الذى كان أول من تأثر بحركة الدادائية لدى أندريه بريتون ولوى أراجون وفيليب سويو -- سرعان ماضق ذرعا بهذا الضرب من الشعر ، رغم حرص هؤلاء البالغ على التجديد بأى ثمن ، فانفضوا عن هذه الحركة وحولوها إلى حركة أخرى هى « السريالية » .

حركة إن لم تكن أفضل كثيرا — بل ولا قليلا — من الدادائية فإنها على الأقل استثمرت عالم الأحلام وانثيال الخواطر في غير ضبط مما قد يؤدي في بعض الأحيان إلى شعر حافل بالايحاء .

وننصرف عن آرب وألاعييه ومعاظلاته إلى شاعر غنائى ممتاز كان في طبيعة شعراء الطبيعة الألمان في هذا القرن وهو أوسكار ليركه Loerke الذى ولد في يونجن (بروسيا الغربية) في ١٣/٣/١٨٨٤ وتوفي في برلين في ٢٤ فبراير سنة ١٩٤١ ، وكان قارئاً لدى الناشر الشهير فشر ، وعضواً في أكاديمية الشعر . وكان شعره تعبيرا عن قوى الطبيعة الأولية وما في الكون من موسيقى تملأ الدنيا ، قد تغنى بالسرور الأصيل والألم الأصيل بوصفهما عنصرين خالدين في الكون . وتأمل المدن في حزن مشفق ، ورأى في لآلئها مطهر الزمان .

ومن بين مجموعات الشعرية نذكر : «التجوال» (سنة ١٩١١) ، «قصائد» (سنة ١٩١٦) ، « المدينة الأليقة » (سنة ١٩٢١) ، « أطول يوم » سنة (١٩٢٦) ، « أنفاس الأرض » ، سبع قصائد طويلة (سنة ١٩٣٠) ، « غابة العالم » (سنة ١٩٣٦) .

وليركه ذو أثر كبير متواصل في الشعر الغنائى الألمانى المعاصر ، بحيث يمثل تيارا قويا ينتسب إليه زهرة الشعر الألمانى الحديث ، نخص بالذكر منهم بيتر هوخل واليصابات لانججيسر وكارل كروloff ومارى لويزه كاشنتس ، ولنقدم قصيدتين من شعره :

ليالى الصيف فى الريف

حصاد الحزن العالق يرتعد من الدردار :

— ١٩٨ —

وها هي ذى السرمدية السفلى العجلى تنبثق من الجذور .
 والضباب المتحسس المفسد يلتوى ويتسلق من الينابيع .
 ومن الجحور يأتى الرعب الجائع ويتزايد شيئاً فشيئاً .
 هل شد الأفق أوتاره الشاكية لتعزف لحن الأئين ؟
 واأسفاه ! لقد أحوالت الأرض مدرها الحامل إلى غيوم .
 والقرب الحافل بالزفرات النائمة بمرارة صار من الصعب ادراكه .
 والسماء مائلة كأنها جبل صامت من الهموم .
 وجبل الهموم قائم هناك ، صامت صمت الزجاج أمام كل الأهداف ..
 وكل من ينشد بقاها أعذب يجد نفسه موصد الطريق أمام العالم .

— ٢ —

نهر

أنت تجرى مثل الزمان الرخيم ، وتنتزعى من الأزمان
 وقدمى ويدي نائمتان بعيدا ، تنعسان على خيالى .
 لكن النفس تنمو إلى أسفل ، وها هي ذى قد بدأت فى الانزلاق
 والسير والعبل
 وها هي ذى قد صارت هى النهر
 وبدأت تتحسس فى الظلمة الكابية ، ظلمة القاع الرملى ذى الثقل الباهظ
 بدأت تنعكس ، والشواطىء تنظر إليها ، وهى لا تعلم ذلك .
 وفى نفسى تذب شجرة أسان العصفور بشعر طويل
 حافلة بترانيم الرياح الرهبانية ،
 والحقول ذوات الثيران المتصاولة

— ١٩٩ —

وصياح الطيور الدافئة .
وفوق المزرعة والمرج والشجرة مكان سامق ؛
والسمك وفيران للماء والضفادع
تجربى خلاله كأنها أحلامه —
وهكذا أندفع أنا في خط الأرض الدافئ ،
وأكاد أشعر بأنى أنا موجود :
أنى لي أن أقيس طيران الحمام بغير قياس !
لأنه يرفُّ إلى في عمق ويسمو ، في سمو وعمق .
وكل شيء هو مجرد إيمان بآخرة .
وأنت وأنا ، واثق طاهر
وأخيراً تصاعد في نفسى أبراج الضباب والغيوم
كأنها قصر السلطان الإلهى
فأتوَجَس أن الخلود يريد أن يبدأ بشذى الملح .

— ٢٠٠ —

— ٣ —

الكلاسيكي المعاصر

ومن الشعر ذى الاتجاهات المتطرفة نصل إلى الشعر الرصين الراسخ الذى يمثل فى هذا العصر نفس التيار للتدفق من جيته وهيلدرلن ونيتشه واستفن جيورجه والذى يمكن أن يسمى بالتيار الكلاسيكي فى تاريخ الشعر الغنائى الألمانى .

هنا القيم الأصيلة الثابتة أبداً مهما تغيرت عوارض الزمن ؛ وهنا الوزن الحافل الذى لا يعث به عبث العابثين من أمثال اويجن جومرينجر (Eugen Gomringer) (الذى ولد سنة ١٩٢٥) والذى بلغ القمة فى الألاعيب الشكلية ، ورأى فى الشعر وسيلة للتجريب - أو التخريب ، والمعنى هنا واحد - مثلما نشاهد من تجريب - أو تخريب - صبيانى فى للعمار والتصوير والنحت . ومن أمثلة عبثه التجريبي - أو التخريبي - القصيدتان التاليتان :

— ١ —

الكلمات ظلال
والظلال تصير كلمات

والكلمات ألاعيب
والألاعيب تصير كلمات

ظلالٌ هى الكلمات
وتصير الكلمات ظلالاً

الألاعيب هى الكلمات
وتصير الكلمات ألاعيب

— ٢٠١ —

الكلمات هي ظلال
وتصير الظلال كلمات
الكلمات هي الألاعيب
وتصير الألاعيب كلمات

— ٢ —

والقصيدة الثانية مجرد حروف وأصوات ، وإن كانت تدل بعض كلماتها على
معان باللغة الإنجليزية ، ولكنها في لغتها الألمانية لا تدل إلا على مجرد مقاطع
وحروف وأصوات ؛ رتبت - مطبعياً - بشكل هندسي يؤلف أقواساً
ومنحنيات هكذا :

	و	
	بو	
	بلو	
	بلو بلو	
	بلو بلو بلو	
	بلو بلو	
	بلو	
	بو	
و	و	
جو	سو	
جرو	شو	
جرو جرو	شو شو	
جرو جرو جرو	شو شو شو	و

— ٢٠٢ —

جرو جرو	شو شو
جرو	شو
جو	سو
و	و
لو	
	فلو
	فلو فلو
	فلو فلو فلو
	فلو
	لو
	و

وفي هذين النموذجين ما يكفي للتدليل على ما عسى أن ينتهي إليه مثل هذا «التجريب» - التخريب - الشعري الذي يزعم أصحابه أنه الغاية في التجديد، ويا ويح الإنسانية إن انتهى بها «التجديد» إلى هذه الألاعيب الهاذية!

لكن من حسن الحظ أن هذه الألاعيب لا يمارسها إلا المفلسون من كل موهبة شعرية، للمـؤـهـون عن عجزهم وتفاهتهم وقصور ملكاتهم بهذه المهازل. ومن حسن الحظ أيضاً أنها لا تجد من يعطيها أكبر من هذه القيمة أعنى عدم القيمة. ولكن الأمر المحزن عندنا في العالم العربي أن بعض العابثين المفلسين من ملكة الشعر يحسبون في ذلك «تجديداً» و «تقدماً» و «انطلاقاً»! ويحاولون أن يضربوا على هذا القالب - أو ما هو قريب منه - جاهلين أنه لا يوجد إنسان جاد في أوربا يأخذ هذه المحاولات مأخذ الجد، بل ولا حتى.

أصحابها أنفسهم ، ومع هذا فإن أصحابها لا يمثلون من بين الشعراء ولا واحداً في الألف !

فلا تزال صدارة الشعر في أوروبا اليوم لأولئك الشعراء الكلاسيكيين . في حياتهم - وليس فقط بعد مماتهم - لللتزمين لقانون الشعر الكلاسيكي . الأصل - ، الحريصين على الأوزان بكامل تفعيلاتها ، وعلى القوافي حسب ميزان الشعر في كل لغة لغة .

ومن بين هؤلاء الشعراء « الكلاسيك » في الشعر الألماني للعاصر نذكر هنا شاعراً وشاعرة .

والأول هو فريدرش جيورج يونجر Friedrich Georg Jünger الذي ولد في أول سبتمبر سنة ١٨٩٨ في هانوفر (بشمال ألمانيا) ابناً لصيدلي هناك ، ونشأ في هانوفر وجبال الأرتس (في سكسونيا وبوهيميا) على شواطئ بحيرة اشتينهودر بالقرب من مستطراسه . وبعد حصوله على البكالوريا تطوع في الحرب العالمية الأولى ، وحاد منها مثقناً بالجراح . وفي سنة ١٩٢٠ - وكان بمرتبة ملازم - ترك الجيش الألماني ، ودرس القانون في ليبستسك وهاله وحصل على الدكتوراه في القانون برسالة عن ملكية الطوابق (في العمارات) ، وفي سنة ١٩٢٦ ترك مهنة المحاماة ، ومنذ ذلك الحين عاش كاتباً حراً في برلين .

وفي الفترة الأولى من حياته كان يشارك أخاه ارنست يونجر إيمانه بالبطولة والأبطال والنضال والحرب ، وتوكيد الحياة بالملاء بها . ولكنه منذ سنة ١٩٢٨ وحتى سنة ١٩٣٥ انصرف إلى نظرة أخرى مضادة ، وانضم إلى جماعة المقاومة التي تألفت حول ارنست ينكش ، وأخذ يهاجم النازية في شعره ، فلاحقته الشرطة السرية الألمانية SS . وفي سنة ١٩٣٧ ارتحل إلى أوبرنجن على بحيرة بودن (كونستانس) حيث استقرت به الحياة .

وقد فاز بجائزة الأدب من أكاديمية بافاريا للفنون الجميلة سنة ١٩٥٠ ،
وبجائزة بحيرة بودن الأدبية سنة ١٩٥٥ ، وبجائزة الأدب التي تمنحها
رابطة الصناعة الألمانية سنة ١٩٥٦ ثم جائزة فلهم رابه سنة ١٩٥٧ .

وشعره يمتاز بالنزعة الإنسانية الماصعة ، والإيمان بالحياة ، ويرى إلى
التوحيد بين العالم القديم والعالم الحديث . وهو إلى جانب ذلك ، خصوصاً
في الفترة الأولى من حياته يمجّد النضال والحرب والمعارك ، ويشيد بحياة
البطولة ، ويتغنّى بالورود والأزهار ، وليالي الربيع واللازمان في الخريف .
ويظهر هذا جلياً في ديوان شعره الأول بعنوان : « قصائد » (١٩٣٤) .

أما في ديوان شعره الثاني بعنوان : « الثور » (سنة ١٩٣٧) فيتغنّى
بالتأروا والور بوصفه المحرك لكل ما هو حي ، ويمجد الشكل والصورة ، وهو
المعنى الذي نجده كذلك في ديوان شعره الثالث بعنوان : « المسوري »
(سنة ١٩٤٠) ، وفيه يقول في قصيدة له :

« دائماً أمتعنى رمى البصر
وعيونى مولعات بالصور
وبلا يسر يعيننى الزمان »

وفي سنة ١٩٤٦ ظهرت له مجموعة شعرية أخرى بعنوان : « الريح الغربية »
وفي السنة التالية ظهرت له المجموعات الشعرية : « صومعة الأشواك الفضية »
و « بيت داليات السكر » ، و « سَمَطُ اللَّآلِي » ؛ ثم جمعت كلها تحت
عنوان : « خاتم السنين » (سنة ١٩٥٤) . كذلك ظهر له ديوان في سنة ١٩٤٩
بعنوان : « قصائد » ، جمع فيه شعره المتأثر بأسلوب الحياة الكلاسيكية .
وتوالت المجموعات الشعرية : « الاقحوان في الرياح » (سنة ١٩٥٢) ،
و « النهر الأسود والغابة البيضاء » (سنة ١٩٥٥) .

وإلى جانب هذا الشعر الوفير كتب يونجر مقالات وأبحاثاً عديدة ، نذكر منها مقالا عن « الهزلى » (سنة ١٩٣٦ ؛ سنة ١٩٤٨) فيه تناول الهزل والمزاح والتهكم والمفارقات والملحة والكاريكاتور . وكتب بحثاً بعنوان : « التكنيك » (سنة ١٩٤٦) ، أثار مناقشات عنيفة ، وترجم إلى عدة لغات ، وفيه ينقد التفكير التكنيكى ، ويهيب بالقيمة الحقيقية للإنسان فى مقابل الصناعة الفنية . وقد تابع نقد الآلية والتكنيك فى بحث آخر ظهر سنة ١٩٤٩ . ثم نشر فى سنة ١٩٤٨ مجموعة من المقالات تحت عنوان : « الشرق والغرب » ، وفيها دراسات عن قصائد Uden كلوبستوك Klopstock الشاعر الألمانى الرائد (١٧٢٤ - ١٨٠٣) وعن مارتينال الشاعر اللاتينى (٤٣ - ١٠٤ م) وعن الشعراء الفرس وحكايات من « ألف ليلة وليلة » . وكتب ذكريات عن حياته ظهر منها القسم الأول بعنوان : « أغصان خضراء » (سنة ١٩٥١) وفيه يروى ذكريات حياته ، الخارجية والباطنة ؛ ويعنى بتطوره الروحى ؛ وتابع مذكراته بعنوان : « امرأة السنين » (سنة ١٩٥٨) وتشمل الفترة من سنة ١٩٢٨ حتى سنة ١٩٣٥ .

ويونجر فى طليعة من نقدوا الآلة فى هذا العصر الذى ساد فيه التكنيك وضاعت فيه قيمة الإنسان بوصفه إنسانا . ومن أقواله فى هذا الصدد : « إن روح الإنسان وجسمه كليهما له قوة البذل والإعطاء . أما التكنيك فلا يبذل ولا يعطى شيئا ، إنه ينظم الحاجة فقط . . . ولهذا فإن أقل عملية تكنيكية تستهلك أكثر مما تنتج » . ويقول فى موضع آخر : « إن الروح تحب المتنوع ، ولكنها تفضل الإيجاز ، وتحب التبسيطات والوحدة التى تنزع فيها إلى السيطرة » .

وهانحن أولاء نقدم مختارات من شعره :

— ٢٠٦ —

— ١ —

بعصير التوت

(١)

بعصير التوت طلا الأطفال

وجوههم الصغيرة .

إنهم نهمون ، ذواقون للحلوى .

ويرقصون بملابسهم المرقعة ،

ومعهم ترقص الرياح الغربية ،

ترقص على حبال الغسيل .

والأمركم كما لو كان نسيم من الحياة العجيبة

يملاً أغلفة الإنسان الخاوية .

الأشباح ، والأرواح ، والأحلام .

وطبل يدقّ في القرى ذوات الظهيرة الناصعة ،

وصياح السهاني ، وغناء الصرد في آجام السدو .

كل هذا بسيط .

لقد عدت ،

عدت إلى حيث بدأت .

ولاحظت أن المهد شبيه بالحد .

وقيست الدائرة ، أي :

وجد المركز .

— ٢٠٧ —

(ب)

إني لا أنزل إلى أعمق
من المكان الذي ينبثق منه الينبوع،
والذي عنده تشتعل النار،
لا أنزل إلى أعمق من هذا.
من الجذر إلى التاج،
تصاعد الأغاني،
ثم من جديد
يساقط النشيد.
أن تمس ما هو ظلام
وما هو نور -
هذا هو السلوك الكامل
للقصائد.

— ٢ —

لأن من رنين أغانيك الرائع

لأن من رنين أغانيك الرائع
اهتز ملكوت اللوتى نفسه
حدث أن المحبوبة
راحت من جديد ترق في الأثير الوضاء
ولو لم يرتد بصرك
إلى الوراء في ارتياب

لكانت قد وهبت
 حياة جديدة من خلال قوة الذئب .
 ويجب على كل شاعر
 أن يتجاسر على الرحلة إلى مقابر العالم السفلي
 ابتغاء أن يرفع ، مثل « أورفيوس » ،
 يرفع « يوروديكاس »^(١) إلى النور
 إن الخزاعي في داليات كرومي
 وهي تتأرجح بأنفاس المسك
 لاشك أن لها جذوراً ،
 تصل إلى أعماق العالم السفلي
 وهذا الأريج كأنه مفتاح
 إلى أقصى الأماكن ،
 حيث تحلم أرواح كل الأزهار
 أعز الأحلام .
 إن زورق « خارون »^(٢) الأسود
 لا يمكنه الوصول إلى الشاطئ الآخر

(١) أشهر البطولات اللواتي سمين بهذا الاسم هي الدرويدة ، زوجة أورفيوس ، التي ماتت فتزل أورفيوس إلى العالم السفلي للبحث عنها ، وبفضل سحر غنائها سمحت له الآلهة بإعادتها إلى الأرض بشرط ألا ينظر إليها قبل أن يصل إلى نور الشمس . ولكن أورفيوس لم يتمالك نفسه من النظر إليها قبل الخروج من العالم السفلي ؛ وفي الحال أعادتها الآلهة إلى هذا العالم السفلي ، وخاب سعي زوجها اليأس أورفيوس .
 (٢) « خارون » هو جني في العالم السفلي ، مهمته نقل الأرواح خلال مستنقعات « الأخرون » إلى الشاطئ الآخر من نهر الموتى ، ويتم هذا العبور مقابل قطعة من النقود . ومن هنا جرت العادة بوضع قطعة من النقود في فم الموتى حين دفنهم .

— ٢٠٩ —

دون أن تنظم الساعات البراقة
طاقة من الورد هاهنا .

* * *

أما الشاعرة فهي انجبورج بجمان Ingeborg Bachmann ، التي ولدت
في ٢٥ يونيو سنة ١٩٢٦ في كلاجنفورت (عاصمة مقاطعة كارنثيا في النمسا)
وحصلت على الدكتوراه في الفلسفة من جامعة فيينا في سنة ١٩٤٩ برسالة
عن : « القبول النقدي لفلسفة مارتن هيدجر الوجودية » .

ومن رأيها أن الشعر مثل الخبز ، « ولكن هذا الخبز يجب أن يطقق
بين الأسنان ، وأن يثير الجوع من جديد قبل أن يهدئه . ويجب أن يكون
مرهفًا بالمعرفة ؛ 'مرآة' من الحنين حتى يستطيع أن يوقظ الناس من سباتهم .
فنحن نأثمون حقًا ، ننام خرفًا من أن نضطر إلى إدراك ذواتنا وإدراك
عالمنا » .

ولها مجموعتان من الشعر . الأولى بعنوان : « الزمان المؤجّل »
سنة ١٩٥٣ ، والثانية بعنوان : « نداء الدُّب » سنة ١٩٥٦ .
ومن قصائدها هذه القصيدة ، بعنوان :

إلى الشمس

أجل من القمر البديع ونوره النبيل ،
أجل من النجوم ، وهي زينة الليل الباهرة ،
وأجل كثيراً من المعان المشبوب للنجم المذب
وأجل من سائر النجوم ،

لأن حياتك وحياتي تتعاقب بها كل يوم - الشمس !

(م ١٤ - الأدب الأوربي)

-- ٢١٠ --

الشمس الجميلة التي تشرق ولا تنسى عملها
وتتمه ، على أجل وجه في الصيف،
حينما ينتشر الضباب على الشواطئ ، والشرع ينعكس بغير قوة
ويمضي فوق عينك ، إلى أن تتعب وتختصر الأخير .
وبغير الشمس يتخذ الفن الحجاب من جديد ،
ولا تظهرين بعد لي ، والبحر والرمل
تلسعها الظلال بالسياط ، وتقرّ تحت جفوني . .
لا شيء أجل تحت الشمس من أن يكون المرء تحت الشمس !

— ٢١١ —

— ٤ —

حتى أشد المجدين يلتزمون الوزن والقافية

وبرتولت برشت يمثل ، كما هو معروف ، تيار « الشعر : وثائق ومنشورات » . وقد قال بصريح العبارة : « كل القصائد الكبرى لها قيمة الوثائق » . وتتضمن طريقة المؤلف في الكلام ، والمؤلف إنسان مهم » . وهو معروف أيضاً بنزعة اليسارية التي اختلف الناس في المدى الذي تذهب إليه ولكن المحقق أن منحني تطوره في هذا الاتجاه قد سار من التطرف في مطلع شبابه إلى الاعتدال شيئاً فشيئاً حتى نهاية حياته في ١٤ أغسطس سنة ١٩٥٦ ولكن للمعنى الذي ظل مخلصاً له طوال حياته هو السلام ، خصوصاً وقد عانى أهوال الحرب الأولى في ميدانها ، وشاهد آثار الحرب الثانية بعد عودته إلى وطنه . ومن الشواهد الجيدة على هذه النزعة قصيدة نظمها سنة ١٩٥٠ بعنوان : « إلى أبناء وطني » ، يقول فيها :

يا من بقيتم أحياء في المدن الميتة
كونوا إذن رحماء بأنفسكم !
لا تعودوا إلى الحرب ، أيها المساكين !
أو لم تكفكم الحروب السابقة ؟ !
إني أتوسل إليكم أن تراءفوا بأنفسكم !

أيها الناس أمسكوا المسطرين ، لا السكين !
كنتم ستظفرون أخيراً بسقف تأوون إليه ،
لو أنكم لم تختاروا السكين ؛
والإيواء تحت سقف لاشك أفضل .

إني أتوسل إليكم أن تمسكوا المسطرين وتدعوا السكين !

— ٢١٢ —

أيها الأطفال ، عليكم أن تبصروا آباءكم
حتى يجنبوكم ويلات الحروب
صيحوا عالياً إنكم لا تريدون السكنى بين الانقاض
ولا معاناة ما عانوا هم من آلام :
أيها الأطفال ، حتى يجنبوكم ويلات الحروب .

وأنتن أيها الأمهات ، مادام الأمر لكن
فى السماح بالحرب أو عدم السماح ،
فإنى أتوسل إليكن أن تدعن أولادكن يعيشوا !
حتى يدنن لكن بالميلاد لا بالموت :
أيها الأمهات ، دعن أولادكن يعيشوا !
وحينما عاد إلى مسقط رأسه أوجسبورج بعد الحرب العالمية الثانية قال :
بلدتى ، كيف أجدها الآن ؟
بعد أسراب قاذفات القنابل
أتيتُ إلى بلدتى .
أين هى الآن ؟ إنها حيث
تصاعد أجبال هائلة من الدخان .
تلك المشتعلة بالنيران هناك
هى بلدتى .

بلدتى ، كيف تستقبلنى ؟
قبل قدومى جاءت قاذفات القنابل
أسراب قتالة أعلنت إليك عودتى .
ضرمات النيران سبقت مقدم الابن .

ويكفي هذان الشاهدان مما كتبه برتولت برشت بعد الحرب العالمية الثانية - وهو ما يعيننا في هذا البحث - لننل على اتجاهاته . أما من ناحية الصياغة (أو الشكل كما يقال) فإن شعر برشت يتبع الأوزان للمألوفة في الشعر الألماني ولا ينحرف عنها أدنى انحراف ، وكثيراً ما يلتزم القافية أكثر مما كان يفعل الشعراء الألمان في العصر الكلاسيكي والرومنتيكي، ويبالغ أحياناً فيلتزم قافية واحدة في خمسة بل ستة أبيات متتالية - كما فعل في القصيدة الأولى هنا - وهو أمر لم يكن يلتزمه أشد الشعراء حرصاً على عمود الشعر في الشعر الأوروبي كله ، لا الألماني وحده . - ولغته في شعره لغة رصينة حافلة نفحة العبارة جزلة الألفاظ .

فهل يتعظ بهذا للمثل البارز «دعاة» ما يسمى عندنا بالشعر «الحديث» ؟ وهل يكون لهم في برشت - مثلاً - أسوة ؟ هذا ولن يجادل إنسان في أن برشت في قمة المجددين في الشعر الأوروبي بمامة ، ذلك لأنه - وهو الشاعر الموهوب حقاً ، لا ادعاء - عرف أين يكون التجديد ، وما الذي يجعل الشعر جديداً ، وعرف حق المعرفة أن الترام أوزان الشعر الأصلية الراسخة شرط لاغنى عنه في تسمية الكلام شعراً ، وبدون هذا الالتزام للوزن - المسمى عند أولئك الدعاة بـ «التقليدي» أو العمودي - وكذلك الأخذ بقدر من القوافي متفاوت سعة ومدى ، لا يمكن أن يسمى الكلام شعراً .

وننتقل من برتولت إلى شاعر آخر من نفس الاتجاه الشعري وهو أدريان تورل Turel الذي ولد في ١٨٩٠ سنة في بطرسبرج ، وكان أبوه من أسرة مزارعين في إقليم القو ، وأمه من أسرة معلمين انحدرت من شمال ألمانيا ونشأ في مزرعة أبيه في إقليم القو Vaud (سويسرة) . ومنذ بلغ العاشرة عاش في ألمانيا خصوصاً في برلين ، ثم ارتحل عنها إلى اتسورش (زيورخ) عام ١٩٣٤

حيث عاش إلى أن توفي في ٢٩ يونيو سنة ١٩٥٧ . وإلى جانب الشعر ، كتب مقالات وأبحاثاً فلسفية جمع فيها بين الفزياء وعلم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ وضمها في نظرة ذات نزعية وضعية نقدية معاً . ويرى أن مهمة الشعر الغنائى هى أن يعمل — إلى جانب الفزياء النووية ومع التصوير الحديث — من أجل إيجاد تركيب جديد للإنسان مبنى على جعل العالم محور الفكر الإنسانى .

وشعره يعبر فيه عن هذه النظرة بفلسفته العامة ، طبعاً بلغة شعرية خالصة

ومن بين القصائد التى اختارها له أصحاب تلك « المجموعة الشعرية » (لشعر الألمانى منذ سنة ١٩٤٥) نقدم ترجمة القصيدة التالية بعنوان : « أيتها

المشقة (التعب) ، يازوجتى العزيزة ! » :

يا زوجة أعمالى ، يامشقة !

إن التعب ، شأنه شأن الموت والنوم ،

ينبوع للأعمال —

كم قطعت الطريق بين الثاج والجليد !

بساط الموت فى حقل الجليد

صرت تحت نعالى الثقيلة ، كأنه زجاج من القطيفة —

من سمع تحشية بلورات الثاج هذه

وهى تصر تحت أقدامى ؟

بساط موت

بساط تنسل خيوطه ، رقيق مثل المروج الخافلة ،

تغوى مثل الموت —

تغوى مثل حورية البحر ،

وهى تتنفس عند الشاطئ المتلاطم الأمواج —

— ٢١٥ —

يا زوجة أحمالي ، يامشقة ،

يا حورية بديعة التكوين تتنفس من حشية الثلج !
كم كنت سلطاناً في الحريم الواسع لجبال الثلج هاتيك !
لقد مشيت فوق هذا البساط والنعاس يغالبني .

والثلج تحشى وصر

على إيقاع سيرى من تحتي --

إنني أستحم في أخطار نوم لذيذ في الثلج الرقيق .

وكما في الموت والحب

أستحم في النعب والمشقة .

أيتها المشقة ، يا زوجتي العزيزة

يا أم أحمالي

مثل النوم والموت .

* * *

وله قصيدة أخرى استلهم فيها أبيات دانتة المشهورة التي قال إنها منقوشة
على باب الجحيم ، وهي هذه الأبيات (والمتكلم هنا هو باب الجحيم) :

« من خلالي يمر المرء إلى المدينة الأليمة

ومن خلالي يمر المرء إلى العذاب الدائم

ومن خلالي يذهب المرء بين الضالين . . .

تخلوا عن كل رجاء أيها الداخلون . »

وها هي ذى قصيدة أدريان تورل :

من خلالي يذهب المرء إلى التطهير من كل الخبائث

من خلالي يذهب المرء إلى نار تطهير الشموس .

من خلالي يذهب المرء إلى الرجوع من الآخرة .

من ييأس هنا ، فليدع كل أمل ينمض .

— ٢١٦ —

من يئأس هنا ، ليكفه الحيوان .
 من يئأس هنا ، فليذبل ويصبح تراباً
 من يكسر الأبواب ، فإنه هو هذا الباب .
 من عنده حظ ، فهو حظ لاخوانه .
 من ينقض على النجم هو نفسه نجم .
 من أجل سهمه كان الوتر .
 إن المقرب (التلسكوب) ليس إلا معطفاً للشعاع .
 وهذا الجسم الجميل ينبغي أن يغرينا
 بالإنتاج والمستقبل .
 وكما يشمر القفاز عن نفسه
 تشمر الأم عن أولادها .
 من خلالي يذهب المرء إلى نار تطهير الشموس .
 ولقد عدت ظافراً من الآخرة .
 وهناك تعلمت لغة أخرى .
 من ذا الذى يتكلم لغتي بعدُ في فلورانس ؟
 أو في لاتيران الخالي ؟ أو في بيزا ؟
 أو بين بابوات آفنيون الملاحدة للملاعين ؟
 ونسر قيصر يصصر
 بأجنحة متكسرة
 من ذا الذى يتكلم اللغة التى تعلمتها هناك ؟
 ولم يرحل الإنسان إلى الآخرة مثل النجم المذنب
 إن لم يرحل إلى هنا مثل النحل .
 ليهب الوطن شمعاً ذهبياً ؟

وهذا الشعر الذى قد يلوح إنسانياً ، إنسانياً جداً نجد فى مقابله شعراً آخر ذا نزعة دينية صارخة ، حتى إن صاحبه قالت : « لست شاعرة غنائية بالمعنى الضيق لهذا اللفظ ، ولكن أبيتى أجزاء من ليتورجيا (طقوس دينية) ، ولا يستطيع المرء أن يفهمها إلا فهماً لاهوتياً - لكن ليس معنى هذا أن لها أصلاً عقلياً . إنها قصائد أسرار دينية محضة ، وأخشى أن يكون ذلك سبباً فى جعل قبولها أصعب من تلك القصائد التى تتوجه إلى الإدراك العقلى وحده . لأن كل قصيدة من هذه المجموعة (« البستانى والوردة » سنة ١٩٤٧) تبدأ بخطوة رقص إله ، ولا أعرف فى البداية إلى أين تمضى بي . لكنى أعرف من ذا الذى يمضى بي »

هذه الشاعرة هى اليصابات لانبجيسر التى ولدت فى ٢٣ فبراير سنة ١٨٩٩ فى التساى Alzey فى إقليم الرين هسن ، وكان أبوها مهندساً معمارياً فى ألتساى ودرست فى درمشتات ، ثم قامت بمهمة التدريس طوال عشر سنوات فى مدارس المنطقة . وتزوجت من الفيلسوف فلهم هوفمان . وارتحلت إلى برلين فى سنة ١٩٢٩ وانضمت إلى الجمعية الأدبية التى تكتب فى مجلة « العمود » . وبعد حياة حافلة بالمصاعب والآلام توفيت فى ٢٥ يوليو سنة ١٩٥٠ ، وكانت عضواً فى مركز « البن » Pen فى ألمانيا ، وعضواً فى الأكاديمية الألمانية للغة والشعر وأكاديمية العلوم والآداب .

ودعت إلى إيجاد نظرة جديدة فى العقيدة الكاثوليكية والرموز الكنسية ، وذلك بالمزج بين الرموز الدينية اليونانية والرموز المسيحية . واتجهت فى المرحلة الأخيرة من شعرها إلى استلهاهم قوى الطبيعة المحضة مع وضع الرجل الأوربى فى نطاق التقاليد المسيحية . وفى ديوان شعرها الأخير بعنوان : « البستانى والوردة . دورة سنة »

الذى ظهر عام ١٩٤٧ — قصائد حافلة بالرموز العميقة ، والمعاني الوجدانية الصوفية ، وتنم عن نظرة إلى الإنسان من حيث كونه واقعا تحت تأثير سلطان الطبيعة الجنى ، وتكشف عن شوق عارم إلى النجاة والخللاص . وبمناسبة الاحتفال بمرور سبعمائة سنة على بناء كاتدرائية كولن ، رائعة الفن القوطى العظيمة ، نظمت اليصابات لانججيسر فى سنة ١٩٤٨ « إيلجيا كولن » وفيها جمعت بين الأسطورة والتاريخ والأزمة الحاضرة ؛ واستخلصت من هذا كله رمزا على تاريخ تلك الكاتدرائية .

إن شعرها حافل بالرموز الدينية الملتزمة من الوثينة اليونانية والعقيدة المسيحية الكاثوليكية ، وفى تحقيقاتها الدينية نبرات حارة الوجدان ، لكن الصور الرمزية الأسطورية العديدة تجعل من الصعب تذوق هذا الشعر .

أما من الناحية الشكلية فقصائدها تلتزم الأوزان الثابتة الأصيلة فى الشعر الألمانى التزاما تاما لا تحيد عنه أبدا ، كما أنها تلتزم القافية بمنتهى الدقة . ولشعرها أصداء واسعة ليس فقط فى نطاق الأدب الألمانى ، بل وخارجه إلى مدى بعيد .

ونظرا إلى الطابع الدينى الكاثولىكى الصارخ فى شعرها فإننا نكتفى بهذه القصيدة من شعرها ، وعنوانها : « ربيع سنة ١٩٤٦ » :

أى شقائق النعمان الأنيقة !

هأنت ذى من جديد تلوحين بتاج ناصع

لتروحي عنى أنا المخدوشة ، مثل نوسكا !

انحناء أنارته الريح ،

وموج وزبد ونور !

آه ! أى سحر من الأفلاك

رفع عن ظهري الأُغبر
 وزره الذي أنقضه ؟
 إني أنفض من مملكة الضفدع البرى
 وحمرة بلوتو لا تزال تحت أجفاني
 ونأى حادى الأموات لا يزال يرن مروعاً فى أذنى
 ولقد شاهدت فى عين الجورجون نظرة من فولاذ
 وسمعت أكاذيب تنفث السم يكاد همسها يقتلنى
 أى شقائق النعمان ! دعينى أقبل وجهك : الذى لا ينعكس عليه
 نهر الاستيكس ولا نهر الليثيه ، ودون علم « بلا » و « كلا » .
 أنت تحمين بيننا ، دون أن تغررى بأحد ؛
 تمسين قلبى فى رفق ولا تثيرين ناره — أيتها الطفلة نوسكا !

فهرس الكتاب

صفحة

١	رلسكه فى مصر
٣٢	خبز وخمر لهيلدرلن
٤٨	لوركا : مرثية مصارع الثيران إغنسيو منشت نجاس
٦٢	سانت جون برس
٧٢	الصور الشعرية عند سانت جون برس
٨٠	جان كوكتو
٨٨	جان كوكتو الشاعر
١٠٥	كوكتو الناقد
١٠٦	كلوديل وتأملاته فى الشعر
١٢٠	ميتيانا والشعر
١٢٧	نيتشه والشعر
١٣٤	شوبنهور والشعر
١٤١	هيجل والشعر
١٤٧	هيجل والموسيقى
١٥٤	شوبنهور والموسيقى
١٦١	نيتشه والموسيقى
١٦٨	هرمن كوهن والموسيقى
١٧٤	اشبنجلر والموسيقى

صفحة

١٨١	في الشعر الألماني المعاصر
١٨١	ماهو الشعر الحديث حقا ؟
١٩٠	حين يصبح التجديد هراء
٢٠٠	الكلاسيكي المعاصر
٢١١	حتى أشد المجددين يلتزمون الوزن والقافية

دار القومية العربية للطباعة
تليفون ٨٢٦٢٣٤

الناشر: مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد فريد - القاهرة

الثنى ٤٠ قرشاً